الأصول المصرية للديانة المسيحية

عادل أسعد الميري

- المؤلف: الدكتور ثروت الأسيوطي
- العنوان: الأصول المصرية للديانة المسيحية
- تحقيق وإعداد: عادل أسعد الميري
- الطبعة: الأولى 2016
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:
٢٠١٦ / ؟؟؟؟
الترقيم الدولي: ISBN
؟ - ؟؟؟ - 765 - 977 - 987

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أى جزء منه. أو تخزينه فى نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأى شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

الأصول المصرية للديانة المسيحية

دراسة في مؤلفات

الدكتور ثروت الأسيوطي

ترجمة وتحقيق وإعداد

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الأسيوطي، ثروت

الأصول المصرية للديانة المسيحية – عادل أسعد الميري

ط1القاهرة –آفاق للنشر والتوزيع – 2016

؟؟؟ ص، 24 سم.

رقم الإيداع ؟؟؟؟؟ / 2016

الترقيم الدولي ؟ – ؟؟؟ – 765 – 977 – 978

1 –

أ – العنوان

دليل القارئ إلى فهم النص:

١ - كل الكلمات والمصطلحات وأسماء الأعلام، التي تحمل إلى جوارها هذه النجمة*، يمكن العثور عليها مرتّبة ترتيبا ألفبائيّا أبجديّا، ومشروحة شرحا بسيطا، في فهرس التعريفات الموجود في نهاية الكتاب.

٢ - أما أسماء المراجع الهامة وأسماء مؤلّفيها، وهي المراجع التي يأخذ منها هذا الكتاب معلوماته، فسيجدها القارئ داخل النص، إما في وسط الفقرات أو في نهايتها، وقد أحاطت بأسماء المراجع ومؤلّفيها أقواس من هذا النوع [ ]، كما أن هناك قائمة كاملة بها في نهاية الكتاب.

مقدّمة

(١)

هذه هي دراسة في الأصول المصرية القديمة للديانة المسيحية. في البداية كان مشروعا لترجمة كتاب بهذا العنوان، من الفرنسية إلى العربية، لمؤلف مصري هو الدكتور ثروت الأسيوطي، الذي تعرّفت عليه منذ ربع قرن في أوائل التسعينات، أثناء القائه محاضرة في السوربون، والكتاب كان رسالته للدكتوراه في السوربون، قبل حوالي ثلاثين عاما. بعد ذلك فكرت في قراءة عدد آخر من مؤلفاته التي تدور حول نفس الموضوع، ومحاولة تبسيطها من ناحية المعلومات اللاهوتية أو المصرية القديمة التي فيها، وكتابتها وعرضها بأسلوب يجذب القارىء المصري أو العربي غير المتخصّص. ذلك لأن أغلب مؤلفات د. الأسيوطي كانت كتبا جامعية في فلسفة الأديان موجّهة إلى العقلية الأوروبية.

يتعرّض الكتاب لمناقشة أفكار عن مولد المسيح دون زرع بشر، ومعجزاته مثل إقامة الموتى وشفاء المرضى، وموته ثم قيامته من الأموات، وكيف أن الفكر الديني المصري القديم كان قد تعرّض لكل تلك الأفكار، خلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة، خاصة في مراكز عبادة أوزير، الذي مات كقربان إلى الربّ، لفداء الجنس البشري، ثم قام من الأموات، والابن حورس الذي وُلد دون زرع بشر، وهو نفس ما ادّعى عدد من الملوك المصريون وقوعه لهم، بداية من أوسركاف في الأسرة الخامسة. وقد درست علم المصريات في كلية الآثار بجامعة القاهرة، وحصلت منها على دبلومي دراسات عليا.

(٢)

إذا تساءل أحد القرّاء عن السبب في الاختفاء قديما وحديثا للكثير من الأناجيل الأولى، التي قد يبلغ عددها حوالي الأربعين إنجيلًا، وعن السبب في الاختفاء قديما وحديثا للكثير من الرسائل الأولى، التي لم يُجْمَع فيما بعد إلا بعضها فقط مع الأناجيل.

فالإجابة هي أن امتناع كل من الأناجيل والرسائل، عن الظهور علنا في أيدي المؤمنين بها، في شوارع وحوانيت وأسواق المدن، في مناطق آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر، في القرون الأولى من الميلاد، كان بسبب أن تداول هذه الأناجيل والرسائل كان ممنوعا، لأن الدولة الرومانية التي كانت مسيطرة على مقاليد الأمور، في المنطقة الجغرافية المعروفة حاليا باسم منطقة شرق حوض البحر المتوسّط، كانت دولة وثنية، لا تؤمن بيسوع المسيح ولا برسالته ولا بكتابات تلاميذه، لذلك كان المؤمنون يتناقلون هذه الكتابات في سرّيّة تامة، ولم يتمكنّوا من البدء في تداولها علنا، إلا بعد أن تحوّل الامبراطور قسطنطين إلى المسيحية، بعد مرور الربع الأول من القرن الرابع الميلادي.

أمّا الاختفاء حديثا منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، لهذه الأناجيل والرسائل، فهو بسبب حقيقة تاريخية أخرى، وهي أن كل هذه الكتب من أناجيل ورسائل وكتابات دينية، ظلت تكتب بخط اليد، في شكل مخطوطات ورقية غالبا، وتنقلها أيدي أخرى في نفس اللغة أو في لغات أخرى، مما جعل مسألة انتقال المعلومات بدقة تامة، أي بدقّة تبلغ درجة ١٠٠ ٪ من الكمال، مسألة شبه مستحيلة، إمّا بسبب الضعف البشري، أو الهوى الطبيعي لانسان، قد لا يهتم بنقل المعلومات التي لا تروق له.

ظلت تلك المسألة، أي مسألة استنساخ الكتب بخط اليد، منتشرة طوال خمسة عشر قرنا، وهي المدّة الزمنية الواقعة بين مولد المسيح، وبين اختراع أول آلة طباعة بحروف معدنية منفصلة، يعاد تركيبها وفقا لكلمات كل صفحة جديدة من صفحات الكتاب، بفضل عالم ألماني اسمه جوتنبرج حوالي سنة ١٤٥٣. عند هذا التاريخ قرّرت كنيسة روما البابوية، استبعاد كل الكتابات التي كان مشكوكا فيها، وطبع الإنجيل الرسمي الأول للكنيسة المسيحية، من كتابات متى ومرقص ولوقا ويوحنا، فقط لا غير.

(٣)

من الضروري جدا في هذه المقدّمة الاشارة إلى نصّ توراتي قديم، يتميّز بقدر كبير من الغرابة، هو من سفر الخروج الاصحاح العشرين، الأعداد من الثالث إلى الخامس الذي يقول (لا تكن لك آلهة أخرى سواي، لا تنحت لك تمثالا، ولا تصنع لك صورة، مما في السماء من

فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من أسفل الأرض، لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ، لأنّي أنا الربّ إلهك إلهٌ غيور، أفتقد آثام الآباء في الأبناء، حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيَ). يتضّح إذن من هذا النصّ، أن الديانة اليهودية الموسوية، كانت تحرّم التصوير والنحت، حتى لا يتخذّ الناس من التماثيل والصور آلهةً لهم.

هذه الفكرة لم ترد قط في أي نصّ انجيلي، ولم ترد قطّ فكرة منع النحت والتصوير في المسيحية، بل على العكس، كانت هذه الفنون دائما ما تستعمل كأدوات، لتقريب الموضوعات الدينية من الأذهان، ولم تكن تعبد في حد ذاتها، بل كان ما يعبد فيها، هو ما تشير اليه هذه القطع من الفنون. هذا الدليل ينضم إلى مجموعة الأدلّة، التي تظهر بوضوح أن المسيحية لم تكن امتدادا لليهودية الموسوية، بقدر ما كانت امتدادا للديانة المصرية القديمة في كل تجلّيّاتها. لدينا عشرات المراجع التي يمكن أن نختار منها هنا كتابا واحدا هو [قواعد الأشكال الفنّيّة/ بالفرنسية La grammaire des formes/ للمؤلف ديلفوي Delvoye/ طبعة سنة ١٩٨٢].

(٤)

إن الدراسات الحالية في علوم الأديان المقارنة، هي من نتائج الاكتشافات الأثرية والأبحاث العلمية التي قامت عليها، خلال أكثر من قرن ونصف، منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى قرب نهاية القرن العشرين. والمقصود هنا هو ليس فقط الاكتشافات الأثرية في الأرض المصرية، بل كذلك الاكتشافات الأثرية في العالم المسيحي القديم، الذي كان خلال القرون الأولى للميلاد يشغل أجزاء واسعة من الإمبراطورية الرومانية، مثل الحفائر الأثرية الحديثة التي تم الكشف عنها في فلسطين، خلال الربع الأخير من القرن العشرين، وهي الحفائر التي كشفت إلى أي حدّ كانت عبادة أوزوريس (سيرابيس) * وإيزيس قد انتشرت في مناطق واسعة من شرق حوض البحر المتوسّط في القرون الأولى من التقويم الميلادي المسيحي.

إن الاكتشافات الأثرية المسيحية تقدّم لنا أوجه شبه عديدة شديدة الوضوح بينها وبين الاكتشافات الأثرية التي قامت على أساس المعتقدات الدينية المصرية والفكر الديني المصري القديم. يسوع المسيح سيدخل ذات مرة في أورشليم القديمة، إلى أحد الهياكل المصرية المخصّصة لعبادة أوزوريس، حيث سيمارس واحدا من أهم أعماله الشفائية المثيرة

للاهتمام.

إن أيّة دراسة للنصوص المصرية القديمة، ثم مقارنتها بالنصوص المسيحية الأولى، توضّح بجلاء شديد إلى أي حدّ توجد هناك نقاط تشابه بينهما. غالبا ما تظهر في النصوص المسيحية الأولى الموضوعات المصرية القديمة باقية حتى في أدقّ تفاصيلها. بل إن بعض الكلمات الفنيّة المستعملة في العبادات المصرية القديمة، والمستعملة في صياغة بعض النصوص الدينية المصرية، كانت قد دخلت بلفظها مباشرة، لتحمل نفس المعاني في اللغة الآرامية. فالديانتان المصرية (الأوزيرية) والمسيحية تتشابهان في كونهما ديانتين موحّدتين عالميتين وموجّهتين إلى جمهور بشري عام غير محدود.

ديانتان تميلان إلى تبني فكرة واحدة هي خلاص جميع البشر من أسر الخطيئة وعبودية الشيطان، وقبول الربّ لتوبة الإنسان الخاطئ، بصرف النظر عن لون بشرة أو جنس أو نوع هذا الإنسان، أو عن انتمائه إلى طبقة اجتماعية محدّدة. ديانتان تبشّران بالعدالة الاجتماعية، وتأمران بالمعروف وتنهيان عن المُنكَر. ديانتان تؤمنان بقيامة الأموات، وبالحساب الأخير، وبمكافأة الأخيار، وبمعاقبة الأشرار. إن المؤمنين بالديانات السماوية لا ينسون أبدا، أنه في العلاقة بين الفكر الديني المصري القديم والديانات الموحى بها من السماء، فإن العقل البشري – وفقا للمعتزلة في الإسلام وتوماس الأكويني في المسيحية – يستطيع وحده أن يميّز بين الجمال والقبح، وبين الخير والشر، وأن الوحي السمائي لم يفعل أكثر من تأكيد اختيارات العقل البشري.

(٥)

إن تأثير مصر القديمة على الأنبياء اليهود وعلى المفكرين الاغريق لا يمكن انكاره. إن استعمال أسلوب تاريخ الحضارات والأديان المقارن يفرض نفسه في حالة الأبحاث العلمية، وهو ما يعني أن يوضع كل نصّ من النصوص التاريخية في سياقه التاريخي، ويجعل مظاهر وعوارض الأديان المختلفة تضع نفسها كل منها في مواجهة الأخرى، وذلك حتى يتمكن الباحث من استنتاج القوانين الموضوعية التي تحكّمت في تطوّر الأفكار والمعتقدات. في مراحل لاحقة من تاريخ الكنيسة، كانت هناك الأناجيل التي أوقفت الكنيسة الاعتراف بها واعتبرتها محرّفة. وهي التي يطلق عليها لفظ الأبوكريفا *.

تقول الحقيقة التاريخية إن تلك الأناجيل المحرّفة كانت هي الأناجيل السائدة في أيدي الطبقات الفقيرة من الكتلة الجماهيرية. الحقيقة التاريخية هي أن القوانين التي انتهت الكنيسة إلى وضعها والتمسّك بها نتجت عن صراع طبقي عنيف بين الأغنياء والفقراء. إن الحروب التي دارت حول الأحاديث التي قيلت على لسان الأنبياء، بل حتى حول مجرّد بعض الكلمات التي نطقوا بها، كانت في حقيقتها صراعات طبقية.

أن النتائج التي يمكن استخلاصها هي أنه

أولا: الإنجيل هو المصدر الأساسي للمعتقدات المسيحية.

ثانيا: ما عدا الإنجيل من إضافات تراكمت عبر العصور فمن الواجب تمحيصها في ضوء المصدر الأساسي، بالنظر إلى كثرة ما أضيف إلى المتن الرئيسي.

ثالثا: كانت كتابات الحواريين من تلاميذ المسيح الاثني عشر عبر رسائلهم إلى شعوب العالم، غالبا قد دخلت عليها إضافات محليّة كثيرة تميّزت بطابع وقتي زائل.

رابعا: كانت القوانين التي تصدر عقب المجامع المسكونية * لا تخص إلا الكنائس التي حضرت تلك المجامع، ولم يكن من الممكن تطبيقها على كنائس لم تكن حاضرة.

خامسا: ليس لآراء آباء الكنيسة من قيمة إلا فقط بصفتهم شهودا على التقليد المقدّس، وهي شهادات مؤقتة وزائلة.

(٦)

إن العالم الروماني في زمن حياة يسوع المسيح كان عالما طبقيا، في قمته كانت توجد أقليّة من طبقة النبلاء ومن مغامري الثروات، الذين كانوا يقيمون في روما، ويعملون في التجارة عبر البحار، أو يقيمون خارج روما في إقطاعيات كبيرة من الأرض الزراعية. أمّا في قاع هذا المجتمع فكانت تعيش في حالة من البؤس التام والفاقة، أغلبية فقيرة من الكتل الجماهيرية محرومة من كل شيء، تعاني من الإحساس الدائم بالجوع، ويعمل أفرادها لدى طبقة الأغنياء مقابل مرتبات ضئيلة القيمة جدا. كما أن من بين أفراد هذه الطبقات الفقيرة من كان يجد نفسه هو وأسرته لسبب أو لآخر وقد انزلقوا جميعا إلى الحضيض المزري

للعبودية. كان الشعب كله باستثناء تلك الطبقة الثريّة، يعاني أفراده من الظلم الاجتماعي ومن القهر الاقتصادي، بالإضافة إلى المعاناة من العنف الجسدي ومن الرعب النفسي. كان الأمل الجمعي يطمح إلى الخلاص من هذا العذاب، ومن هذه المهانة.

ثم جاء إلى هذا الشعب الروماني وميض الأمل قادما عبر المتوسّط من الجهة التي تقع فيها مصر، ليضيء ولو جزئيا هذا الظلام الدامس المنتشر في الأفق الروماني. فلو أننا قلنا إن الامبراطور الروماني كان يحيط نفسه بشكل رسمي بطبقة المنتفعين الأثرياء، فإن عبادة الالهة المصرية (إيزيس) غزت قلوب الطبقات الفقيرة المحرومة، بما هو معروف عنها من عدالة تجاه كل البشر ومحبّة لكل البشر. في أسطورة إيزيس وأوزوريس من المعروف أن الإله أوزوريس كان قد مات غريقا في مياه النيل. ثم تمكنت إيزيس زوجته من إنقاذه ومن المساعدة في إعادته إلى الحياة. وتمكّن ابنه حورس من الانتقام من قاتليه. بعد عودته إلى الحياة تمكّن أوزوريس من أن يخطو عتبات البوّابات السرّيّة الكبرى نحو الطريق المؤدّي إلى المجد الأبدي للخلود.

لكل هذه الأسباب انتشرت عبادة هذا الثالوث انتشارا ساحقا في كل العالم الروماني بما في ذلك مستعمراته التي غطّت جزءا كبيرا من العالم المعروف في ذلك الزمان، بما ذاع عن آلهته من حب العدالة، ومن حبّ الزهد والتقشّف في الحياة، وبما شاع عن معتنقي هذه الديانة في مصر القديمة، من الايمان بوجود العالم الآخر، وبوجود الحياة بعد الموت. إنها هي هذه الديانة المصرية القديمة التي مهّدت الطريق إلى المسيحية، حيث تشترك الديانتان في الكثير من المعتقدات والممارسات، التي لن نذكر منها هنا إلا الاعتقاد في الثالوث الإلهي، وفي الموت والعودة إلى الحياة بعد الموت، وفي المعمودية بالتغطيس في الماء، وفي غفران الخطايا لمن يتوب عنها.

الفصل الأول
الميلاد

(١)

الأساطير المرتبطة بميلاد المسيح

أغلب مؤسسي الديانات الكبرى تحيط بمولدهم الأساطير. وتبدأ هذه الأساطير في الارتباط بمولد مؤسّس الديانة الجديدة، بعد مرور بضعة أجيال على وفاته، بهدف إحاطته بهالة من القداسة التي لم تكن له أثناء حياته. فبقدر ما يحرص مؤسسو الديانات الكبرى على أن تكون أقوالهم وأفعالهم كلها واقعية حقيقية قابلة للتصديق، بقدر ما ينغمس أتباعهم عبر الأجيال المتتالية، في تحويل حيواتهم العادية إلى معجزات وأفعال خارقة للعادة، وروايات خيالية يصعب تصديقها، تختمر عبر مرور الزمن في أذهان وعقول المؤمنين الذين يرغبون على الفور في التصديق، دون أيّ إعمال عقل، وذلك فقط بهدف إحاطة مؤسسي الديانات بهالة القداسة السابق الاشارة اليها.

إن الطبقات الشعبية المطحونة من فقراء شعوب الأرض، المحبطة والفاقدة الأمل، تقذف بنفسها في اللاواقع، وذلك بالعمل على إحاطة الشخصية المحبوبة لديهم، الشخصية المبجّلة لمؤسّس الديانة الجديدة، بهالة من القداسة الأسطورية، التي تزداد اتساعا حول الشخصية المجيدة المبجّلة كلما ازدادت معاناة تلك الطبقات الفقيرة في حياتها اليومية.

إنه الأسلوب المشوّش وغير المباشر الذي تتّبعه تلك الطبقات الفقيرة من الشعوب، تلك الجماهير الغفيرة غير المنظّمة، في المواجهة التي تدور رحاها في منطقة اللاوعي مع الطبقات الثريّة المميّزة من نفس هذه الشعوب. وكلما زاد رفض الطبقات الثرية ذات السلطة للمبشّر بالديانة الجديدة، كلما زاد تعلّق طبقات الجماهير الشعبية الفقيرة بمساندته.

هنا تأتي السير التي تُكْتَب عن حياة مؤسّس الديانة الجديدة، لتتغلّب على حقائق التاريخ وعلوم الآثار، وتصبح الحكايات المروية حول سيرة مؤسّس الديانة، مثل النباتات التي تنمو نموّا عشوائيا وتتسلق جدار حياة مؤسّس الديانة، كما يحدث في حالة أي أسطورة منقولة شفهيا عبر الأجيال، التي تزيد عليها تلك الأجيال وتضيف اليها جيلا بعد جيل، رغم أنها تكون مبنيّة في أساسها على الخرافات الشعبية، التي حيكت بمهارة حول نواة ضئيلة القيمة جدا من الحقائق التاريخية. هكذا يتحوّل شخص مؤسّس الديانة الجديدة من قائد ثورة شعبية إلى بطل أسطوري.

فيما بعد تصبح مثل هذه الأساطير جزءا لا يمكن الاستغناء عنه من معتقدات الطبقات الشعبية، حتى أنها تدخل في نطاق الحقائق المعترف بها والتي لا يمكن إنكارها في الديانة الجديدة. هذا هو السبب الذي يبرّر اهتمامنا بتلك الأساطير، وبكل ما فيها من تفاصيل دقيقة لم تنتج إلا من الخيالات الخصبة لمبتكري الأسطورة، وبالطريق الذي سلكته حتى وصلت في النهاية إلى متن الكتاب الذي يقدّسه جمهور هذه الديانة الجديدة. في هذا المجال يمكن لبعض الأساطير المحليّة، أي تلك الأساطير المولودة في بيئة محدّدة، أن تنتقل من مكانها وتهاجر كالطيور التي تعبر الحدود بين الدول، وحتى بين القارات، وتدخل إلى بيئة أخرى مختلفة عن بيئتها الأصلية، لتدخل في صميم نطاق الديانة الجديدة وفي متن كتابها المقدّس.

إن الأساطير ليست دائما نتاج الخيال الجمعي لأفراد الشعب، بل يحدث في بعض الأحيان أن تكون نتاجا قادما من جهة الطبقات العليا التي تحكم البلاد، مصنوعة بكامل اجزائها من خيال الفئة المحيطة بأحد الملوك، بهدف تقوية دعائم سلطة هذا الملك، مثل تلك الأساطير المتعلقة بالسلطة المقدّسة (المطلقة) المخوّلة لهذا الملك من طرف الآلهة، مدّعين انتساب هذا الملك إلى الآلهة بفضل مولده من أحدهم. وهكذا يحدث مع مرور الزمن، أن تندمج الأسطورة القادمة من جهة الثقافات الشعبية، مع الأسطورة القادمة من جهة السلطات العليا، ليُنْتِجا سويا تشابكا معقّدا جيّد الاندماج، ليصبح فيما بعد إرثا ثقافيا وطنيا لا يمكن التخلّي عنه، تتناقله الأجيال تلو الأجيال، ويدافع عنه الجميع بدمائهم، دفاعهم عن معتقداتهم الدينية، وعن إرث أسلافهم الروحي.

وإن كان هذا لا يمنع من أن تحدث إضافات لبعض التفاصيل الجديدة، بدافع من التغيّرات الاجتماعية الجديدة التي تحدث مع مرور الزمن. وإن كان هذا لا يمنع كذلك هذا الإرث الثقافي المحلّي، من أن يكتسب قدرا من الاستقلالية الذاتية، بم يسمح له بحريّة

الحركة، فيمكنه بذلك مثلا أن ينتقل من بلد إلى آخر، ليندمج مثلا مع أساطير محليّة أخرى في البلد الجديد. بل قد يمكنه كذلك أن ينتقل من تراث ثقافي لإحدى الديانات، إلى تراث ثقافي لديانة أخرى، متكيّفا مع الظروف والملابسات الجديدة المرتبطة بالديانة الأخرى، بم يسمح له بأن يصبح بعد بضعة قرون، عنصرا أساسيا لا يمكن التخلّي عنه في الديانة الأخرى.

هذا هو السبب الحقيقي وراء نقاط التشابه الملفتة للانتباه، فيما يتعلق بهالات القداسة الأسطورية التي تحيط بكل مؤسّسي الديانات الكبرى في تاريخ البشرية، ليس فقط في معجزات أنجزوها خلال حيواتهم، بل حتى في مجرّد سرد تفاصيل قصص ولاداتهم المعجزية، فمنذ أسطورة مولد بوذا، التي لم تسجّل كتابةً إلا بعد أكثر من خمسة قرون من ولادته، أي بعد مدّة طويلة نسبيا من فتح الاسكندر الأكبر الطريق بين أوروبا والهند، قبيل وفاته سنة ٣٢٣ قبل الميلاد.

بالإضافة إلى كل هذا هناك حقيقة أن الهند عندما غزاها الاسكندر كانت تعرف عبادة إيزيس، التي كانت معروفة هناك باسم (مايا) أي الأم، وهو كذلك الاسم الذي حملته والدة بوذا. لهذا السبب أمكن كذلك إدماج ما يتعلّق بأسطورة حورس ابن إيزيس داخل الأسطورة الهندية، لتندمج صورة حورس مع صورة بوذا، كما سبق واندمجت صورة إيزيس مع صورة مايا. ان مصر القديمة أرض الفراعنة، التي هي مهد الحضارات البشرية، كانت قد أمدّت عبر القرون، الحضارات الأخرى الأحدث منها سنّا، بالكثير من الأساطير المصرية، التي كانت من بين الأساطير المحلية للمنطقة المصرية، ثم أصبحت من بين الأساطير المهاجرة من حضارة إلى أخرى

(٢)

أساطير من مصر القديمة

هناك مثالان يكفيان للتدليل على صحّة القول، بأن الأسطورة التي هي من اختلاق المخيّلة البشرية الجمعية لجماهير أمّة، يمكنها أن تندمج في وحدة واحدة مع أسطورة أخرى، من اختلاق مخيّلة السلطات العليا المسيطرة على نفس هذه الأمّة. أولهما هي أسطورة موت الإله أوزوريس والمولد المأساوي لابنه حورس، وثانيهما هي أسطورة وصول الملك أوسر كاف إلى كرسي عرش مصر في الأسرة الخامسة.

الأسطورة الأولى التي تعود جذور بداياتها الأولى إلى عصور ما قبل الأسرات، أي إلى عصور الألفية الرابعة قبل الميلاد، تعرّضت للكثير من التعديل والتبديل عبر أكثر من ثلاثين قرنا، حتى وصلت الينا نسخة منها في زمن الأسرة الثلاثين، أي في القرن الرابع قبل الميلاد. وهي بهذا التعديل والتبديل أصبحت نموذجا مثاليا لما يمكن أن يحدث لأسطورة شعبية قديمة، أُدْخِلت عليها عناصر جديدة من التعديلات، بسبب حدوث تغيّرات اجتماعية أو سياسية.

كما نعرف فإن بطل هذه الأسطورة الأصلي (وِزِر)، أو حسب النطق اليوناني أوزوريس، هو إله مصري قومي، اعتقد الشعب المصري لفترة طويلة أنه كان شخصية حقيقية عاشت بينهم، ثم تمّ تحويله إلى إله بعد موته، هو إله الخير ووالد (حِر) حورس، ثم قام أخوه الشقيق (سِت) إله الشر، وينطق في اليونانية سيتوس، بقتله والتمثيل بجثّته، وهكذا أصبح حورس طفلا يتيما قامت أمه (ايست) وتنطق في اليونانية إيزيس، برعايته وتربيته وحدها. كانت إيزيس هي الفقر والفاقة والاحساس بالمرارة النفسية والمعاناة من التجرّد والحرمان من نعم الحياة، وهو ما شجّع على انتشار عبادتها بين الطبقات الشعبية الفقيرة المحرومة في مصر تحت الاحتلال الفارسي خلال عصر نهاية الأسرات.

كان من الشائع وقتها أن يقال إنها كانت تخرج من منزلها للشحاذة على الطرقات، حتى تستطيع أن تحصل لابنها الطفل على قوت يومه. وكان من المعروف أن الفقراء أمثالها من بين طبقات الشعب الكادحة هم الذين أنقذوها هي وابنها من الموت جوعا. وتضيف الأسطورة أنه كان من المنتظر حسب طموحات الجماهير الشعبية، أن يكبر حورس ويصبح رجلا قويا يستطيع أن يعيد الحق إلى أهله وينتقم من قاتل أبيه [كتاب المسرح المصري/ للمؤلف الفرنسي إتيان دريوتون/ ١٩٤٢].

الأسطورة الثانية، أي تلك الخاصة بالملك أوسركاف، يمكن اعتبارها نسخة أخرى من أسطورة أوزوريس وحورس، هذه الأسطورة الثانية تعود إلى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، على زمن الأسرة الخامسة، حين يصبح الملك أوسر كاف حاكما على البلاد وبطلا أسطوريا. حسب تلك النسخة كان البطل أوسر كاف قد تمكنّ من الوصول إلى العرش وتأسيس الأسرة الخامسة وحُكْم البلاد، بعد أن كان قد نجح في الانتصار على قوى الشر، التي كانت متمثّلة في ذلك الوقت في طبقة نبلاء البلاط الملكي، بالإضافة إلى طبقة الكهنة وموظّفي المعابد. كان ذلك البطل مغتصب عرش البلاد، قد أحاط قصّة مولده، بعدد كبير

من المعجزات ومن الأفعال الخارقة للعادة، وهو ما لا نعلم به في الفترة المعاصرة له، بل هو ما يشاع عنه عند رواية قصّة بطولته، الموجودة في نص برديّة من الأسرة الثامنة عشرة، أي بعد أوسر كاف بحوالي ألف عام.

في تلك البرديّة المعروفة باسم بردية خوفو والسحرة، تبدأ القصّة بالملك خوفو، من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، الملك الثاني في الأسرة الرابعة، الباني لأكبر أهرامات هضبة الجيزة، عندما يذهب اليه أحد السحرة ليخبره أن الأسرة التي ينتمي اليها وتحكم عرش مصر، ستأتي من بعدها أسرة أخرى لن يكون مؤسسها من نسل خوفو، بل سيكون طفلا مقدّسا مولودا من الآلهة دون نجاسة أي دون زرع بشر.

يقول الساحر إنه عند حلول موعد ميلاد هذا الطفل الإلهي، سيقوم (رع) كبير الآلهة، بارسال إيزيس وأختها نفتيس، وآلهات حراسة أخريات، وسيكون برفقتهنّ الإله (خنوم) الفخراني، المسؤول عن تشكيل الأطفال على عجلة تصنيع الأدوات الفخّارية، والتي يقوم باستخدامها في تخليق كل الكائنات من بشر وحيوانات، ليساعد جميعهم في إتمام عملية خلق الطفل المقدّس على الوجه الأكمل [بردية رقم ٣٠٣٣ بمتحف برلين، وكتاب جوستاف لوفافر Gustave Lefebvre/ قصص وأساطير من مصر القديمة/ طبعة باريس/ سنة ١٩٤٩].

عند الوصول إلى الأرض، والى مكان مولد الطفل، تتحول بعض الآلهات إلى مغنيّات وعازفات على الآلات الموسيقية وراقصات، وذلك للاحتفال مع والدة الطفل المقدّس بمناسبة مولده، بينما تساعد آلهات أخريات الأم المقدّسة في إنهاء عملية الوضع. هكذا يأتي المقدّس أوسر كاف إلى العالم. تصاحب مولده الكثير من المعجزات والخوارق، إذ تحدث عاصفة رعدية يسقط على إثرها المطر مدرارا، وهذا نادر الحدوث في مصر الفرعونية، ويعتبره أهلها دليلا على الخير وعلى مباركة السماء، ثم تأتي من السماء أصوات غناء مصحوب بموسيقى سماوية، وهتافات وتهليلات بأصوات غير معلومة المصدر، هلليلويا. باختصار يحدث كل ما هو متعارف على حدوثه، أو يشاع حدوثه، عند مولد طفل ملكي. باختصار يحدث كل ما هو متعارف على وروده في الأناجيل (متى/ مرقص/ لوقا/ يوحنّا) عند مولد الطفل المقدّس يسوع.

هاتان الأسطورتان اللتان تعكس أولاهما مولد الطفل في طبقة فقيرة تعاني من الفاقة،

تذهب فيها أمه إلى الطرقات للشحاذة، حتى لا يموت الطفل جوعا، وتعكس الثانية النعيم الذي يولد فيه الطفل الملكي، والرخاء الذي تعيش فيه أسرته الملكية، والعناية الإلهية التي يحظى بها، والمعجزات التي تواكب مولده، هاتان الأسطورتان ستندمجان معا، حتى تتخلّق لدينا أسطورة واحدة تجمع في تفاصيلها بين عناصر كل من الأسطورتين المنفصلتين. تلك الأسطورة الواحدة ستعود إلى الظهور في مناسبات عدّة في حضارات مختلفة متباعدة، لدى شعوب تسكن في أركان الأرض الأربعة، حيث ستكون فيها هي الأساس للكثير من المعتقدات والممارسات والطقوس الدينية لتلك الشعوب.

(٣)

معجزة الميلاد المقدّس

سيكون مولد الطفل يسوع، مثل مولد الطفل بوذا، مثل مولد الطفل أوسر كاف، مثل مولد الطفل حورس، مصحوبا بالكثير من الخوارق والمعجزات. ثم بعد ذلك ستقوم الأجيال اللاحقة المتتالية من المسيحيين الأوائل، خلال القرون الأولى للميلاد، بإضافة الكثير من الزيادات إلى تلك الخوارق والمعجزات. كما سبق أن فعلت الأجيال اللاحقة المتتالية من البوذيين، ومن قبلهم الأجيال اللاحقة المتتالية من المصريين القدماء، بحيث تنتهي تلك الأجيال اللاحقة إلى ملء كل فراغات حيوات مؤسّسي دياناتهم بالخوارق والمعجزات، ولكن بشكل يتناسب في كل حالة مع عاداتهم الاجتماعية والثقافية المحلية في بيئاتهم الجغرافية المختلفة.

وكثيرا ما يتمّ هذا بشكل ساذج فجّ يدعو في الحقيقة إلى الاحساس بالشفقة، على عقول المؤمنين اللاحقين بتلك الخوارق. ينتهي الأمر بأن تصل الينا حياة مؤسّس الديانة وقد أصبحت تلك الظواهر الخارقة للعادة، طابعا عاما يمثّل حياة وأعمال ومواقف مؤسس الديانة كلها، وليس فقط طابعا مقتصرا على تفاصيل مادة قصّة مولده. يحدث في أغلب الأحوال أن تتمحور قصص ميلاد وحياة مؤسّسي الديانات حول ثلاثة أفكار رئيسية: أولا المولد المعجزي المقدّس، ثانيا الصراع مع السلطات المحلية الظالمة، ثالثا انتصار الخير على الشر.

وهكذا حدث أن كان مولد الطفل يسوع في أسرة فقيرة، من الطبقة الكادحة العاملة (البروليتاريا). ولكن كما سبق وحدث مع كلٍ من والدة أوسر كاف ووالدة بوذا، بدأت قصّة

الإعلان الإلهي عن الحمل المقدّس والولادة المعجزية للوالدة في كل حالة بحلم أو رؤيا. ففي حالة مولد بوذا جاءت للأم (مايا) رؤيا في المنام، أن طفلها ينزل من السماء ليدخل في رحمها عن طريق اختراق الجانب الأيسر لجذعها.

العجيب في هذه الرؤيا هو أن صورة الطفل بوذا لحظة دخوله إلى رحم أمّه كانت هي صورة فيل صغير أبيض اللون، ذي ستّة أنياب، وهو ما يتفّق تماما مع المعتقدات المحليّة الهندوسية، المتعلّقة بعبادة الفيل (جانيش). ثم جاء أبناء الآلهة (ملائكة) يعلنون لوالد بوذا واسمه (سوذودانا) ألا يخشى على امرأته من الأقاويل، فهي قد حبلت من الآلهة، حملا مقدّسا معجزيّا دون زرع بشر، بطفل سيكون عظيما في المخلوقات وبين البشر، وسيحمل اسم (بوذا)، وهي كلمة في اللغة الهندية تعني (المُنْتَبِه المستنير) أو (القادر على رؤية ما لا يرى)، أو (القادر على التنبّؤ بما سيحدث في مستقبل الأيّام).

الفتاة (ماريا) جاءها في أثناء نومها حلم، ظهر فيه ملاك أخبرها بنبأ أنها ستحمل في بطنها، طفلا تأتي بذرته من القدّوس (الروح المقدّس)، وهو نفس القدّوس الذي عادة ما يظهر للبشر في شكل طير أقرب شبها بالحمائم، وهو نفس القدّوس الذي سيظهر لاحقا في حياة يسوع مرة أخرى في شكل أقرب إلى الحمائم، عندما يذهب يسوع إلى نهر الأردن ليمارس هناك طقس التطّهر على يد النبي يوحنا المعمدان (النبي يحيى)، ويأتي في نفس تلك اللحظة صوت من السماء يقول (هذا هو ابني الحبيب الذي به سرّرت). هل هذا هو صوت القدّوس؟

المهم نعود إلى قصّتنا، التي تذكر أن الكلمة التي نطق بها الملاك ودخلت في أُذُن مريم، هي البذرة التي ستتحوّل لاحقا في رحمها إلى طفل مقدّس. اللفظ المنطوق المتحوّل إلى كائن حيّ هي فكرة مصرية قديمة، بدأها (رع) أقدم الآلهة الخالقين في مصر القديمة، عندما كان يخلق البشر وغيرهم من الكائنات بمجرّد نطقه لأسمائهم.

ثم يذهب الملاك بعد ذلك إلى يوسف النجّار، ليخبره بالنبأ السعيد، لقد أصبحت الشابة ذات السبعة عشر ربيعا، خطيبته (مريم)، حاملا، وأنه لا يحقّ له أن يخشى عليها من الأقاويل، فهي قد حبلت من الروح القدس، من الذات الإلهية المقدّسة، فالمولود الذي ستضعه وترضعه سيكون طفلا مقدّسا [كتاب طفولة المسيح/ باللغة الأرمينية].

تماما على غرار ما سبق وأن حدث مع غيره من الأطفال المقدّسين، حورس وأوسركاف

وبوذا [كتاب القديس جيروم Jerome عن الاختلافات بين المعتقدات البوذية والمعتقدات المسيحية، وكتاب حياة بوذا للمؤلف فوشير]. أضاف الملاك قائلا إلى يوسف إنه يجب أن يطلق على ابنه عند مولده اسما بعينه، وهو (عيسى/ إيسوس/ يسوع) وهي الكلمة التي تعني (المُخَلّص من العذاب/ المُنَجّي من المهالك)، وقد تعني كذلك (الشخص الذي يعلن عن هذا الخلاص وتلك النجاة).

هذه المقارنات بين الميلاد المعجزي لكل من بوذا ويسوع، لا يجب أن تصدم المؤمنين بالديانة المسيحية، وذلك لأنها كانت من المقاربات المعتادة لفلاسفة العصور المبكّرة، حيث كان أوّل من قام بها، هو القدّيس جيروم في القرن الخامس الميلادي، وهو أحد الآباء الأوائل للكنيسة الكاثوليكية في أوروبا. ثم إن مولد الطفل المقدّس، الذي سيصبح في المستقبل بطل الأسطورة، غالبا ما يكون محاطا بظروف صعبة.

فمولد الطفل حورس كان في أحراش ومستنقعات شمال دلتا النيل في مصر، وكانت أمّه مضطرّة إلى إخفائه عن عيون الأعداء المتربّصين بها، في وسط أجمة من سيقان نباتات البردي الكثيفة، التي ترتفع غالبا إلى أكثر من أربعة أمتار، حيث عاشا سويّا لفترة، كانت قد انتهت خلالها من إرضاعه من ثديها، ثم بدأت بعد ذلك تبحث له عن غذاء يناسب طفلا في العام الثاني من عمره.

أمّا مولد الطفل بوذا فكان قد جاء فجائيا، أثناء وجود والدته تتنزّه في حديقة عامة، مم اضطرّها إلى أن تضع طفلها وهي واقفة، وقد استندت بذراعها الأيمن إلى جذع شجرة، وقد جاءتها آلهة الحراسة في الديانه الهندوسية، من أمثال شاكرا وبراهما، لحمايتها مم قد تتعرّض له من أخطار، ولاستقبال الطفل المقدّس على أذرعهما، مثلما فعلت إيزيس ونفتيس عند مولد الطفل المقدّس أوسركاف في نصّ بردية (خوفو والسحرة) [البردية رقم ٣٠٣٣ بمتحف برلين].

أمّا مولد الطفل يسوع فكان في حظيرة ماشية، وهو المكان الذي كان قد أُعِدّ لاستقبال البهائم، داخل مغارة محفورة في أحد التكوينات الصخرية [انجيل لوقا الاصحاح الثاني العددين ٦ و٧]، وعندما وضعته أمه قمّطته بمزق أقمشة، وتركته في مِذْوَد به بقايا تبن تغذّت عليه الماشية. وحيث إن مولده كان في فصل شتائي بارد، فقد قامت أنفاس حارة لحمار وبقرة بتدفئته. وبدلا من أبناء الآلهة أو الملائكة الذين ذهبوا للاحتفال بمولد الأطفال المقدّسين

الآخرين، فإنه في حالة مولد الطفل يسوع جاء ثلاثة من علماء الفلك من الكهنة المجوس، قادمين من الشرق وهم يتتبّعون نجما غريبا ظهر في السماء ثم توقّف عند مكان مولد الطفل ثم اختفى. يا لها من معجزة الهية عظيمة، ظهور واختفاء نجم، كأن هذا لا يحدث مئات المرّات كل يوم.

هناك ملاحظة أخرى هي أن الأربعة (حورس وأوسر كاف وبوذا ويسوع) كانوا قد ولدوا في ظلمات الليل البهيم، الذي لا ينيره إلا الضوء الخافت للقمر. وهو جوّ رومانسي تماما. هذه التفاصيل كانت قد جاءت مثلا في حالة الفرعون أوسر كاف، في النصوص الموجودة بالحفر البارز الملوّن، على جدران حجرة دفن الفرعون أوناس (ونيس) من الأسرة الخامسة، فيما عرف لاحقا باسم (نصوص الأهرامات)، فأوناس من نسل أوسر كاف. كذلك نصوص وصف مولد بوذا التي تشير إلى مولده في منتصف ليلة مقمِرة، ونصوص الأناجيل في وصف مولد يسوع، التي تشير إلى أن هذا حدث في منتصف ليلة حيث كان الرعاة يحرسون أغنامهم.

ثمّ إنهم جميعا كانوا الأبناء الأوائل لأمهاتهم، وقد تلقّوا أسماءهم من السماء، فأوسر كاف نطقت باسمه الالهة إيزيس، ويسوع نطق باسمه ملاك الربّ. هناك أيضا ممارسة طقس الختان على كل من أوسر كاف ويسوع، حيث إن هذا الطقس مورِس على كل ذكور مصر القديمة والشرق الأوسط، منذ حوالي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد [مناظر من النقوش الجدارية البارزة في مصطبة عنخ ما حور بسقّارة/ الأسرة السادسة/ القرن ٢٣ ق م]. هناك أيضا النصوص التي تثبت أن هؤلاء الأطفال المقدّسين، كانوا يولدون دون أن تلطّخ أجسامهم الصغيرة، أي بقع من دماء أو إفرازات أجساد أمهاتهم، بل يهبطون إلى الأرض بأجسام لامعة مضيئة، لا تدنّسها أيّة قذارات بشرية.

هناك كذلك من النصوص المقدّسة، ما يشير إلى أن هؤلاء الأطفال المقدّسين، كانوا يولدون مكتملي النمو، كما لو كانوا رجالا ولكن صغارٌ في الحجم. هذه كانت حالة حورس. أمّا بوذا فقد تفوّق على حورس إذ أشاعت النصوص اللاحقة إلى أن بوذا، وهو جنين في عمر ستّة أشهر، كان مكتمل التكوين حتى أنه كان، داخل رحم أمه، قادرا على أن يجلس القرفصاء متقاطع الساقين، في الوضع المعروف عنه لاحقا [كتاب ماهافاستو Mahavastu/ عن مولد جوتاما Gotama بوذا/ للمؤلف جونز Jones].

ثم إن كتابات الأناجيل الممنوعة أي الأبوكريفا * تذكر أن يسوع عند مولده كانت ملامح

وجهه تشبه ملامح وجه الرجل الناضج. من الغريب كذلك ملاحظة أنه في فنون التصوير في عصر نهضة القرن الخامس عشر، وحتى القرن الثامن عشر، كان الرسّامون المتخصّصون في رسم شخصية المسيح على جداريات الكنائس، أو في اللوحات القماشية، يصوّرونه طفلا بملامح وجه رجل ناضج.

ثمّ هناك الكثير من المعجزات والخوارق التي تصاحب مجيء البطل الأسطوري إلى الأرض، فعند مولد أوزوريس، وهو أهم إله مصري خلال الألف عام السابقة على مولد المسيح، جاء صوت من السماء قائلا (هذا هو سيّد كل المخلوقات التي ظهرت على الأرض). هناك نسخة أخرى من أسطورة مولد أوزوريس تقول (إن واحدة من حاملات جرار الماء، في ذهابها العادي إلى النيل، في لحظة مولد الطفل أوزوريس، سمعت في داخلها صوتا دعاها إلى أن تصيح قائلة: ان ملك الملوك صانع الخيرات قد جاء إلى الأرض).

أمّا عند مولد بوذا، فقد حدث خلال رحلته من السماء إلى الأرض، أي من السماء حيث كان كائنا قبل مولده، إلى الأرض التي سيولد فيها من سيّدة بشرية، حدث خلال هذه الرحلة، أن خرجت من جسمه النوراني، كميّات كبيرة من الضوء كافية لاضاءة العالم كله، وانتشر هذا الضوء بسرعة عجيبة في أركان الأرض الأربعة، وقد صاحب تلك الظاهرة الضوئية، ظاهرة طبيعية أخرى، وهي سلسلة من الهزّات الأرضية.

أمّا عند مولد الطفل يسوع، فقد حدثت ظاهرة فلكية غريبة، لاحظها علماء الفلك الفرس، وهم المشهور عنهم البراعة في علوم الفلك ومسارات النجوم، ألا وهي ظاهرة ظهور نجم جديد في السماء، لم يكن موجودا من قبل، وهو دليلهم على مولد ملك الملوك. وهكذا حدث أن ترك ثلاثة من العلماء المجوس أرضهم وأسرهم وبلادهم، ليسعوا في الأرض متتبعين هذا النجم، لمسافة ألف كيلومتر على الأقل بين فارس وفلسطين، عبورا لكل مناطق شمال العراق وشمال سوريا الحالية، دون أن تقول لنا هذه القصة إن كان هذا النجم يظهر فقط خلال الليل، أم أنه كان يظهر كذلك خلال النهار؟ أي أن السؤال موضوعا بطريقة أخرى هو (هل كان المجوس يسيرون فقط ليلا ويرتاحون نهارا؟) لم تهتم القصة بهذه التفاصيل.

الأغرب في هذه القصة هو أن هذا النجم الجوّال، يتوقّف عند مدينة بيت لحم، بالضبط بالضبط فوق المكان الذي سيعثر فيه هؤلاء المجوس – ويا للغرابة – على الطفل المقدّس ملك الملوك. لم يسأل أحد نفسه أبدا (كيف يتوقّف نجم فوق مغارة؟)، نجم مرتفع في السماء، يهبط

حتى مستوى الأرض ليشير إلى المجوس الثلاثة التائهين في الفيافي، إلى موقع الحدث الجلل. ثم تأتي نسخة أخرى في إنجيل آخر لتذكر أن الضوء المنبعث من السيّد المسيح طفلا، هو الذي قاد رعاة الغنم في المنطقة، الساهرين ليلا لحراسة قطعانهم، إلى الطفل المقدّس. وقد صاحبت هذه الظواهر أصوات تهليل وغناء ملائكية قادمة من جهة السماء. هلليلويا.

(٤)

قلق السلطات الدنيوية

من الطبيعي أنه عند حدوث كل تلك الظواهر الخارقة للعادة، أن ترتعش أطراف الملوك الأرضيين خوفا وهلعا، بسبب مولد الملوك السمائيين الذين من المقدّر لهم أن ينتقموا من الملوك الأرضيين، لصالح الفقراء والمظلومين من البشر. هنا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نعود إلى الأساطير المصرية القديمة. هناك أسطورتان مصريتان قديمتان، على صلة وثيقة بكل المعطيات الأسطورية، التي تجد لنفسها بسهولة مكانا، في كل النسخ المتاحة حاليا، من أسطورة مولد يسوع المسيح. أولا هناك أسطورة مولد الطفل حورس، الذي تطارده في طفولته ومراهقته، وحتى سن شبابه الأول، الكراهية العميقة التي كان عمه سيتوس – قاتل والده – يكنّها له.

كانت الأم إيزيس تحاول قدر استطاعتها، إخفاء الطفل المقدّس حورس، وسط أحراش وأدغال نباتات البردي في مستنقعات دلتا النيل. في بعض الأحيان كان بعض فقراء الصيّادين يساعدونها في إخفاء الطفل. هم أولئك الفقراء الذين يتوجّه اليهم، إله الحكمة والكتابة – كاتب الالهة – في مصر القديمة، المدعو جيحوتي، بكلامه قائلا (أنتم يا من تضربون بأيديكم، وتدافعون بأذرعكم العارية، عن هذا الطفل العظيم الذي ظهر بينكم، افهموا كيف أنه لم يأتِ إلى هذه الأرض إلا من أجلكم، ولذلك عليكم أن تسهروا على حمايته، وأن تكتشفوا الطرق التي يتبّعها الشرير سيتوس، في محاولاته إيذاء هذا الطفل المقدّس حورس، حتى يمنعه من الوصول إلى كرسي عرش الأرضين/ طا وي * ، واعلموا أن حورس المقدّس هو أثناء النهار في حماية رع إله الشمس، وأثناء الليل في حماية أبيه أوزوريس إله الأبدية والعوالم السفلية.

هذه الأسطورة التي تعبّر عن الثقافة الشعبية في مصر القديمة، الثقافة المنتشرة بين طبقات الفقراء من العمّال وفلاّحي الأرض، الثقافة التي تعبّر عن مخاوفهم الحقيقية والمُتَوَهَّمة، هذه

الأسطورة ستؤثّر تأثيرا قويا على نصوص مولد وطفولة يسوع المسيح، الموجودة داخل نصّ إنجيل القدّيس لوقا، فمريم تضع الطفل ثم تقمّطه في قماش مهمل وترضعه من ثديها، ثم تخفيه في مِذْوَد للماشية، كما فعلت إيزيس مع الطفل حورس الذي ألقمته ثديها ثم أخفته عن عيون المتربّصين به في دغل من عيدان البردي في أحراش الدلتا. ورعاة الأغنام الذي جاؤوا من النواحي المحيطة للاحتفال بمولد الطفل المقدّس يسوع، هم أنفسهم صيّادو الأسماك في مستنقعات دلتا النيل الذين أحاطوا بإيزيس لحمايتها.

ثم إن ملاك الربّ جبريل (جبرائيل) حامل رسائل الرب إلى الأنبياء، منذ زمن أنبياء العهد القديم ابرهيم واسحق ويعقوب ويوسف، هو نفسه الملاك جبريل الذي - حسب إنجيل لوقا - قد أبلغ مريم بالخبر المفرح، بأن الله اختارها لتلد الطفل المقدّس يسوع، وهو نفس الدور الذي لعبه الإله جحوتي إله الكتابة ومراسل الآلهة، الذي أرسله رعّ كبير الآلهة، إلى إيزيس لابلاغها بنبأ ميلاد الطفل المقدّس حورس. ثم إن ضياء مجد الطفل المقدّس غمر جميع المحيطين به بمجرّد مولده.

كان رعاة أغنام إنجيل لوقا يشعرون بخوف عظيم، لذلك وجد الملاك جبريل نفسه مضطرا إلى أن يتحدّث اليهم قائلا: (كونوا بلا خوف وذلك حيث إنني أعلن عليكم نبأً عظيماً، النبأ المفرح الذي تنتظرونه منذ زمن طويل، أنتم ومعكم كل شعوب الأرض، حيث إنه قد وُلِدَ لكم اليوم المخلّص) [انجيل لوقا الاصحاح الثاني الأعداد من ٨ إلى ٢٠]. بعد ذلك ذهب الرعاة إلى حيث كان الطفل المقدّس، وعادوا من هناك وهم يمجدّون ويشكرون الرب الإله على عظيم أفعاله معهم. هذا النص بمعانيه ومفرداته، يطابق تماما النص المصري القديم، حيث يذهب صائدو الأسماك لمشاهدة الطفل المقدّس، ثم يعودون وهم يمجدون ويشكرون الربّ الإله على عظيم أفعاله معهم، ويصفّقون ويربّتون بعضهم على أذرع بعض، فرحين بظهور هذا المخلّص العظيم في زمانهم.

ثم يأتي بعد ذلك النص المصري القديم، الخاص بمولد الطفل المقدّس أوسركاف مخلّص البشرية، وهو النص المعروف باسم (خوفو والسحرة)، ليذكر لنا أن الملك خوفو، الذي كان في ذلك الوقت ملكا على عرش مصر، عندما أنصت إلى نبوءة الساحر، التي تذكر له أن مؤسس الأسرة التالية على أسرته لن يكون من بين أفراد ذرّيته، بدأ يرتعش وترتعد فرائصه خوفا، ثم قرّر أن ينهي مخاوفه تلك، بأن يبحث عن هذا الطفل المقدّس المزعوم

ويقضي عليه، واضعا بذلك نهاية مبكّرة للنبوءة المزعومة. إلا أن الساحر يبلغ الملك أن هذا الطفل لن يولد إلا بعد مرور بضعة عشرات من السنوات، وهو ما تمكن به من تهدئة حالة الهياج التي كانت قد أصابت مليك البلاد.

كل هذه التفاصيل الخاصة بقصتي المولدين المقدّسين لأوسر كاف وحورس، تظهر من جديد في إنجيل القدّيس متى، وهو الإنجيل الذي يعتبر من حيث ترتيبه الزمني، آخر الأناجيل الأربعة الموجودة في كتاب العهد الجديد. لكن متّى نجح في دمج التفاصيل الخاصة بهاتين الأسطورتين، ليصنع منهما بذكاء وفصاحة أسطورة واحدة.

فيسوع في إنجيل متّى ليس واحدا من سلالة فقراء البشر، بل هو من سلالة الملوك شاول وسليمان وداوود، الذين حكموا شعب إسرائيل على امتداد ستين جيلا منذ سيّدنا آدم، عبر سلالة جمعت كذلك بين هؤلاء الملوك الثلاثة، وعدد كبير آخر من أنبياء الشعب اليهودي، مثل ابرهيم واسحق ويعقوب ويوسف وموسى ودانيال وايليا وايليشع. هذا الطفل المقدّس يسوع سليل الأنبياء والملوك، مثلما حدث مع حورس، تطارده قوى الشر.

كانت إيزيس قد أخفت حورس في مستنقعات دلتا النيل، أما مريم فلاخفاء الطفل يسوع اضطرت لمغادرة فلسطين في الخفاء والذهاب بالطفل إلى دلتا النيل. الفرق هنا بين أسطورة أوسر كاف وأسطورة الطفل يسوع، هو أنه في حين أنه في حالة أوسر كاف انتهت القصّة المصرية دون سفك دمّ، عندما علم الملك خوفو أن أوسر كاف لن يولد إلا بعد مضي بضعة عشرات من السنين، ففي حالة الطفل يسوع، انتهت القصّة العبرية بسفك دماء آلاف الأطفال، فعندما علم الملك هيرودس بالقصة، أشتد انزعاجه بسبب سؤال المجوس الذين أتوا من المشرق (أين هو المولود ملك اليهود)، لأنهم رأوا نجمه.

وكان هذا هو الدافع لهم للقيام برحلة طويلة كهذه، إذ كانوا متحمسين للسجود للطفل كإله، توهم هيرودس أن مملكته ستتعرض للخطر، لذلك سأل علماء الناموس في الأمة اليهودية أين توقعوا أن يولد المسيح؟ وعندما علم أن نبوة (ميخا) أعلنت بأن بيت لحم يجب أن تكون محل ميلاده، أصدر مرسومًا ملكيا، بقتل جميع أطفال بيت لحم وما حولها الذكور من أبن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس، ظنًا منه بأن يسوع سوف يشترك مع سائر الأطفال الذين في سنّه في نفس المصير.

كذلك فإن هذه القصّة تتفّق تماما مع الرغبة الدائمة للشعب العبري، شعب الله المختار،

في اعتبار أنفسهم عبر تاريخهم الطويل، ضحايا دائمين للمذابح الدموية، التي يرتكبها الآخرون في حقّهم. وقد كان السبب في أن ضحايا هذه المجزرة من أطفال فلسطين كانوا بالآلاف، هو أن علماء التنجيم من المجوس، رغم اتفاقهم مع الملك هيرودس على ابلاغه بمكان وجود الطفل المقدّس ملك اليهود، إلا أنهم يخذلونه في اللحظة الأخيرة، ويقرّرون العودة إلى بلادهم عن طريق آخر، غير ذلك الطريق الذي اتخذونه أثناء مجيئهم من بلادهم، بحيث يبتعدون قدر الامكان عن المرور إلى جوار قصر الملك هيرودس. وهو ما ترك الملك هيرودس لمخاوفه، التي لم يتمكن من التخلّص منها إلا باصدار قراره، بقتل كل الأطفال الذكور دون الثانية من العمر، المولودين في المناطق المحيطة بمدينة بيت لحم.

(٥)

عظمة البطل الشعبي

تأتي بعد ذلك نوعيّة أخرى من الأساطير يكون الغرض منها هو التأكيد على عظمة البطل الشعبي المخلّص، والتأسيس لمصداقية مهمّته. يتمّ أولا إثبات هذه المصداقية بواسطة علامات جسدية يحملها المخلّص في ملامحه الجسدية منذ لحظة مولده. فبوذا مثلا يحمل فوق مواضع مختلفة من جسده، اثنتين وثلاثين علامة من علامات النبوّة، على ذراعيه وساقيه، وفوق ظهره وبطنه، وفي ملامح وجهه. ثم إن البطل الأسطوري يتحدّث في مهده كما لو كان رجلا حكيما ناضجا. بوذا بعد مولده بلحظة قال (أنا في هذا العالم سأكون أكثر البشر امتيازا وتفوّقا، ولن يكون هناك في هذا العالم من يمكنه ذات يوم أن يفوقني في امتيازي وتفوّقي وذكائي).

ثمّ تأتي أسطورة الطفل يسوع الذي شاع عنه منذ القرون الأولى للميلاد، فقط بين المسيحيين من عرب الجزيرة العربية وليس في أي مكان آخر، ووفقا للنص القرآني شاع أنه تحدّث في مهده ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. حيث إن هذا الموضوع لم يُذكر في أي إنجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى الكنيسة، وهي أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا، التي كان قد طالها الكثير من التحريف والتزوير.

مثل هذه النوعية من النصوص كانت معروفة ومنتشرة في مصر القديمة، فمن القرن

الخامس عشر قبل الميلاد، وردت نصوص عن تحوتمس الثالث قبل تتويجه، حين كان واحدا من طبقة أنبياء أحد المعابد المصرية، ظهر خلال أحد المواكب الطقسية أمام هيكل الإله آمون رع، منحنيا حتى لامست جبهته أرضية المعبد، مم جعل الإله يتحنّن ويتكرّم عليه ويفتح أمامه أبواب السماء، حسب ما جاء في النصّ المصري القديم، ثم يضع هذا الإله الأساس لملك تحوتمس الأرضي على عرش مصر.

من بين المظاهر الأخرى لتفوّق البطل الشعبي المؤسّس للديانة الجديدة، على من عداه من الآلهة، الموقف الذي تتّخذه الأصنام والأوثان منه. فهي إمّا أن تعترف برسالته وتقرّ بعظمته، أو تتضاءل وتتحلّل وتنهار في ضوضاء كبيرة. ففي الهند مثلا يتناقل الناس الأخبار الشفهية، عن انهيار التماثيل الخاصة بالآلهة الأخرى عند مرور بوذا إلى جوارها. أمّا الآلهة أنفسهم التي كانت تلك التماثيل قد أقيمت لهم، فيظهرون في لحمهم ودمهم لينشدوا معا الترانيم التي تمجّد بوذا.

أما فيما يتعلّق بيسوع المسيح فيشاع شفهيا، أنه عند حضوره إلى مصر مع مريم ويوسف، وأثناء مرورهم إلى جوار معابد مصرية قديمة، كانت تماثيل الآلهة تقع متحطّمة إلى أجزاء كثيرة، عند قدمي مريم التي تحمل الطفل المقدّس يسوع بين ذراعيها. وفي بعض الحكايات الشفهية المروية عبر مئات السنين، قالت بعض الآلهة لبعض كهنتها، أثناء مرور الطفل يسوع، إن هناك إله أقوى مِن كل مَن عداه من الآلهة في السبيل إلى المرور إلى جوار المعبد، وإنه هو وحده الإله الحقيقي، وإنه هو وحده الجدير بأن يُعْبَد.

لكن شهادة الأصنام وحدها لصالح البطل الشعبي، لم تكن أبدا كافية، بل حتى يقتنع شعب المؤمنين الجدد برسالة البطل الشعبي، ينبغي قبل كل شيء أن تكون الرسالة الجديدة لهذا البطل، امتدادا ووريثا شرعيا للرسالات القديمة التي كان هذا الشعب يؤمن بها، قبل أن تأتي الرسالة الجديدة من السماء. هذا الاعتراف بالرسالة الجديدة والتقدير لها يتأتيان بطريقتين مختلفتين، الأولى هي شهادات المعاصرين للبطل الشعبي، والثانية هي نبوءات قديمة تفوّه بها ذات يوم أنبياء عظماء.

ففي الأسطورة المصرية القديمة، كانت النبوءة المتعلّقة بأهمية رسالة الطفل المقدّس حورس، قد أتت على لسان جحوتي ربّ الحكمة، عندما أعلن أمام صيّادي الأسماك الفقراء قائلا (ها هو ذا عظيمٌ قد وُلِدَ اليوم بينكم فراقبوه وحافظوا عليه)، ثم بمجرّد نطقه بهذه النبوءة، اختفى جحوتي من أمام الصيّادين، ليلحق بمركب رع إله الشمس.

أمّا في الهند حيث نشأت الديانة البوذية، فإن المؤمنين البوذيين الجدد، بحثوا عن النبوءة لدى (آسيتا)، وهو رجل ناسك متعبّد عجوز، يسكن سفوح جبال الهمالايا، الذي قال لهم إنه عند مولد الطفل بوذا، كان آسيتا قد لاحظ العديد من الظواهر غير الطبيعية والخارقة للعادة، وذلك بعد أن كان العجوز في رؤيا جاءته في منامه، قد زار الطفل المقدّس ولمس جسده المقدّس بيديه، حيث قام بفحص الجسد بدقّة وانتباه، ليعثر بعد ذلك في هذا الجسد المقدّس، على الاثنتين وثلاثين علامة على القداسة، بعدها ترك الناسك معتزله في الجبل، واتخذ طريق النزول إلى المدينة الواقعة أسفل الجبل، ليطلب مقابلة ملك البلاد المدعو (سودهو دانا)، وهو زوج والدة بوذا، لا تنسوا أن بوذا كان مولودا دون زرعٍ بشر. عند المقابلة نطق آسيتا بهذه الكلمات (أيها الملك سودهو دانا لقد وُلِدَ لك ابنٌ هو طفلٌ مقدّس وسيكون ملكا عظيما).

ثم يحضر الملك ابنه الطفل إلى الناسك ليفحصه من جديد، وليتأكّد مرة أخرى بنفسه من صحّة علامات القداسة الاثنتين وثلاثين، بعدها يسجد الناسك العجوز على ركبتيه أمام قدميّ الطفل المقدّس، ثم يحمله بين ذراعية وهو مستغرق في التأمّل. ثم ينخرط الناسك العجوز في البكاء دلالة على الحزن، وقد انطلقت من صدره تنهّدات عميقة دلالة على الهم والألم، ثم يقول (أنا رجل عجوز وقد تهدّمت صحتى وخارت قواي، لن أعيش من العمر ما يكفي لأرى، لكن هذا الطفل سيصبح بوذا، وسيدير عجلة القانون الالهي الذي لا يعلو فوقه أي قانون آخر، من أجل سعادة الناس وخلاص البشرية، أنا أبكي دموعي لأني لن أحصل على نعمة رؤيته لاحقا وهو بوذا مكتمل النمو، ولأحصل منه عندها على الشفاء من أمراضي وعللي). عاد بعد ذلك الناسك العجوز إلى سفوح الجبال التي يعتزل فيها الحياة الدنيوية.

أمّا الشخص الذي كتب قصّة طفولة يسوع المسيح، حسبما وردت في إنجيل القدّيس لوقا، فهو يوجّه حديثه إلى الشعب اليهودي، وبالتالي فهو يذكّر هذا الشعب اليهودي، بمن هو يعتبر لدى هذا الشعب، مضاهيا لشخصية الإله جحوتي إله الحكمة في الأسطورة المصرية، أو مضاهيا لشخصية الناسك العجوز الحكيم في أسطورة بوذا، وبالتالي هو لا يجد أمامه إلا أن يجعل الطفل المقدّس، والشخص الناسك العجوز الحكيم، يتقابلان في مكان واحد، كما لو أن هذا اللقاء قد تمّ بالصدفة، من أجل أن يتمّ التعرّف على الطفل المقدّس، ويُشار إلى التأكيد على كونه المؤسّس المنتظر للديانة الجديدة. كاتب النصّ اختار أن يتمّ هذا اللقاء في معبد مدينة أورشليم. كانت الحبكة الروائية تحتّم أن تتمّ رحلة ذهاب الطفل المقدّس يسوع المسيح مع والديه إلى معبد مدينة أورشليم.

يقول النصّ في الاصحاح الثاني من إنجيل لوقا بين الآية رقم ٢١ والآية رقم ٣٥ (ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع، كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن، ولما تمت أيام تطهيرها، حسب شريعة موسى، صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب، كما هو مكتوب في ناموس الرب: أن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسا للرب، ولكي يقدموا ذبيحة كما قيل في ناموس الرب: زوج يمام أو فرخي حمام)

إن مؤلف هذا النصّ من إنجيل لوقا، قد ارتكب عددا من الأخطاء. فهو مثلا لا عِلم له بقوانين طقوس التوراة، فإنه يتحدث عن طهارة كلٍ من الوالدين، في حين أن هذا الطقس لا يعني ولا يخصّ إلا الأم الوالدة. ثم إنه عدا ذلك يخلط بين طقسين عبريّين، الأول هو طقس طهارة الأم الذي من المفروض أن يحدث للأم بعد أربعين يوما من الولادة، والثاني هو طقس تكريس الطفل الأول المولود لوالدين يهوديين الذي من المفروض أن يحدث في اليوم الثامن من ولادة الطفل. هذان الطقسان لا يمكن بأي حال من الأحوال الجمع بين ممارستهما في يوم واحد، بل يجب أن يكون هناك فارق زمني بين ممارسة الطقس الأول وممارسة الطقس الثاني.

ثم إن مؤلف هذا النصّ ينسى شيئا أكثر أهميّة من ذلك ، وهو أنه حسب عادة اليهود حتى ذلك الوقت، كان ينبغي التضحية بالطفل الأول للربّ (يهوة)، بتقديمه قربانا إلى الرب كذبيحة أو أضحية، في طقس جماعي يُذْبَح خلاله مئات الأطفال، إلا لو أن والديه قدّما للمذبح أو الهيكل مقابلا ماديا بديلا عن ذبح الطفل، كان يقدّر في ذلك الوقت بمبلغ يساوي خمسة شيكل من الفضّة. لذلك فهو بدلا من أن يتحدّث عن دفع البدل إذا به يتحدّث عن زوج يمام أو فرخيْ حمام، وهي التقدمة الخاصة بكفّارة طقس طهارة الأم، ولا دخل لها بطقس تكريس الطفل أو التضحية به.

قد يحاول بعض المسيحيين المعاصرين، في محاولة للعثور على مخرج من هذه الورطة، تفسير نصّ إنجيل لوقا هذا، على أساس أن الطفل يسوع كان سيتمّ تكريسه كطفل من اللاويين، وهم الذين لم يكونوا يضحّون بأطفالهم البكور، في خلاف مع بقية أسباط اليهود الاثني عشر، وذلك على أساس أن اليزابيت (اليصابات) والدة مريم أو أمّها الروحية، كانت من أحفاد هارون أي من أصول لاويّة. لكن هذه النظرية تتناقض مع الستّين جيلا من أسلاف شجرة عائلة يسوع المسيح، الواردة في بداية إنجيل متى، التي تجعله من بين أحفاد داوود الملك والنبي. إذن لا مناص من أن يكون أحد النصّين مخطئا، سواء نصّ إنجيل متى أو نصّ

إنجيل لوقا. كل هذا التشويش والارتباك هو بسبب أن مؤلّف النص يريد بأي ثمن أن يذهب بالطفل يسوع إلى هيكل سليمان، حتى يتمكن من مقابلة شخص حكيم عجوز، ينتمي إلى الديانة اليهودية. في الواقع فإن النصّ قدّمه لنا تحت اسم (سمعان).

يقول نفس نص الاصحاح الثاني من إنجيل لوقا السابق الاشارة اليه أعلاه (وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان بارا تقيا ينتظر تعزية إسرائيل، والروح القدس كان عليه، وكان قد أوحي إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب، فأتى بالروح إلى الهيكل. وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه، ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال، الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك، الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب، نور إعلان للأمم، ومجدا لشعبك إسرائيل، وكان يوسف وأمه يتعجبان مما قيل فيه)

في النهاية هناك عنصر آخر هام في مسألة مصداقية الرواية الرسوليّة التبشيرية، للنبيّ مؤسّس الديانة الجديدة، هو العنصر الخاص بشهادات قدماء الأنبياء. ففي أسطورة مصر القديمة الخاصة بتأليه وتمجيد وتعظيم حورس، دخلت عناصر جديرة بالفن الروائي الحديث، تقول إن الإله آتوم (ومنها جاءت كلمات مثل التمام والاكتمال) وقد تقدّم به السن، شعر أنه لم يعد قادرا على حكم مصر التي تستدعي القدرة على حكمها أن تكون شابا قويّا، لذلك يقرر أتوم أن يعتزل العالم ويعيش في قصر في احدى المناطق البعيدة النائية، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال الوصول اليها، لوقوعها خلف خط أفق السماء، ليقضي فيه أيّامه الأخيرة، لكن قبل أن يعتزل العالم كان آتوم قد قرر أن يثبّت حورس ملكا على حكم مصر، قائلا له (فلتظهر إلى ناس العالم يا سيّد الالهة، وأنا أضمن لك تبعيّة ووفاء واخلاص، كل أولئك الذين كانوا تابعين أوفياء مخلصين لوالدك المبجّل أوزوريس)

فيما يتعلق ببوذا في الهند، فقد كانت مهمّته التبشيرية قد أُعِدّت من قبل مولده بملايين السنين، بواسطة الروّاد السابقين للديانة البوذية، الذين حملوا كلهم نفس الاسم (بوذا)، ويصل عددهم إلى تسعة أنبياء، وأشاروا كلهم إلى أن بوذا العاشر، سيكون هو سيّد أهل الأرض، آخر الأنبياء، وأن رسالتهم الدينية لن تكتمل، وبعثاتهم المتتالية في المحبّة والتسامح لن تتمّ، إلا بمولده وبعثته إلى العالمين.

أما فيما يتعلق بمؤلّف آخر الأناجيل القانوينة، التي ضمّتها كنيسة روما إلى كتاب العهد

الجديد، الذي لم يتم الاعتراف به في العالم أجمع، إلا بعد اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، فيقول مخاطبا الشعب اليهودي إن مولد الطفل المقدّس يسوع المسيح كان قد سبق الإعلان عنه قبل مئات السنين، في عدد كبير من نبوّات أنبياء شعب إسرائيل في التوراة (أو العهد القديم). هناك كذلك نصٌّ عربي قديم يتوجّه بحديثه إلى شعب فارس على زمن النبي زرادشت، يتنبّأ بمولد طفل مقدّس جديد، بعد بضع مئات من السنين، باسم يسوع المسيح.

السؤال الذي يطرح نفسه هو (هل كانت تلك الهالات من القداسة الأسطورية مفيدة وضرورية لشخصيات الأطفال المقدّسين من مؤسّسي الديانات الجديدة؟). سؤال آخر (هل كانت أساطير عظمة حيوات أولئك الأشخاص الأسطوريين المؤسّسين للديانات الجديدة على نفس المستوى المبهر لأساطير مولدهم المقدّس؟). تبدو أحيانا حيوات أولئك الأشخاص المقدّسين، أقرب شبها بحيوات الحيوانات القادرة على تغيير ألوان بشرتها وِفْقا للألوان المحيطة بها، مع الاحتفاظ بطبيعتها الحيوانية الأصلية دون تغيير، مثلما يحدث في بشرة حيوان الحرباء.

فإذا كانت تفاصيل الحكايات تتغيّر، وِفقا لعقليات الشعوب التي تُقَصّ عليها تلك الأساطير، فإن المحتوى الأصلي يظلّ هو نفسه دون تغيير. المحتوى الذي يتلخّص في المجد الإلهي الذي يحيط بشخص، حامل الرسالة الجديدة، الذي سيخلّص البشرية المحيطة به، من الظلم الأزلي الواقع عليها، ومن الاضطهاد والاذلال والبؤس، الذي عانت منه وعاشت فيه، الجماهير الغفيرة من الطبقات الشعبية الفقيرة. العِبْرة هي أنه لا مكان هنا في هذا العالم الأرضي لأي خلاص يخصّ الأغنياء، فهم قد حصلوا على نصيبهم من السعادة في هذا العالم الفاني، لذلك فإن السعادة الأبدية ستكون فقط من نصيب الفقراء والمعوزين. هذه هي العبرة من كل الأديان والرسالات السماوية، يا فقراء العالم لا تبتئسوا، فنصيبكم ليس على هذه الأرض ، وإنما هو في العالم الآخر.

لكل هذه الأسباب فإن الديانات الجديدة، تنتشر في سنواتها الأولى بين الفقراء والمعوزين الجهلاء بسطاء التفكير السذّج، الذين يقبلون بسهولة تصديق الأساطير، لأنهم يشتاقون منذ قرون إلى العدالة الاجتماعية، وينتظرون بفروغ صبر هبوط المخلّص من السماء. وهنا تبدو المسائل التاريخية المتعلّقة بهذه الأساطير محيّرة وصعبة على الفهم. ففي حين تنتشر الأساطير بين أفراد الشعوب الفقيرة الجاهلة، قد نعتقد أن ملوك ورؤساء هذه

الشعوب سيقاومون الجهل المتفشّي في الشعوب الذي أدّى إلى انتشار الأساطير، لكن في الواقع يحدث العكس، إذ يظل ملوك ورؤساء دول هذه الشعوب على رغبتهم في الإبقاء على جهالة شعوبهم، لأن الشعوب الجاهلة أكثر سهولة في الانقياد من الشعوب المتعلمة.

لكن في نفس الوقت فإن الحقيقة التاريخية هي أن الشعوب الجاهلة هي أيضا أسرع الشعوب في تصديق الأساطير والخرافات. لذلك قد يحدث أحيانا أن يقاوم الملوك والرؤساء الجانب الإنساني في تعاليم الأنبياء الجدد، لكنهم يبقون مع ذلك على الجانب الأسطوري ويشجّعونه. وبالتالي لا تصل أبدا تعاليم الديانة الجديدة إلى تغيير الشعوب التي تظل على جهالتها، مكتفية من الديانة الجديدة بالشكل الأسطوري البرّاق لمعتقدات لا يمكنها أبدا أن تثبت أمام أية مناقشة علمية، بالاضافة إلى ممارستهم لبعض الطقوس الشكلية السطحية، التي يعتقد الجهلاء أنهم يتقرّبون بها إلى أرباب دياناتهم الجديدة.

(٦)

الصفات الشخصية للبطل

تميّزالزعماء الدينيّون وقادة الحركات التحرّرية الكبرى في تاريخ البشر، باكتساب قدر كبير من المعارف العامة، هو ما ساعدهم على أن تتكوّن لديهم روح المعرفة، وهو ما ساعدهم لاحقا على اكتساب القدرة على نقد الأوضاع الاجتماعية، والقدرة على قيادة الحركات التحرّرية، وقيادة الكتل الجماهيرية نحو التحوّلات الجذرية في مجتمعاتهم. من المعروف أن يسوع كان قد تعلّم في طفولته، قراءة وكتابة العبرية واليونانية [انجيل توماس وهو أحد الأناجيل المختفية البائدة]، حيث إن اللغة اليونانية الشعبية المعروفة باسم كوينيه koine، كانت تستعمل في العالم الهيلينستي، وهو عالم الدول التي فتحها الاسكندر الأكبر، وغالبا ستكون تلك هي اللغة التي كان يسوع يتحدّث بها مع مسؤولي الادارة الرومانية في فلسطين/ اسرائيل [انجيل يوحنا الاصحاح ١٢ العدد ٢٠].

أمّا معرفته بالعبرية القديمة، فيستدل عليها بالإحالات العديدة إلى كتابات أنبياء العهد القديم من اليهود أمثال صمويل وداوود وسليمان، التي كان يسوع يستعملها ويعود اليها، عندما كان يلقي دروسه على الجموع المحتشدة حوله [انجيل متى الاصحاح ١٢ العدد من ٣ إلى ٧]. هذا بالاضافة إلى أن لغة الحوار في فلسطين في ذلك الوقت كانت الآرامية، والدليل

على ذلك هو العدد الضخم من المفردات الآرامية، التي استعملها يسوع في تعاليمه، التي سجّلتها النصوص في المخطوطات اليدوية الأولى للأناجيل.

الى جانب هذه اللغات الثلاث، يمكننا بسهولة اقتراح لغة رابعة، كان يسوع قد تعلّمها خلال إقامته الطويلة في مصر، وهي اللغة المصرية القديمة، في آخر شكل كتابي لها، وهو الشكل المعروف باسم الكتابة الديموطيقية. وهو شيء متوقّع جدا، إذا عرفنا أن كهنة مصر القديمة، الذين كانوا لا يزالون يمارسون مهنتهم في المعابد المصرية، على الأقل حتى نهايات القرن الثالث الميلادي، في بعض المعابد، مثل معبد الالهة إيزيس في جزيرة فيلة، كانوا يتعلّمون اللغات الأجنبية، حتى يتمكنّوا من التفاهم مع الحجّاج، الذين كانوا يأتون إلى مصر، من أطراف العالم الهيلينستي المعروف في ذلك الوقت، لزيارة معابد مصر القديمة، والصلاة أمام آلهتها.

كانت من بين المعارف التي اكتسبها يسوع خلال إقامته الطويلة في مصر، التي قد تصل إلى عشرين عاما أو أكثر، المعارف المتعلّقة بالقدرة على شفاء بعض الأمراض المزمنة، التي لم يكن العالم القديم قد عرف لها أي علاج بعد، باستثناء محاولات الكهنة المصريين، خاصة في مجال الأمراض النفسية والعقلية. الأمثلة على مثل تلك العلاجات المعجزية، متكرّرة الوقوع في الأناجيل الأربعة، بحيث إنه يمكننا هنا أن نذكر بعضها فقط لا غير [متى اصحاح ٩ عدد ٣٣، اصحاح ١٢ عدد ٢٣، اصحاح ١٥ عدد ٣١]. هذا بالاضافة إلى معرفة حِرفيّة يدويّة تتعلّق بقدرته على صناعة قطع من الأثاث الخشبي.

بالاضافة إلى هذا لدينا في آيات الأناجيل دلالات قاطعة على معارف أخرى في مجالات متنوّعة، منها مثلا زراعة نباتات الحقول [انجيل مرقص اصحاح ٤ الأعداد من ٣ إلى ٩]، ومنها صيد الأسماك في البحر المفتوح أو في البحيرات المغلقة [انجيل متى اصحاح ١٣ الأعداد من ٣ إلى ٨]، ومنها إدارة الأعمال التجارية والمفاوضات بشأن الأسعار [انجيل متى اصحاح ١٣ العدد ٤٥ و٤٦]. كل هذه المعارف كانت ضرورية، لتسهيل تواصله مع المجموعات البشرية المختلفة، القادمة من طبقات وفئات ومهن مختلفة، بضرب الأمثلة التعليمية التي تتناسب ذهنيا مع كل فئة منهم.

كانت أفكار يسوع المسيح عن العدالة الاجتماعية، هي من أهم ما تطرحه الأناجيل، خاصة لو كان هذا الطرح من منظور أُخْرَوي، أي يتعلّق بالعالم الآخر بما فيه من قيامة من الأموات وحساب أخير وثواب وعقاب. هذه العدالة الاجتماعية التي تبغي التحقّق، سواء في

العالم الدنيوي أو في العالم الأخروي، هي من أهم انجازات الديانة المسيحية.

كان يسوع المسيح هادئ الطبع جدا، إذ لم تذكر الأناجيل أنه فقد أعصابه خلال ثلاث سنوات، أو تصرّف بقدر من الخشونة، إلا مرّات قليلة جدا، منها عندما وجد الباعة الجائلين والصيارفة داخل هيكل سليمان في أورشليم. كان يسوع كذلك كثير الميل إلى الوحدة، والى الرغبة في البقاء بمفرده في الأماكن المنعزلة عن العالم، بالقرب من سفوح الجبال، أو على أطراف المناطق الصحراوية، حيث يمكنه أن يصلّي ويتأمل، إلى أن يبحث عنه تلاميذه ويأتون لافتقاده، أو إلى أن تظهر الجموع التي كانت تسير خلفه بشكل دائم، باحثة عن سكينة الروح في كلماته المعزّية.

يقول إنجيل متى في الاصحاح ١٧ العدد الأول (أخذ يسوع تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا، وصعد بهم على انفراد إلى جبلٍ عالٍ). ويقول إنجيل مرقص الاصحاح الأول العدد ٣٥ (نهض يسوع باكرا قبل الفجر، وذَهبَ إلى مكان مقفر، وأخذ هناك يصلّي). ويقول إنجيل لوقا الاصحاح الخامس العدد ١٦ (أمّا هو، فكان ينسحب إلى الأماكن المقفرة، حيث يأخذ في الصلاة).

كان أكثر من يحنّ عليهم يسوع هم الأطفال والأرامل. كلما رأى يسوع أطفالا، وضع يده على رؤوسهم لمباركتهم، ثم تحدّث اليهم بلطف، ووبّخ الأهل الذين كانوا يحاولون منع أطفالهم من الاقتراب منه. يسوع قال (دعوا الأطفال يأتون اليّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات). ثم كثيرا ما أدان يسوع الكتبة ومحصّلي العشور، الذين كانوا يأكلون أموال الأرامل والأيتام. وقد ذكر لتلاميذه ذات مرة أن الله يحب تلك الأرملة الفقيرة، التي وضعت في طبق العطايا والتقدمات، ما يعادل قرشا واحدا، أكثر من أولئك الذين يضعون ما يعادل جنيهات عديدة، لأن تلك الأرملة وضعت في الطبق كلّ ما تملك وقتها، كل ما كان لها في جيب ثيابها.

يحثّ يسوع في كل عظاته على محبّة الأقارب والجيران، قال (عليك أن تحبّ قريبك مثل نفسك). قال (عليك أن تغفر لأعدائك خطاياهم في حقّك). كان يسوع متسامحا مع كل من أخطأوا في حقّه. كان نموذجا للتواضع والانسحاق وسكينة النفس. في يوم العشاء الأخير، جاء بسطل ماء، وجعل يسكب منه الماء على أقدام تلاميذه، ليغسلها من تراب الطريق، ثم ليجفّفها بثيابه. كان ينتقد حب رجال الكهنوت اليهودي للتظاهر بالعظمة، وتفضيلهم للفخامة في المظهر وللثياب الغالية الثمن.

الفصل الثاني
الأسرة

(١)

أسرة فقيرة

ان واقع حياة يسوع المسيح في الحقيقة هو في غاية المرارة، فلقد ولد وعاش ومات فقيرا جدا ومعوزا إلى أقصى حدّ. لكن سلسلة الإضافات التجميلية التي أُدْخِلت على مجموعة النصوص الأولى الأقدم من غيرها، تكفّلت بتزييف هذا الواقع المرير. خاصة التعديلات التي أدخلتها طبقات أقل فقرا من أولئك الذين كانوا في الحقيقة يحيطون بيسوع إبّان حياته، طبقات أقرب إلى البورجوازية اعتقدت أنها لو مكنت يسوع من أن يكون له البيت والثوب والحذاء، فإن كل ذلك سيجعلهم أقرب اليه من غيرهم من أفراد الطبقات الفقيرة، الذين كانوا في القرون الأولى من المسيحية، أكثر تحبيذا لصورة يسوع المسيح، الذي يقضي ليلته في العراء لأنه لم يكن له أين يضع رأسه، وكان يمشي حافيا لأنه لم يكن له حذاء، وكان يغسل ثوبه في بحيرة طبرية، وهو بعيد عن الأعين، لأنه لم يكن له إلا هذا الثوب الذي يغسله.

وقد أظهرت الدراسات البوذية المتعلّقة بسيرة حياة النبيّ بوذا نفس الظواهر والعلامات. عاش بوذا في بؤس وفاقة، وكان يعتمد في مأكله ومشربه على الاحسان الذي يجود به عليه سادة قومه، وقد أحاط نفسه في بداية بعثته بالفقراء والشحّاذين من قومه، ثم في نهاية حياته مات وحيدا في قرية صغيرة ضائعة تائهة وسط غابة شاسعة الامتداد، مترامية الأطراف، لا يدري به أحدٌ.

ثمّ حدث بعد وفاته بخمسة قرون، في بداية الاهتمام بتسجيل الوثائق الأولى الخاصة بكلماته وأفعاله وتفاصيل حياته، أن ظهرت تغيّرات في المجتمع الهندي، بحيث أصبح المؤلّفون يعطون الأولوية في الأهمية لنبالة أصول الأشخاص المروي عنهم، فانتقل اهتمام الموثّقين لحياة بوذا من تسجيل تفاصيل الحقائق المرّة، إلى الادّعاء بنبالة أصوله وعراقة أسرته. بالإضافة إلى عدم الاكتفاء بكونه ناسكا زاهدا في الدنيا معتزلا العالم، بل تمّت إضافة تفاصيل لا تمتّ إلى الحقيقة بأيّة صلة، هي تلك التفاصيل الخاصة بكونه من المحاربين الشجعان، الذين لا يرهبون الموت في أثناء القتال دفاعا عن مبادئهم.

لا شكّ في أنه كانت من بين أهداف أولئك الذين سجّلوا سيرة بوذا بهذه الطريقة، أن يجذبوا إلى مذهبهم ودينهم الجديد، عددا لا بأس به من أفراد العائلات ذات الأصول النبيلة، لإمكان الاستفادة منهم ماديا، ولأنهم في الأغلب الأعمّ من يمسكون بالسلطات الدنيوية في أيديهم. بالإضافة كذلك إلى جذب اهتمام عدد من الرجال الأشدّاء من طبقة المحاربين المحترفين الأقوياء، للدفاع عنهم عند الحاجة، في حالة الاعتداء عليهم جسديا. وهذا هو أحد الأمثلة الواضحة في تاريخ البشرية، للتحريف في الدين الجديد الذي يقوم بالتبشير به عدد من رجال الدين، حتى يصبح هذا الدين الجديد قدر الإمكان في مصلحة القائمين على التبشير به [كتاب لاليتا فيسترا Lalita Vistra/ طبعة فوكو Foucaux].

ثم إن النصوص البوذية التي جاءت في قرون تالية، جاءت بما يمكن اعتباره مزيّفا تماما ومصطنعا إلى حدٍ بعيد، بالإضافة إلى كونه عنصريا ومتعاليا بشكل بغيض، بحيث إننا لن نكون في حاجة إلى التعليق عليه، بسبب وضوح أهدافه العنصرية. لنقل باختصار إن هذه النصوص هي نفس العنصرية الدينية، التي دائما ما تعاود الظهور في كل الديانات الجديدة، هذه النصوص البوذية تقول باختصار، نحن (شعب الله المختار) كما هو الحال عند اليهود، وتقول (نحن ملح الأرض) كما هو الحال عند المسيحيين، وتقول (نحن الأطهار وغيرنا أنجاس) كما هو الحال عند قدماء المصريين، يكفي أن نعرف أن كلمة (نجس) في اللغة المصرية القديمة، تعني (أجنبي)، كلمة (نجس) مرادفة لكلمة (أجنبي)، والأجنبي هو من لا يتبع الملّة، أي أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن من لم يكن مصريا فهو (نجس).

ها هو ذا نصّ من تلك النصوص البوذية. (إن الشخص الذي يجد نفسه في الطريق إلى أن يصبح بوذيا، أي من سيكون بوذيّا في مستقبل أيّامه، أي من سيكون قادرا على الحصول على

المعرفة التامة بأمور دنياه وآخرته، لن يكون عند كلّي القدرة معتبرا من الشعوب الهمجية البربرية، فالبوذي لا يمكن أن يولد أبدا لدى الكفّار الأشرار الهمجيّين، لدى تلك الشعوب الجاهلة الغبيّة التي تعيش في ظلام الانكار، تلك الشعوب التي لن يكون لها أبدا أي نصيب في جنّات القدير، الشعوب التي تعيش حياتها على الأرض مثل الدواب من الخرفان والنعاج، الشعوب غير القادرة على تمييز القيمة الحقيقية الكامنة في تعاليم بوذا، غير القادرة على التمييز بين الخير والشر).

ثم ها هو ذا نصٌ آخر، يتحدّث هو أيضا عن التمييز بين الناس على أساس المهنة التي يرتزقون منها، أي بوضوح عن الأصول النبيلة مقابل الأصول الوضيعة (إن الشخص الذي سيكون بوذيا في مستقبل أيّامه، لا يمكن له أن يولد في عائلة دنيئة حقيرة، فلا يمكن مثلا أن يكون والده عازفا متجوّلا على آلة موسيقية، أو نجّارا يصنع العربات التي تجرّها الدواب، أو خادما في منازل الأثرياء. إن بوذي المستقبل لا يمكنه أن يولد إلا في أسرة براهما، أي أحد رجال الدين النبلاء، أو في أسرة أحد المحاربين النبلاء). والاختيار بين هذين النوعين المختلفين من الأصول العائلية، يتوقّف على ظروف العصر الذي سيولد فيه بوذي المستقبل، فلو أنه عصر ازدهار ديني، سيولد بوذي المستقبل في أسرة براهما، أمّا لو كان العصرُ عصرَ قتال وحروب، فسيولد بوذي المستقبل في أسرة أحد المقاتلين الشجعان.

في بدايته كان تاريخ الهند لا يزخر إلا بشخصيات من نوعية رجال الدين والشجعان المقاتلين، أمّا فيما بعد وبمرور القرون، يظهر الملوك في تاريخ الهند، وتفوق أهميتهم أهمية رجال الدين والشجعان المقاتلين، وبالتالي تظهر في النسخ الجديدة من الكتابات البوذية الخاصة بالسيرة البوذية، حقائق جديدة تتعلق بمولد بوذا في أسرة ملكية، ابنا لأحد الملوك، قضى طفولته وبداية شبابه يعيش في قصور أبيه الملكية الفخمة مرتديا أثمن الثياب.

هذا هو نفس الكلام الذي يمكن تطبيقه على مولد المسيح. ففي الزمن الذي ولد فيه المسيح، كان الشعب اليهودي يتوقّع مولده ملكا، أو ابنا لأحد الملوك، على أن يكون بالضرورة من نسل الملكين سليمان وداوود، وأن يكون ممسكا في يده عند مولده بسيف العدالة، ليخضع شعوب الأرض لسطوته وسيطرته، ولتصبح كل شعوب الأرض في عبودية الرب، وفي خدمة الشعب اليهودي، شعب الله المختار. هذه هي العدالة في نظر الشعب اليهودي. غير أنّها في الحقيقة نظرة عنصرية تماما، فلا يمكن للعنصرية العرقية أن تصل إلى

مدى أكثر بشاعة من ذلك.

والنبوءة الموجودة أعلاه، هو ما حدث بالضبط في القرن الثاني للميلاد، عندما تمّ، على يد مجموعة من المؤلفين اليهود المتحوّلين إلى المسيحية، تأليف شجرة أنساب عائلية ليسوع المسيح، تربطه ربطا مباشرا بعدد من أنبياء اليهود، ومن بينهم الملكين سليمان وداوود، ثمّ تمّ وضع هذه الشجرة في الاصحاح الأول من إنجيل متّى. هذه النبوءة هي التي تمكنّ بها لاحقا، نفس المؤلفين أو سواهم، من إضافة التفاصيل الخاصة بزيارة ملوك مجوس للطفل المقدّس، وتقديمهم هدايا ملكية اليه منها الذهب [انجيل متى/ الاصحاح الثاني].

(٢)

الأُمّ مريم

في الحقيقة لم يكن يسوع ابنا لملك، ولا مولودا في سلالة ملوك. في الحقيقة كان مولد الطفل يسوع في أسرة فقيرة جدا، تنتمي إلى طبقة العمّال الذين يسعون إلى رزقهم اليومي صباح كل يوم. كان مولد الطفل يسوع قد حدث في مغارة حجرية، من الجائز أنها كانت تستعمل كحظيرة للبهائم، وقد وضع في برودة الشتاء داخل مِذود من القش كان يستعمل في وضع الطعام للبهائم [انجيل لوقا الاصحاح الثاني العدد٧]. وفي الغالب فإن مهنة مريم التي كانت تأكل منها هي وابنها قوتهما اليومي، إذ لم يكن لهما من يعولهما، هي قصّ وتصفيف شعر النساء وتزيينهنّ وتحويل شعرهنّ إلى جدائل [كتاب تلمود بابيلون Talmud of Babylon]، على الطريقة المصرية التي يمكننا ان نراها في كل مكان في مصر القديمة، شبيهة بما يمكننا حتى الآن أن نراه في النقش الجداري البارز على جدران مقبرة راموزا من الدولة الحديثة الأسرة الثامنة عشرة. أما يسوع فمن المعروف أنه في عشريناته كان قد عمل لفترة من الوقت في مهنة النجارة.

ليس في مهنة تصفيف الشعر أي شيء يمكنه أن يفاجئنا، بالنسبة لامرأة تعيش في ذلك العصر في منطقة الجليل. وفي حالات كثيرة كان يمكن للمرأة التي تطلب أن تتزيّن، أن تستعمل شعرا مستعارا تضعه في المناسبات على رأسها، وتطلب من مصفّفة الشعر أن تصفّف هذا الشعر المستعار لها. وقد تمتّعت مصفّفات الشعر المصريات في ذلك العصر

اليوناني الروماني، في تلك المنطقة من الشرق الأوسط، بسمعة طيّبة تتعلّق بإتقانهنّ لمهنتهنّ [النقش البارز على تابوت حجري في المتحف المصري بالقاهرة باسم الأميرة كاويت من الأسرة الحادية عشرة حوالي ٢١٠٠ ق م]. كانت مصر قد فقدت ثراءها القديم، وتحوّلت إلى مستعمرة للقوّتين العظميين في ذلك الوقت، مم دعا أبناء وبنات شعبها إلى الخروج من مصر بحثا عن الرزق.

في نسخة الأديب والشاعر اليوناني فلوتارخوص/ بلوتارك من أسطورة إيزيس وأوزوريس، من القرن الأول للميلاد، نجد التفاصيل الخاصة بذهاب إيزيس إلى أرض لبنان، الموقع الجغرافي لحضارة دولة فينيقيا، والى مدينة بيبلوس عاصمة دولة فينيقيا، وذلك للبحث عن زوجها المختفي. ورغم عدم دقّة النص اليوناني فيما يتعلّق بتأريخ الأحداث، مثلما هو الحال عادة في الأساطير، فإن زمن أسطورة إيزيس وأوزوريس هو كذلك غير محدّد بدقّة في التراث الديني الأسطوري المصري. فمن قائل إنها قد وقعت في عصور ما قبل الأسرات، قبل ٤٠٠٠ سنة من ميلاد المسيح، إلى قائل بإنها كانت في العصر المتأخر، قبل ١٠٠٠ سنة من ميلاد المسيح، والفرق بين العصرين كما هو واضح لا يقل عن ثلاثة آلاف عام.

لكن المهم هو أن إيزيس كانت دائما، وطوال هذه الآلاف من السنين، هي نموذج المرأة القدوة الذي تحتذيه كل النساء المصريات. وِفقا لنصّ فلوتارخوص/ بلوتارك عندما وجدت إيزيس نفسها وحيدة في بلد غريب، دون صَديق أو قريب، ودون مسكن أو مال، لم تجد حلا إلا أن تبحث عن عمل، ولم تستنكف أن تعمل مصفّفة شعر، ومزيّنة لرؤوس النساء، فقد كانت سمعة المصريّات كمصفّفات شعر قد سبقتهنّ، إلى كل بلاد منطقة شرق حوض البحر المتوسّط. وكانت الدولة الفينيقية في ذلك الوقت في قمّة ازدهارها الحضاري، وفقا لنص بلوتارك، خاصة بين عائلات كبار التجّار من طبقة أثرياء سكّان عاصمتها بيبلوس، التي عملت إيزيس لديهم مصفّفة شعر.

كان لهذا البلد فينيقيا، حدودا مشتركة مع إقليم الجليل الأعلى، في الوقت الذي لم تكن هناك فيه أيّة حدود مرسومة على الأرض، وحين كان الانتقال سهلا بين المناطق المختلفة، رغم تبعيّتها لدول مختلفة. وفي الزمن الذي عاش فيه المسيح كانت فينيقيا قد تركت تراثا حضاريا ضخما في المنطقة، رغم وقوع كل تلك الأراضي في ذلك الوقت الذي عاش فيه المسيح، تحت سلطة احتلال الإمبراطورية الرومانيّة. ونظرا للقرب الجغرافي بين الجليل

الأعلى وبيبلوس، حوالي مئة كيلومتر، فإنه كان من الممكن في ذلك الوقت الذي اعتاد فيه الناس على المشي، قطع هذه المسافة على الأقدام في أقل من أسبوع.

لذلك امتد تأثير أسطورة إيزيس بسهولة إلى المنطقة التي كان يعيش فيها يسوع الطفل والمراهق والشاب مع أمه في الجليل الأعلى، ليس بعيدا عن بحيرة الجليل المعروفة كذلك باسم بحيرة طبريّة. وكانت نساء العائلات الثرية في فلسطين عادةً ما يعتمدن على خدمات مصفّفات الشعر المصريّات.

تضيف تفاصيل القصّة وفقا لبلوتارك، أن إيزيس لم تكن تقوم فقط بتزيين نساء بيبلوس، وتصفيف شعورهنّ، وعمل ضفائر لهنّ، ودهن أجسامهنّ بالأطياب والعطور، بل أنها كانت كذلك تقوم أحيانا بلعب دور مرضعة أطفالهنّ. ولمن يعيش في مصر حاليا أن يدرك أن كل هذه المهن النسائية لا زالت باقية على قيد الحياة، خاصة في الطبقات الشعبية، التي تعيش في الأرياف أو في الضواحي الفقيرة لبعض المدن، حيث لا تزال هناك نساء يعملن في تصفيف شعور غيرهنّ من النساء في المنازل، وفي عمل ضفائر لهنّ، وفي دهن أجسامهن بالأطياب والعطور، كأن الزمن لا يمرّ منذ خمسة آلاف أو ستّة آلاف سنة.

وقد أضيفت إلى هذه المهام القديمة، مهمّة جديدة هي تدليك الجسم ونتف شعر البشرة في الأطراف من أذرع وسيقان، وتسمّى تلك التي تقوم بأداء كل هذه المهام، النتّافة أو الحفّافة أو البلاّنة، والكلمة الأخيرة مشتقة من الفعل الدال على بلّ الجسم بالسوائل من ماء وزيوت وعطور. وفي المعتاد كذلك أن تقوم البلاّنة بمهمّة صبغ الشعور والأطراف بالحنّة، التي تعطي لونا كستنائيا للشعر.

كما أنه قد أضيفت في العصور الحديثة إلى تلك المهام التي تقوم بها مصفّفة الشعر البلاّنة، مهمّة جديدة تقوم على الثقة التي تتمتّع بها تلك المرأة التي تدخل إلى مخادع النساء، وهي مهمّة محاولة توفيق الرؤوس في الحلال، وهي المهنة التي كانت معروفة في مصر باسم الخاطبة، وكانت كثيرة الانتشار جدا في مصر منذ أوائل القرن العشرين وحتى منتصفه، ثم تراجع الاهتمام بها بدءا من الوقت الذي خرجت فيه الفتيات المصريات من البيوت بمئات الآلاف للذهاب إلى الجامعات، ثم للنزول بعد ذلك إلى سوق العمل.

لهذا السبب كانت الخاطبة تدعى إلى حضور الأفراح التي كان لها سابق الفضل في التجهيز لها، ويبدو أن هذا هو السبب الذي كان قد أدّى إلى دعوة مريم وابنها البكر يسوع

إلى حضور حفل زفاف مدينة قانا، في الجليل الأعلى، وهي المدينة التي تشير اليها الأناجيل الأربعة كلها باسم قانا الجليل، حيث قام يسوع بعمل أول معجزة له في حياته، وهي المعجزة التي كان لها فضل لفت الانتباه اليه لأول مرة، وهي معجزة تحويل الماء إلى خمر، وكان ذلك قد حدث عندما علم يسوع من والد العروس، أن الخمر قد انتهى، فطلب منه احضار أزيار مملوءة بالماء، ثم قام يسوع بلمسها، فتحوّل الماء في الحال إلى خمر من أفضل الأصناف، حتى أن ضيوف حفل الزفاف قالوا لصاحب الزفاف، إنّه من المعتاد أن يتمّ تقديم الخمور الجيدة في بداية الحفل، عندما يكون المدعوون منتبهين، لا في نهايته عندما يكونون قد خفّ انتباههم.

غالبا ما كانت المرأة التي تعمل في مهنة مصفّفة الشعر أو مهنة البلاّنة، امرأة قد امتلأت خبرة بالحياة، وغالبا ما كانت قد خرجت من الأحياء الفقيرة في ضواحي المدن الكبيرة، للذهاب إلى الأحياء الثرية التي كانت غالبا ما تقع في ذلك الوقت بالقرب من القلب التجاري للمدن الكبيرة، واضعين في اعتبارنا صعوبة التنقّل في تلك الأزمان. وهي في أثناء رحلة انتقالها اليومية تلك، كانت تلاحظ بشكل شبه يومي الفروق الهائلة، بين الفقر المدقع للطبقات المحرومة من الكتلة الجماهيرية، والثراء الفاحش للطبقات المميّزة. رغم ذلك كان عليها طول الوقت أن تنسى فقرها وتخفي بؤس حالتها وتبلع مرارتها، فلا يظهر على ملامح وجهها إلا كل ما يدعو إلى السرور، بحكم كونها تمارس مهنة تعمل فيها على جلب السرور إلى قلوب زبائنها.

هذا بالإضافة إلى حقيقة تاريخية لا ينبغي لنا أن ننساها، وهي أن منازل أثرياء القوم في تلك الأزمنة من بدايات عصر الإمبراطورية الرومانية، حين كانت أسواق النخاسة توجد في كل المدن، وحين كان الاتجار في البشر من المهن الرائجة، كانت منازل الأثرياء تلك عادة ما تمتلئ بالعبيد من كل صنف ولون، الذين كانوا يعانون في تلك الحالات من المهانة والذل والجوع، مهانة الجسد والنفس وضياع المصير، وهم في صمت تام إذ لم تكن تحقّ لهم الشكوى، بل إن حيواتهم نفسها، أي مجرّد بقائهم أحياء، كان هذا البقاء على قيد الحياة يتوقّف أحيانا على نزوة من نزوات سيّد المنزل، الذي قد يضحّي وهو مخمور بحياة أحد عبيده، كما لو كان كل ما يفعله هو أنه يفعص بعوضة.

كل هذه العواطف والانفعالات كانت تملأ عقل وقلب مريم، وبالتالي كان من الطبيعي

أن تنقلها إلى طفلها يسوع، الذي ربّت فيه منذ طفولته المبكّرة، الرغبة في التمرّد على الأسياد الأثرياء، والرغبة في إنهاء هذه الأوضاع الظالمة المجحفة لأخوة له في البشرية. وهو نفس ما كانت إيزيس قد فعلته مع طفلها حورس، الذي ربّته على نفس الرغبة في الانتقام، ليس فقط من (سطا) العمّ قاتل الأب (أوزوريس/ أوزير/ وِزِر)، بل كذلك من كل القتلة الظالمين في كل البلاد والعصور، ودفعته إلى تعلّم واتقان فنون القتال، باستعمال الأسلحة اليدوية، التي لم يكن لديهم في ذلك الوقت غيرها، حتى يتمكن ذات يوم من قتل عمّه بقطع رقبته باستعمال السكّين، أو في بعض النسخ كان الانتقام هو بقطع عضوه الذكري باستعمال نفس السكّين.

فيما بعد أصبح حورس الها من آلهة الانتقام من الظالمين، وعلى رأسهم إله الظلم الأشرّ في تاريخ البشر، الإله الذي تمّ التعبير عنه في علوم الاشتقاق اللغوي etymology باستعمال الكلمة الدالة على اسم العمّ، سِت/ سِطا/ شِطا/ شِطان، في عدد كبير من لغات حضارات شرق حوض البحر المتوسّط، بل إن كلمة شيطان دخلت في عدد كبير من اللغات الأوروبية، سواء أكانت من العائلة اللاتينية، أو من العائلة الأنجلو ساكسونية، فهي مثلا في الإنجليزية وفي الفرنسية نفس الكلمة بنفس الهجاء، Satan، التي ينبغي أن تكتب في الإنجليزية بحرف كبير capital letter. وسيكون ليسوع المسيح نفس الهدف في مستقبل البشرية، تجاه نفس عدوّ الشر، الذي سيحمل نفس الاسم في الكتاب المقدّس من توراة وانجيل، ولكن على نطاق أوسع بكثير من ذلك الذي كان لحورس.

إن الصورة المرسومة لمريم، الواردة الينا في التقاليد الشفاهية المسيحية لتلك الفترة، عن الطابع الجسماني والنفسي لها، تؤكّد كلها على كونها تشبه المصريات المنتميات إلى الطبقة الشعبية، بما في ذلك طريقة ارتدائها لملابسها، وصبغ شعر رأسها بالحنّة المصرية، وخشونة يديها كأي عاملة يديوية، ممتلئة بالطاقة التي كانت تحتاج إلى قدر كبير منها حتى تستطيع مواصلة السعي في حياتها الشاقة، خاصة لكونها قد هاجرت من بلدها الأصلي مصر، بحثا عن العمل في بلد أجنبي، يدهس فيه أغنياؤه فقراءه تحت أقدامهم. يمكننا أن نجد وصفا لمريم، يشير اليه بوضوح المؤرخ نيسيفور كاليست Nicephore Calliste، في كتابه [التاريخ الكنسي Histoire Ecclesiastique]، نقلا عن كتاب آخر لايبيفان Epiphane، عندما يكتب

(كانت مريم متوسطة طول القامة، قمحية لون البشرة، بيضاوية الوجه، كستنائية شعر

الرأس، تتميّز حركة عينيها باليقظة والحيوية، بانسانيّ عينين مثل زيتونتين، بحاجبين أسودين مقوّسين، بأنف مدبب، وبأصابع يدين تتميّز بالطول النسبي. بملابس كانت دائما يغلب عليها طابع البساطة والتواضع، دون وجود أي عنصر من عناصر الزينة.

كانت طباعها مثل ثيابها تميل إلى البساطة والتواضع، وتحاول دائما أن تُظهر أقصى درجات الاحترام لكل الأشخاص المحيطين بها، وأن تمارس في كل الظروف، أقصى درجات الأمانة وضبط النفس في كل ما تكلّف به من عمل، ولم تكن تظهر عليها أبدا أيّة علامات للتكاسل أو التخاذل أو الضعف. تتحدّث بكلمات هي دائما أقلّ ما يمكن استعماله للتعبير عن المعنى، بأكبر قدر ممكن من اللطف والبشاشة). هذه هي المرأة التي قامت بتربية يسوع المسيح.

(٣)

علاقة الأم بالطفل

كان الطفل يسوع قد عاش فترة طويلة من زمن طفولته، وحده مع أمّه، دون أخ أو أخت، ودون أبّ. عاش المهاجران المصريان، الأم والطفل، بعيدين عن أي شخص يمكن أن يكون فردا من أسرتهما. صحيح أن نصوص الأناجيل تتحدّث عن إخوة ليسوع المسيح، وهناك عدّة احتمالات، أقربها إلى الصواب أنهم كانوا في الغالب إخوة في الرضاعة، مثل يعقوب (جاكوب/ جاك) الذي يظهر في مواقف عديدة في الأناجيل المختلفة، والاخوة والأخوات الباقون هم إخوة وأخوات ليعقوب. كان ذلك قد حدث بسبب أن مريم التي كانت كثيرا ما تُطْلَب في عمل، كانت مضطرّة بين وقت وآخر إلى ترك الطفل يسوع رضيعا لدى مرضعة محترفة، تقوم بإرضاعه مع غيره من الأطفال [كتاب القدّيس أوغسطينوس عن الثالوث/ De Trinitate].

أمّا الأب فلم يكن يظهر أبدا معهما في أي مكان. ليس له أي ذكر في أي مكان. لم تذكر الأناجيل، ولم تذكر الكتابات القديمة خلال القرون الأولى للميلاد، أن يسوع كان له أبا. حتى عندما كان يحمل لقبا في بعض الكتابات، كان لقبه هذا هو عيسى ابن مريم [انجيل مرقص الاصحاح السادس العدد ٣] الذي يقول (أليس هذا هو النجّار ابن مريم، وأخا يعقوب ويوسا ويهوذا وسمعان؟). لم يرد في أي مكان آخر ذكر يسوع باسم عيسى ابن يوسف النجّار،

ولكن ذكرت أحيانا صفته كنجّار كما في النص أعلاه. لم يرد في أي مكان ذكر يسوع باسم عيسى ابن يوسف النجّار. كما لو كان قد وُلِدَ فعلا دون أب. أو كما لو كان يتيم الأب منذ مولده.

وهذا هو ما حدث بالتمام والكمال مع طفل آخر هو حورس، الذي لم يكن يرد ذكره أبدا مقترنا باسم أبيه أوزير، بل اقترن دائما بأمه، وكان دائما ما يعرّف باسم (حورس ابن إيزيس)، أو (حِر ابن إيزت) وإيزت هو النطق المصري القديم، لمن ستلقّب مع عصر البطالمة باسم إيزيس، وفقا لعادة قدماء الاغريق بإضافة حرف السين إلى نهاية أسماء الأعلام، مع إضافة حرف حركة لتسهيل النطق [البرديات الاغريقية السحرية Papyri Graecae Magicae/ متحف مدينة لايبزيج بألمانيا] ..

لم يظهر يوسف النجّار مع يسوع في أي مكان، باستثناء زيارة معبد أورشليم عندما كان يسوع رضيعا. عدا تلك المرّة الوحيدة، لم يظهر إلى جوار يسوع إلا أمّه مريم، منذ أول ظهور علني له في عرس قانا الجليل، إلى آخر ظهور علني له عند الصليب ظهر يوم الجمعة، أو عند القبر فجر يوم الأحد. حتى عندما كان يسوع محاطا في مناسبات عدّة بالجموع التي يقدّر عددها أحيانا بالآلاف، مثلما حدث في الموعظة على الجبل، أو في معجزة اشباع الخمسة آلاف رجل عدا النساء والأطفال، بالخمس خبزات والسمكتين، كان تلاميذه يأتون اليه قائلين (أمّك تسأل عنك) [انجيل متى الاصحاح ١٢ الأعداد من ٤٦ إلى ٥٠]، ولم يأتوا أبدا ليقولوا له (أبوك يسأل عنك). قد تكون الحقيقة فعلا أنه كان بلا أب.

ثم بدأت الكتابات الدينية الصادرة عن جماعات دينية يهودية ومسيحية، منذ منتصف القرن الثاني للميلاد، في الاتيان على ذكر يوسف النجّار، باعتبار أنه الأب الذي تبنّى الطفل المولود يتيما. وبالتالي أصبح من الضروري، العثور بأي ثمن على صلات قربى، بين هذا الرجل شبه المجهول، وبين رجال آخرين، بحيث يصبح من الممكن الوصول بشجرة أنساب يوسف النجّار العائلية، إلى الملوك الأنبياء من سلالة سليمان وداوود [متى الاصحاح الأول الأعداد من ١ إلى ١٦، ولوقا الاصحاح الثالث الأعداد من ٢٣ إلى ٣٨].

كان الثمن المدفوع أحيانا للعثور على هذه الأنساب باهظا، وهو وضوح التناقض وانعدام المصداقية. ان النصوص التي وصلت إلى أيدي الناس، بعد القرن الثاني الميلادي، مثل إنجيل يوحنا، وانجيل يعقوب المعروف تاريخيا باسم [ما قبل الأناجيل Protevangile]،

الذي يحكي فيه يعقوب بصفته أخا في الرضاعة ليسوع المسيح، حكايات من طفولة يسوع، لا يعرفها الرسل والتلاميذ والحواريون، الذين لم يظهروا في حياة يسوع، إلا بعد أن كان قد تعدّى سن الثلاثين، هذه النصوص (يوحنا ويعقوب) تشير إلى يوسف النجّار بصفته أبا بالتبنّي ليسوع المسيح، [انجيل يوحنا الاصحاح الأول العدد ٤٥] الذي يقول (يسوع ابن يوسف من الناصرة).

أمّا إذا تساءل أحد القرّاء عن السبب في اختفاء الأناجيل والرسائل التي جُمِعت فيما بعد مع الأناجيل، وامتناعها عن الظهور علنا في أيدي المؤمنين بها في شوارع وحوانيت وأسواق المدن، في مناطق آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر، فالسبب في ذلك هو أن تداول هذه الأناجيل والرسائل كان ممنوعا، لأن الدولة الرومانية التي كانت مسيطرة على مقاليد الأمور، في المنطقة الجغرافية المعروفة حاليا باسم منطقة شرق حوض البحر المتوسّط، كانت دولة وثنية، لا تؤمن بيسوع المسيح ولا برسالته ولا بكتابات تلاميذه، لذلك كان المؤمنون يتناقلون هذه الكتابات في سرّيّة تامة، ولم يتمكنّوا من البدء في تداولها علنا، إلا بعد أن تحوّل الامبراطور قسطنطين إلى المسيحية، بعد مرور الربع الأول من القرن الرابع الميلادي.

كما أن هناك حقيقة تاريخية أخرى لا تقل أهمية عن الحقيقة الأولى الوارد ذكرها أعلاه، وهي أن كل هذه الكتب من أناجيل ورسائل وكتابات دينية، ظلت تكتب بخط اليد، في شكل مخطوطات ورقية غالبا، وتنقلها أيدي أخرى في نفس اللغة أو في لغات أخرى، مما كان يجعل مسألة انتقال المعلومات بدقة تامة، أي بدقّة تبلغ درجة ١٠٠ ٪ من الكمال، مسألة شبه مستحيلة، إمّا بسبب الضعف البشري، أو الهوى الطبيعي لانسان، قد لا يهتم بنقل المعلومات التي لا تروق له. ظلت تلك المسألة، أي مسألة استنساخ الكتب بخط اليد، طوال خمسة عشر قرنا، وهي المدّة الزمنية الواقعة بين مولد المسيح، وبين اختراع أول آلة طباعة بحروف معدنية منفصلة، يعاد تركيبها وفقا لكلمات كل صفحة جديدة من صفحات الكتاب، بفضل عالم ألماني اسمه جوتنبرج حوالي سنة ١٤٥٣.

هناك كتابات أخرى من نفس تلك الفترة الزمنية، أي بين منتصف ونهايات القرن الثاني الميلادي، تقترح أن الأب بالتبنّي للطفل يسوع، كان شخصا يدعى يوشا نان Jochanan، وقد أوجدوا له هو كذلك كما ينبغي أن يحدث، سلسلة أنساب عائلية تربطه بالنبي داوود.

بالإضافة إلى كل ذلك هناك شخص ثالث ظهر اسمه في بعض الكتابات، يدعى جورايي Jurayi ، وهو أحد نسّاك شعب إسرائيل، كان قبل أن يعتزل العالم في بريّة إسرائيل، ويصبح بالتالي شخصا مقدّسا، قد مارس لفترة من الوقت مهنة النجارة المرتبطة بمهن البناء، أي كما يقولون حاليا (نجّار باب وشبّاك).

يقال إنه كان قد وقع الاختيار على جورايي من قِبَل أشخاص مقدّسين، بعد أن كانوا قد تجمّعوا سويّا أولئك الأشخاص المقدّسين، ليجروا قرعة علنية بينهم، يتمّ بموجبها اختيار أحدهم للاعتناء بمريم، بعد أن كانت قد ظهرت مشكلة ضرورة العثور على شخص للاعتناء بها، وكان النبي زكريا، وهو من نفس مجموعة الأشخاص المقدّسين، وفي نفس الوقت كان زوجا لاليصابات التي تمتّ بصلة قربى لمريم، قد توقّف لسبب أو لآخر، عن الاهتمام بشؤون مريم، غالبا قد يكون السبب هو تقدّمه في السن.

من الواجب أن نذكر هنا هذه الحقيقة التاريخية المعروفة، التي تشير إلى أن المرأة في ذلك الزمن لم تكن قادرة، أو لم يكن مسموحٌ لها بالحياة وحدها. لم تكن المرأة قد حصلت بعد على الحد الأدنى من حقوق الإنسان المعاصر في الاستقلال بشؤون حياته. كان عليها دائما أن تتقبّل ضرورة تبعيتها لأحد الرجال.

أمّا المسيحيون الذين لم يكونوا من أصول يهودية، وعاشوا في نجران بالجزيرة العربية مثلا، أو خاصة أولئك الذين عاشوا في مصر، فكانوا مستعدّين منذ زمن طويل لتقبّل الأفكار التي جاءت في المسيحية، مثل أن يولد الطفل دون أن يكون له أب يعترف به، أو أن تقوم الأم وحدها برعاية الطفل يتيم الأب.

فقد سبق أن جاءت هذه الملابسات في قصة حورس مع أمه إيزيس، وهو الطفل المولود بين ميتتين لأبيه أوزوريس، الميتة الأولى على يد سيتوس أخيه، الذي حبسه في تابوت ألقى به في الماء وهو داخله، ثم استردّت زوجته جسده في بيبلوس، وأعادت اليه الروح، ثم عاشرت الزوجة زوجها، والمرة الثانية كذلك على يد سيتوس أخيه، الذي قطّع في هذه المرة الثانية، جسده إلى ستّ عشرة قطعة، نثرها في ستّة عشر موقعا مختلفا داخل مصر.

في الفن المصري القديم المشهور منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد، بانتشار عبادة الآلهة في شكل ثالوث، مثل ثالوث الكرنك آمون وموط وخونصو، أو مثل ثالوث منف بتاح وسخمت ونفرتوم، لم يظهر فيه أبدا ثالوث أوزوريس وإيزيس وحورس، بل إمّا أن يظهر

الأب أوزوريس وحده، أو تظهر الأم إيزيس وبين ذراعيها الطفل حورس وحدهما. ثم حدث في فترة لاحقة أن ظهر الثالوث بشكل نادر، في بعض المعابد اليونانية الرومانية مثل إدفو أو دندرة، وقد تمّ استبدال إله آخر بأوزوريس. حالة مريم تشبه حالة إيزيس، فمريم لا تظهر أبدا في فنون التصوير والنحت المسيحية مع الطفل إلا وهما وحدهما، دون وجود أب على الاطلاق، في شكل تقليدي تكون هي فيه جالسة، ويكون الطفل رضيعا عاريا بين ذراعيها، يرضع من ثديها الأيسر [كاتالوج متحف اللوفر] [قاموس الحضارة المصرية لجورج بوزنر].

فيما بعد عندما تصل هذه القصص الدينية المسيحية إلى أوروبا، يستلهم منها الفن المسيحي الرسمي للامبراطوريات الأوروبية، منذ العصرين الهيلينستي * والبيزنطي *، إلى نهاية القرن التاسع عشر، يستلهم منها الآلاف من اللوحات الجدارية، على جدران الكنائس والقصور، كما يستلهم منها مئات الفنّانين الأحرار، الآلاف من القطع الصغيرة من الرسومات والتماثيل، خلال قرون طويلة خاصة خلال ما يعرف باسم عصر النهضة الأوربية، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر.

قد يظهر يوسف النجّار في بعض هذه الأعمال الفنيّة، فقط بداية من القرن الرابع الميلادي، في شكل رجل متقدّم السن، أشيب شعر الرأس، يرتدي ثيابا ثقيلة، إلى جوار زوجته الشابة مريم، خاصة في مناظر الميلاد المقدّس، الذي وقع في برد الشتاء، حيث تحيط بالعائلة المقدّسة، بعض البهائم من خرفان وبقر، وبعض فقراء القوم من رعاة الأغنام. يظهر يوسف النجّار هنا بصفته والد الطفل يسوع، لكنه يتوقّف تماما عن الظهور في الأعمال الفنيّة، التي تصوّر يسوع في مرحلة لاحقة من العمر، هي مرحلة الصبا والشباب. وهو ما قد يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الرجل يوسف النجّار، لو كان فعلا شخصية حقيقية، فهناك احتمال أن يكون قد مات، والطفل يسوع لا يزال طفلا.

إلا أن المنظر الأكثر تكرارا في هذه الفنون منذ بداية العصر المسيحي المبكّر/ القديم أو العصر المسيحي الأول، أي ما يعني فقط خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وأحيانا حتى منتصف القرن الرابع الميلادي، المعروف علميا باسم Paleochretien، هو منظر الأم والطفل وحدهما دون شخص ثالث. ما الذي حدث في منتصف القرن الرابع الميلادي وأصبح علامة على تحوّل المسيحية من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى؟ الذي حدث هو اعتناق الامبراطور قسطنطين للديانة المسيحية.

في مدافن مقبرة بريسيل Priscille بروما، وفي مدافن مدينة سان سباستيان بشمال اسبانيا، توجد أجزاء من لوحات حجرية تعود إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، تصوّر فقط مريم والطفل يسوع وحدهما. بالإضافة إلى قطعة من الحجر الجيري قادمة من إقليم الفيّوم بمصر، من أوائل القرن الرابع الميلادي، تمثّل مريم وهي ترضع الطفل من ثديها الأيسر، حاملة إيّاه بين ذراعيها. [قاموس لوكلير لآثار العائلة المقدّسة]. في هذه الأعمال الفنية الثلاثة من العصر المسيحي المبكّر ليس هناك أي وجود للأب، سواء أكان هذا الأب هو الأب الحقيقي أو كان الأب الذي تبنّى الطفل. لن يظهر يوسف النجّار في مثل هذه النوعية من الفنون إلا منذ منتصف القرن الرابع الميلادي.

(٤)

الأب يوسف

يلاحظ لوكليرك Leclercq في كتابه [قاموس الفنون والآثار المسيحية] أن شخصية يوسف النجّار لا تظهر اطلاقا في موضوعات الرسومات الجدارية الملوّنة، في مقابر المسيحيين المعروفة في كاتاكومب catacomb روما، المتعلّقة بزيارة المجوس الفرس، للطفل يسوع ليلة مولده. وكلمة كاتاكومب هي مصطلح، يستعمل للتعبير عن المقابر، التي كانت تحفر في طبقات متتالية، تحت الأرض في المناطق الصخرية، وتوضع فيها الجثث داخل توابيتها الخشبية أو الحجرية، في تجاويف أفقية يسع كل منها بالكاد تابوتا واحدا، وتكون التجاويف محفورة في أدوار بعضها فوق بعضها الآخر بشكل رأسي. وكانت العادة قد استمرت قرونا طويلة، في تلوين جدران هذه المقابر، وزخرفتها بنقوش ورسوم دينية. يمكن أن نضرب مثلا بالكاتاكومب الوحيد في مصر، الذي لا يزال على حالة جيّدة، في كوم الشقافة بالاسكندرية، ويعود إلى فترة العصر البطلمي، أي القرون الثلاثة الأخيرة قبل ميلاد المسيح.

يوسف النجّار هو الوالد الرسمي ليسوع المسيح، الذي تبنّاه قبل مولده، وظل أبّا له وهو طفل رضيع، ثم يختفي أي ذكر له من حياة يسوع المسيح كصبيّ أو كشاب. لا يظهر يوسف النجّار إلا في قطع نادرة، من تلك التي تمثّل منظر الميلاد في مغارة بيت لحم. فهناك مثلا تابوت حجري يحمل اسم تابوت آرل Arles، وهي المدينة الفرنسية التي عثر فيها على

هذا التابوت، وكانت من المراكز الحضارية الهامة للثقافة الرومانية في فرنسا، حتى القرون الأولى بعد الميلاد. كما توجد قطعة حجرية من تابوت محطّم، في مدافن سان سباستيان Saint Sebastian في شمال إسبانيا. هذان النموذجان يظهر فيهما شخص رجل يقف إلى جوار الأم مريم، والطفل يسوع في مهده، بحيث لا يمكن التأكد من شخصيته، إن كان هو واحدا من رعاة الأغنام، أم كان هو يوسف النجّار.

على أحد شواهد القبور في مدينة سيفير Severe، من القرن الثالث الميلادي، يظهر إلى جوار مريم التي ترضع الطفل، شخص رجل يرتدي ملابس تقليدية للطبقة المتوسّطة، فوقها عباءة قصيرة tunic تقف أعلى مستوى الركبتين، وهو يرفع ذراعه ليشير به لا إلى الطفل المقدّس المولود، بل إلى النجم الساطع في السماء، كأنه هو الشخص الذي قاد الكهنة المجوس إلى الموضع الذي تمّت فيه الولادة الإلهية. لا نعرف بالدقّة من هو هذا الشخص، لأن النقوش البارزة غير مصحوبة بأيّة نصوص توضيحية.

أمّا المنظر المتكرّر آلاف المرّات، عبر مئات السنوات، في فنون كل الدول المسيحية، سواء في أفريقيا أو في آسيا أو في أوروبا، فهو منظر الطفل يسوع بين يديّ أمّه مريم، بشكل لا يقبل أدنى شكّ، في أنه من تأثير نفس المنظر، المتكرر آلاف المرّات على جدران المعابد المصرية، للطفل حورس بين يديّ والدته إيزيس، خاصة في الفترة اليونانية الرومانية، التي وصلت الينا مناظرها في حالة جيّدة من الحفظ. حتى أن كلمة (مادونّا Madonna) اللاتينية الإيطالية، التي تعني (السيّدة/ الست)، يعتقد الآن أنها مأخوذة من المصرية القديمة، حيث كلمة إيزيس كانت تنطق (إيست)، كانت تشتق منها كلمة (ست)، التي وصلت الينا في العامية المصرية، وظلت فيها حتى القرن الواحد والعشرين، للدلالة على نفس المعنى (السيّدة). لقد عاش يسوع المسيح دون أب، كما سبق وأن عاش حورس هو الآخر دون أب. وقد تكرّرت قصص الأنبياء دون أب، في العديد من ديانات العالم.

(٥)

المكان الذي عاش فيه الطفل

إن النصوص الدينية الموجّهة إلى المسيحيين الأوائل المتحوّلين من الديانة اليهودية، التي تتحدّث عن طفولة يسوع المسيح، تجعلنا نعتقد بما لا يدع أي مجال للشك، أن هذه الطفولة كانت قد وقعت جغرافيا في إقليم فلسطين. هذه النصوص الأولى المكتوبة خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، رفضتها الكنيسة بداية من القرن الثالث. وفقا لانجيل لوقا، عندما أنهى والدا يسوع أيامهما إلى اليوم الأربعين من يوم الوضع، وهي الأيّام اللازمة لطهارتهما وفقا لشريعة موسى، ذهبا بالطفل إلى معبد أورشليم، بصفته طفلهما الأول أي باكورة انتاجهما المشترك، بهدف تقديمه إلى الربّ.

وقد سبق أن أوضحنا أعلاه، الانتقادات التي وجّهت إلى هذا النصّ وفقا لشريعة موسى، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه القصّة المرويّة في إنجيل لوقا، تتناقض بشكل واضح مع القصّة الواردة بشأن نفس الموضوع في إنجيل متى، الذي يرد فيه أنه بمجرّد أن وضعت مريم طفلها، وسمعت هي وزوجها بنبأ رغبة الحاكم هيرودس في قتل كل الأطفال دون الثانية من العمر، أخذها يوسف النجّار وهرب بها من موقع الميلاد في بيت لحم، مباشرة إلى مصر، دون انتظار أربعين يوما، ودون المرور بأورشليم.

وفقا لانجيل متى ستظلّ العائلة المقدّسة في مصر، الأب والأم والابن، إلى حين أن سمعوا بنبأ وفاة هيرودس في العام الرابع قبل الميلاد. إلا أنهم عند عودتهم من مصر إلى فلسطين، تجنّبوا المرور بإقليم اليهوديّة، خوفا من أن يكون الحاكم الجديد أرخيلايوس، وهو ابن هيرودس، لديه هو كذلك نفس الرغبة في التخلص من الأطفال صغيري السن. لذلك سكنت الأسرة في إقليم الجليل الأعلى، إلى الشمال من بحيرة طبرية، ومارست حياتها بشكل يميل إلى الانعزال والهدوء وعدم الرغبة في جذب الانتباه.

وقد استمر حكم أرخيلايوس عشر سنوات، من العام الرابع قبل الميلاد إلى العام

السادس من الميلاد، ولم تحاول العائلة المقدّسة خلالها الذهاب إلى القدس، عاصمة إقليم اليهودية، خوفا من التعرّض لأي خطر، وبالتالي ليست هناك أيّة إمكانية لذهاب الطفل إلى معبد أورشليم، وبالتالي فإن هذه الواقعة لم يرد ذكرها على الاطلاق في إنجيل متى.

في إنجيل لوقا هناك نص آخر يشير إلى حادثة أخرى تتعلق بالذهاب إلى معبد أورشليم، وهي كذلك من أحداث طفولة يسوع المسيح. كان الطفل يسوع قد أمضى طفولته في مدينة الناصرة بالجليل الأعلى، ثم عندما بلغ سن الثانية عشرة حدث أن صاحبه والداه مرة أخرى إلى معبد أورشليم. يقول النص (إن هذا الطفل قد ظلّ ثلاثة أيّام يحاجج خلالها علماء التوراة من رجال المعبد اليهود). بعد هذه الأيام الثلاثة يعود الطفل مع والديه إلى بلدتهم في الجليل الأعلى.

يقول النص (حيث استأنف الطفل نموّه العقلي والجسماني، أمام الربّ وأمام الناس، لأنه كان قد أصبح موضع بركة الربّ). هذه القصة المتعلّقة بمناقشة علماء المعبد مستوحاة من الأسطورة المصرية المعروفة باسم (صا/ تني/ خع/ موييس). نصوص هذه الأسطورة كانت موجودة في كل معابد مصر وفلسطين في ذلك الوقت بهدف الوعظ والإرشاد والتبشير، ولم تكن يُنْظَر اليها على أنها حقيقة تاريخية، بقدر ما كان يُنْظَر اليها على أنها من الوسائط التعليمية كما نقول الآن بلغة القرنين العشرين والواحد والعشرين.

قبل أن نذكر ما هيّة هذه الأسطورة ينبغي علينا أن نتساءل عن المدّة الزمنية التي قضاها يسوع في مصر. [القلقشندي في كتابه صُبْح الأعشى في صناعة الانشا] يقول إنه وفقا لبعض الأناجيل التي كانت منتشرة في الشام وفي شبه الجزيرة العربية، بداية من القرن الثاني الميلادي، ثم أصبحت ممنوعة من التداول وغير معترف بها من كنيسة روما في العصور الوسطى، وأطلق عليها اسم الأناجيل الأبوكريفا، هناك كتابات كثيرة داخلها تقترح أن عودة يسوع من مصر إلى فلسطين، كانت عندما أصبح يسوع في سن الخامسة عشرة.

أما الأناجيل الأربعة الموجودة في النسخة الرسمية من كتاب العهد الجديد، الذي تطبعه الكنيسة منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي دون أي تغيير، لا تذكر أي شيء عن يسوع المسيح، منذ مولده وحتى بداية التبشير في سن الثلاثين، باستثناء الحادثتين المتعلقتين بذهابه إلى معبد أورشليم، في عمر الأربعين يوما وفي عمر الثانية عشرة، الواردتين في إنجيل لوقا، والمشار اليهما أعلاه. بل إن هناك ما قد يدعو إلى الاعتقاد أن المدّة الزمنية التي قضاها

يسوع في مصر قد تصل إلى ثلاثين عاما.

هناك معتقدات وآراء مختلفة يمكن العثور عليها في العديد من المصادر القديمة، تتفّق جميعها على أن الفترة التي عاش فيها يسوع المسيح، جزءا من حياته في مصر، كانت أطول بكثير مما نعتقده، ومما تقوله الأناجيل، أي أنها لم تكن فقط مجرّد ثلاث أو أربع سنوات في طفولته، بل إنه من الجائز أنها شملت كذلك سنوات مراهقته كلها، ويجوز كذلك أنها قد وصلت به إلى سن الثلاثين، وهو السن الذي بدأ فيه التبشير.

أول هذه المصادر القديمة هي الأناجيل، التي كان عددها الإجمالي يتعدّى رقم الأربعين انجيلا، وهي الأناجيل والكتب التي حرّمتها الكنيسة لاحقا، وأطلقت عليها لقب أبوكريفا أي المحرّفة. بعض هذه الأبوكريفا مثل [كتاب أوريجانوس المصري السكندري المعنون باللاتينية Contra Celsum ومعناها في مواجهة التعالي والتفاخر الكاذب] تذكر أن يسوع المسيح فيما بين سن العشرين وسن الثلاثين، درس العلوم الطبيّة في المدارس المصرية، وبدأ في ممارسة مهنة الطب في بعض المدن المصرية، قبل أن يقرّر العودة إلى فلسطين حيث كان مولده.

الفصل الثالث
المجتمع

(١)

طبقة النبلاء

كان سكان فلسطين في زمن يسوع المسيح، يتكونون من خليط من جنسيّات مختلفة، وذلك بسبب وقوع هذه المنطقة تحت حكم الاغريق منذ زمن الاسكندر الأكبر، أي منذ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وكان الاغريق يشجّعون ناس مستعمراتهم على الحركة بين البلاد، وبالتالي كانت الكتلة السكانية في فلسطين، تحتوي على عدد كبير من المصريين، والعرب، والسوريين، والفينيقيين (اللبنانيين)، وكان هذا الخليط يعيش مندمجا في كتلة سكانية واحدة، أما السكّان من أصول يونانية ويهودية، فكانوا يعيشون في جزر منعزلة داخل هذه الكتلة السكّانية.

يبدو واضحا أن التقسيم الأكثر أهميّة لهؤلاء السكّان، في تلك الفترة التاريخية، في هذه المنطقة الجغرافية، لم يكن قائما على الأصول العرقية للسكان، بقدر ما كان قائما على الوضع الاقتصادي لهم، بحيث أن الملمح الأكثر وضوحا كان هو الطبقية الاقتصادية، أي تقسيم المجتمع إلى فقراء وأغنياء، بحيث أنه كانت هناك أحياء يقيم فيها الفقراء، وأحياء أخرى يقيم فيها الأغنياء. كانت هذه هي الحالة الحقيقية للمجتمعات المتعدّدة الأعراق (الكوزموبوليتانية)، التي عاشت في ظل الامبراطورية الرومانية.

كانت أكثر فئة اجتماعية تألّقا هي الطبقة الحاكمة، التي تأتي على قمّة هذا المجتمع، وهي الطبقة التي كانت تدير الشؤون المحلّيّة لهذا الاقليم بالتواطؤ مع حكّام روما، وكانوا في الغالب من أصول يونانية أو رومانية، تأتي بعدهم فئة رؤساء الطائفة أو الأقلّية اليهودية، وهي الفئة التي كانت تنقسم داخليا إلى مجموعتين متنافستين، وبينهما تاريخ طويل من الصراع هما فئتا الصدّوقيين والفرّيسيين. كان أكثر ما يميّز هذه الطبقة من الأثرياء النبلاء هو بذخ العيش الذي كانوا يعيشون فيه، ويبدو واضحا في قصورهم وثيابهم ومجوهرات زوجاتهم. من الضروري اضافة ملحوظة تتعلّق بممارسة هؤلاء النبلاء لعادة تعدّد الزوجات polygamie، التي لم يكن في القانون المدني مايمنعها بعد.

بل كانت لديهم كذلك محظيّات من الجواري والعبيد، حيث إن ممارسة النخاسة واقتناء العبيد، كانت من بين العادات الأكثر انتشارا في الامبراطورية الرومانية، خاصة في مناطق شرق حوض البحر المتوسّط، بل إنهم كانوا يحتفظون كذلك بصبيان يحصلون عليهم من أسواق النخاسة، يتم إخصاؤهم حتى يتمكن الأثرياء من الاحتفاظ بهم وهم في مرحلة لا تصل إلى النضج الجنسي، حتى يأمنوا عليهم زوجاتهم ومحظيّاتهم، إذ كان أولئك الخصيان أو الأغوات، يتركون مع الزوجات في المنازل، حتى يمكن للأثرياء ممارسة الجنسية المثلية معهم، وهي الأخرى كانت عادة من العادات واسعة الانتشار[كتابات مؤرخ من القرن الأول الميلادي هو يوسيفوس]. كان ثراء هذه الطبقة يتّضح كذلك، في أنهم كانوا يبنون لأنفسهم أضرحة حجرية ضخمة، ويضعون داخلها توابيت حجرية ضخمة، تكون مستعدّة لاستقبال جثثهم بعد موتهم [أضرحة كفر ناحوم/ فيرجيليو كوربو].

كانت سلطة الامبراطورية الرومانية تمارس، إمّا بطريق مباشر بواسطة حكّام رومانيين ترسلهم روما، ويعتبرون ممثلين للامبراطور، أو بواسطة ملوك محليين من العائلات الكبيرة من أصول عرقية مختلفة، تساندهم روما ويساندونها. في الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، كان حاكم فلسطين هو هيرودس الكبير، وقد اشتهر في التاريخ بأنه صاحب عدد من المشروعات المعمارية الكبيرة. عند موته في العام الرابع قبل الميلاد، انقسمت السلطات في المملكة التي كان يحكمها بين ولديه، فأصبح ابنه الأول أرخيلايوس ملكا على منطقة اليهودية، وكذلك على منطقتي السامرة وأيدوميّة، من العام ٤ ق م وحتى العام ٦ بعد الميلاد، عندما حدث أن غضب عليه الامبراطور الروماني أوغسطس قيصر، فعزله ونفاه إلى بلاد الجال (فرنسا الحالية).

أما الابن الثاني لهيرودس الكبير، وقد سمّي باسم أبيه هيرودس مع إضافة لقب أنتيباس اليه، فقد حكم من العام ٤ ق م حتى العام ٣٩ ميلادية، ملكا على منطقة الجليل حتى مدينة بانياس، بالقرب من منابع نهر الأردن، وهي المناطق التي سميّت فيما بعد قيصرية فيليبس. كل هؤلاء الملوك كانوا من أصول عربية، إذ كان هيرودس الكبير قد ولد في أيدومية، وكان ابناه اللذان ورثا ملكه، هما من الأولاد الذين أنجبهم من زوجته مَلتاسة، التي كانت سامرية غير يهودية وإنما من أصول عربية.

من الملاحظات التاريخية الغريبة، أن سكّان المناطق من الأصول العربية، من العائلات الأيدومية والهيرودية، وسكان نفس المناطق من معتنقي الديانة اليهودية، كانوا يكوّنون فريقين دائمي التصارع فيما بينهما، بحيث أن كلا من الفريقين المتصارعين كان يقدّم شكاوى واتهامات في حق الفريق الآخر، إلى رجال السلطات الرومانية، وقد وصلت المسائل بين الفريقين المتصارعين، إلى حدّ حدوث مشاجرات دامية بينهما، في شوارع المدن الكبيرة في تلك المناطق، مثلا في أورشليم والمدن المحيطة بها أو القريبة منها.

وقد توصّل الهيروديون إلى حل عملي سمح لهم بكسب تعاطف الرومان المحلّيين معهم دون اليهود، وهو تقديم الهدايا القيّمة اليهم، أو إلى الامبراطور نفسه في كل المناسبات التي كانت تتاح لهم. وفي المقابل كان من الواضح أن كسب الصداقة بهذه الطريقة، سمح لأمراء العائلة الهيرودية، بارسال أبنائهم إلى عاصمة الامبراطورية، للحصول هناك في معاهد روما ومدارسها، على المعارف والعلوم اللازمة لادارة البلاد.

كانت طبقة النبلاء تتكون في الأساس من عائلات الأمراء الذين كانوا على علاقات طيّبة بروما، وكانت تلك العائلات النبيلة تتعمّد الاحتفاظ بأشجار الأنساب التي تؤكد على أصولهم النبيلة، التي كانوا دائمي الاشارة اليها، لأنها ما يبرّر لهم ولغيرهم التميّز عن باقي طبقات المجتمع. كانت تلك الطبقة المميّزة هي التي يخرج دائما منها، أولئك الذين يشغلون وظائف جباة الضرائب التي تفرضها الادارة الرومانية، الذين كانوا يسمّون أيضا العشّارون، لأن أغلب الضرائب كانت تمثّل أعشار الدخول.

(٢)

الكتلة الجماهيرية

كانت تتمثّل في الفقراء والعبيد. في الريف كان هؤلاء يمارسون المهن البسيطة مثل زراعة الأرض ورعي الغنم، وكانوا يمارسون مهنة صيد السمك في المناطق القريبة من البحر أو من البحيرات الداخلية (طبرية مثلا). أمّا في المدن فكانوا يمارسون المهن المتصلة بالعمالة الفنّية اليدويّة، مثل العمل في مهن البناء والحدادة والنجارة والنسج وصباغة النسيج ودباغة الجلود. كانوا يعيشون في أحياء فقيرة بائسة، ذات شوارع ضيّقة ملتوية لا تدخلها الشمس، عادة ما يفتح بعضها على بعض، بسبب وقوعها جميعا على أفنية داخلية قد تتيح الحصول على قدر من أشعة الشمس، وكانت أغلب سقوفها من جذوع الأشجار التي تملؤ فراغاتها جواليص من الطين، لم تكن بمستطيعة أن تقف في وجه المطر الذي كان غالبا ما يسقط في شتاء تلك المناطق.

كان أولئك الفقراء من بين أول من تصيبهم ويلات المجاعات والأوبئة، خاصة عندما كانت قوّات الأعداء تحاصر مدنهم، وهي ظاهرة كانت متكرّرة الحدوث في تلك الأزمنة. كانت قسوة تلك الظروف تؤدّي بهم إلى قتل أطفالهم ليتخلّصوا منهم، بدلا من مشاهدتهم وهم يموتون جوعا [الديسقالية المسيحية وهي مجموعة نصوص تعليمية، تمّ تجميعها عبر العصور المسيحية، لتصير في شكلها الحالي عند طباعتها لأول مرة في منتصف القرن الخامس عشر، وتظهر فيها نصوص من القرون الأولى للميلاد، تحرّم قتل الأطفال مهما كانت الأسباب حتى لو كان مقدّرا لهم أن يموتوا جوعا].

هذه الطبقات الفقيرة كانت مكبّلة تماما بالضرائب الثقيلة، التي كان ينبغي عليهم دفعها بالدينار القيصري. وكانت الجزية في فلسطين، وهي إمارة واقعة تحت الاحتلال الروماني، تدفع في بداية الاحتلال (أي في النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد)، بنفس الطريقة التي كانت تدفع بها، أثناء وقوعها تحت سلطة الدولة السلوقية، وهي الدولة التي شملت في بدايتها كل العراق والشام وأجزاء من تركيا الحالية، وكانت تابعة لورثة أحد جنرالات الاسكندر الأكبر المقدوني، وهو سلوقوس (أو سلوخوص)، الذي كان من بين أبنائه

من سمّيَ أنطيوخوس، وانفصل عن أخوته بحكم الشام.

كانت تلك الطريقة في دفع الضرائب (أو الجزية)، هي دفع مبلغ من المال مقابل ممارسة أي نشاط اقتصادي، مثل زراعة الأرض، أو رعي الغنم والماشية، أو ممارسة المهن اليدوية، بالاضافة إلى جزية أخرى تدفع عن امتلاك قطعة أرض مهما صغرت مساحتها، أو امتلاك مسكن مهما كانت حالته رديئة، كل هذا تضاف اليه كذلك جزية تدفع عن كل رأس من رؤوس أفراد العائلات الفقيرة، التي كانت تتميّز بزيادة عدد أفرادها، كما يفعل عادة الفقراء، الذي يجدون بعض السلوى، في الحصول على أكبر عدد ممكن من الأطفال.

بالاضافة إلى كل هذا كانت هناك كذلك، ضرائب تدفع عند بوابات الحدود بين الدول، كجمارك على مرور البضائع، مع ملاحظة أن كل هذه الدول التي تنتقل البضائع بين حدودها، هي إمارات تابعة لنفس الامبراطورية الرومانية، بما يدلّ على قدر الظلم والتعسّف الذي مورس على الجميع، بمن فيهم التجّار الذين كانوا يصدّرون ويستوردون.

كانت الضرائب المدفوعة عن الأرض الزراعية، تكون غالبا في شكل بعض المحاصيل الزراعية من انتاج هذه الأرض، وتدفع مباشرة إلى الممثل المحلي للامبراطورية. كان النظام في الامبراطورية يقوم على أساس ملكية الدولة لكل الأراضي في عموم الامبراطورية، باستثناء بعض الإقطاعيات للعائلات الكبيرة، وتعطى للمزارعين عقود مؤقّتة بمدّة سنة أو أحيانا بمدّة موسم حصاد واحد، وكانت هذه العقود قابلة للتجديد فقط في حالة تمكّن المزارع من دفع الضريبة المفروضة على أرضه. كان جباة الضرائب، وهم موظّفون عموميون تابعون للامبراطورية، غالبا ما يتّصفون بالجشع وبالرغبة في تحقيق مكاسب خاصة، عندما يقومون بتحصيل هذه الضرائب على الأرض الزراعية.

هنا ظهر نظام الالتزام، الذي كان معروفا من قبل في بعض الأنظمة الادارية، وسيظل معروفا من بعد في ظل أنظمة أخرى، وهو الذي يعني أن يقوم شخص يسمّى الملتزم، بالالتزام تجاه الدولة مسبّقا، بسداد الضرائب المفروضة على منطقة زراعية مقدّما، قبل مواسم الحصاد، على أن يقوم هو لاحقا بتحصيل هذه الضرائب من المزارعين، مع تحقيق هامش ربح له، وهو ما كان يجعله أحيانا يستخدم القوّة في فرض ضرائب مضاعفة، حتى يحصل لنفسه على هامش ربح كبير. لهذا السبب كان الملتزمون وجباة الضرائب مكروهين من الشعب، وكانوا غالبا ينتمون إمّا إلى المواطنة الرومانية أو إلى الهيروديين، على أن يكون

تابعا لكل منهم عدد كبير من الموظّفين المحلّيين من العرب واليهود، بل حتى أحيانا من رجال من أصول يونانية [انجيل متى الاصحاح التاسع العدد من رقم ٩ إلى رقم ١١].

يوضّح لنا المؤرّخ تاسيتوس في التقارير السنوية التي يسجّلها، أنه خلال العام ١٧ من القرن الأول للميلاد، كانت الضرائب المفروضة على الأقاليم في مناطق سوريا واليهودية، باهظة جدا ومبالغ فيها، إلى درجة أن تلك الأقاليم أرسلت بشكاوى إلى قيصر روما. بدت الحقائق واضحة لمن يستطيع أن يرى، إذ كانت الضرائب تجمع من الفقراء الذين يزدادون فقرا، وتعطى إلى الأغنياء الذين يزدادون غني. وهكذا عانت جموع الشعب من الفقراء، من أصول عربية أو يونانية أو يهودية، من العِوَز والفاقة والمرض. كانت عبودية أفراد الشعب من الفقراء، في مواجهة رجال وجنود الامبراطورية الرومانية الظلمة المتعسّفين، ملمحا واضحا من ملامح المجتمع الذي ولد فيه يسوع المسيح. كانت الأناجيل الأربعة قد وصفت بالتفصيل بعض هذه الملامح.

كانت الجموع التي أحاطت بيسوع المسيح في مناسبات عديدة، في تلك المجتمعات التي ساد فيها الظلم الاجتماعي والفقر وتعسّف الأحكام، كانت غالبا غير قادرة على شراء الطعام، ولا حتى شراء الخبز وحده فقط لا غير. كان المرضى بشتّى أنواع الأمراض، والى جوارهم المصابون بكل أنواع العاهات، مثل الصمّ والبكم والعميان وأولئك الذين يتعكّزون على سيقان خشبية، يجوبون طول الوقت الطرقات، ثم يجلسون على حواف الطرقات يشحذون، أو يبحثون عمّن يمكنه أن يقدّم لهم أي نوع من العلاج أو الدواء، وكانت أمراض مثل الصرع أو شلل طرف أو شلل عدّة أطراف، أو الكساح أو لين العظام، أو البَرَص، منتشرة بنسب تبلغ أضعاف النسب الحالية في أفقر المجتمعات الإنسانية. حدث هذا التحسّن الحالي في صحّة الناس بفضل التقدّم العلمي.

كان الفقر والبؤس يجعلان الناس يتخلّون عن أقاربهم المرضى بأمراض لا علاج لها، فينقلونهم من حجرات المنازل إلى قارعة الطريق، حيث يتركونهم تحت رحمة غيرهم من أفراد المجتمع الذين قد يكونون أقل فقرا، أو أكثر رحمة، أو يتركونهم تحت رحمة عناصر الطبيعة مثل الجو البارد أو الصواعق التي قد تقتلهم فتنهي عذابهم. كان العَرَض الأكثر انتشارا بين هذه الطبقات الفقيرة، هو أن يصل المريض إلى حالة من نوام أو سبات الموت، فهو في حالة من الغيبوبة المستمرة التي لم يعد أهله قادرين على إخراجه منها، بسبب المرض مع

انعدام الدواء وانعدام الغذاء [انجيل متى الاصحاح التاسع العدد ٢٤].

كل أولئك كانوا قدر استطاعتهم، يقذفون بأجسادهم على يسوع المسيح، عند اقترابه منهم، لمجرّد محاولة لمسه، على أمل أن تشفيهم تلك اللمسة. كان مشلول اليد قد ألحّ عليه في الطلب، أن يشفي يده لأنه كان يعمل في حقل البناء، والآن أولاده لا يجدون ما يأكلونه [انجيل الناصرة الذي منعته الكنيسة في روما لكن ذكره القديس جيروم في كتاباته]. والعميان كانوا يتبعونه قائلين (ارحمنا وترأّف بنا يا يسوع ابن داوود). وكان الأبرص يأتي ليركع أمامه معترضا طريقه حتى ولو ليلمس مجرّد ثيابه. وكان يسوع ترتبك عواطفه تجاههم، رغم تعاطفه التام مع عذاباتهم. لم يكن يميّز بينهم فيفضّل اليهود مثلا على غيرهم. لم يكن ينظر أبدا إلى أصولهم العرقية أو إلى طبقاتهم الاجتماعية. فكان يمدّ يديه اليهم جميعا حتى لو كانوا مصابين بأمراض معدية.

من العجيب أن مجموعة المزامير التي تخصّ الملك سليمان، وهي أقل شهرة بكثير من تلك التي تخصّ الملك داوود، وتعود كلاهما إلى القرن العاشر قبل الميلاد، تذكر معاناة الفقراء، لكن بشكل عارض وبارد أي بلا مشاعر، وهي الطريقة التي اعتادت عليها الكتابات التوراتية، التي لا تهتم إلا بمصير الشعب اليهودي، شعب الله المختار، على حساب مصائر بقيّة شعوب العالم، كأن بقية شعوب العالم هي من خلق ربّ آخر.

أما الآن ومنذ النصف الثاني من القرن الأخير قبل الميلاد، أي منذ الاحتلال الروماني، منذ سقطت مصر وماتت الملكة كليوباترا، وسقطت سوريا بموت آخر ملك حمل لقب أنطيوخوص، يعيش شعب المنطقة في بؤس شديد، إذ أسر الجنود الرومان على زمن أوكتافيوس قيصر، آلاف الأفراد من شعب المنطقة ما بين دولتي مصر وسوريا، ووضعت علامات العبودية على أعناقهم، ثمّ بيعوا في أسواق النخاسة.

كان الجنود الرومان يغتصبون الفتيات، ويبيعون الفتيان في أسواق النخاسة، ليحصلوا بأثمانهم على المال الذي يدفعونه للعاهرات. أما الفقراء والمرضى والعجزة، فكانوا لا يزالون يؤمنون بالعدالة الإلهية، فكانوا بالتالي يطلبون في صلواتهم من الربّ، أن يعطيهم القوّة على تحمّل تلك الأوقات الصعبة، أو يطلبون منه أن يتدخّل. كانوا يعتبرون الفقر اختبارا إلهيًّا، المقصود به هو اختبار قوّة ايمانهم، فإذا صمدوا أمام المعاناة، حقّت لهم فراديس النعيم والسعادة الأزلية. كان الشعب كله ينتظر بفروغ صبر حضور المخلّص الموعود به

في كتابات الأقدمين، ذلك الموعود كان من المفترض أن يكون من نسل داوود، وهو الذي سيتغلّب وحده على الحكومات التي لا تعرف تقوى الله، ويخلّص أورشليم بكلمة واحدة ينطقها فمه من الغزاة الذين دمّروها. كان هذا الحلم يتعلق فقط بالشعب اليهودي، أمّا غير اليهود فلم يكن لهم أي مكان في هذا الخلاص المخصّص فقط لشعب الله.

(٣)

بؤس الطبقة العاملة

كان يسوع المسيح خلال سنواتٍ ثلاث، يذهب إلى التبشير بديانته الجديدة، وهو ينتعل صندلا واحدا يمشي به عشرات الكيلومترات، ويرتدي ثوبا واحدا لأنه لا يملك ما يسمح له بشراء ثوب آخر، إذ لم يكن في جيب ثوبه أي نقود. ثم أنه كان يأكل مما يقدّمه له الناس، ولم يكن يحمل على ظهرة بقجة يضع بها الخبز الفائض عن حاجته، بل كان يأكل في كل مرة يقدّم له فيها الطعام، حتى يسكت صراخ الجوع، ثم يمتنع عن الأكل حتى الشبع، وبالتالي كان يترك ما تبقّى مما قدِّم له، إلى الآكلين الآخرين ممن يكونون قد تجمّعوا حوله. ذكرت بعض المصادر أن يسوع كان يظل أحيانا بلا طعام لمدة بضعة أيام، وأنه قد يمشي حافي القدمين، لأن صندله تمزّق ولم يجد من يقدّم له صندلا جديدا [انجيل متى اصحاح ١٠ العدد ٩ و١٠، إنجيل لوقا اصحاح ٩ العدد ٣، إنجيل مرقص اصحاح ٦ العدد ٨ و٩].

ولد يسوع في أسرة فقيرة، لم يكن لها دخل ثابت، ولم تكن لها أيّة أملاك، يمكن أن تدرّ دخلا، كالأرض الزراعية أو البيوت التي يمكن أن تؤجّر. لم تكن ليسوع مهنة ثابتة يحصل منها على دخل ثابت، كأن يكون نجّارا، مثل يوسف الذي تبنّاه عند مولده، كما ساد الاعتقاد طويلا. وكانت الجموع التي تحيط بيسوع، كلما ظهر في ساحات الأسواق، أو في أطراف الحقول، أو على ضفاف بحيرة طبرية، لا تحمل معها أي طعام، وتظل تنصت إلى كلماته ساعات طوال، حتى الوقت الذي يشعرون فيه بالجوع، فينفضّون من حوله ليذهبوا يبحثون عن طعام [انجيل مرقص اصحاح ٣ العدد ٢٠، والاصحاح ٨ العدد ٢].

كان يسوع المسيح في مثل تلك الحالات يرسل من بين تلاميذه صيّادي الأسماك، من يبحث للجموع عن أي طعام متاح، غالبا في شكل أسماك يصطادونها من مياه بحيرة طبرية، ثم إنه كان يعثر على بعض لقيمات من الخبز، يتمكن بقدراته المعجزية، أن يجعلها تتكاثر

وتتزايد، حتى تصبح كافية لغذاء خمسة آلاف شخص، مثلما حدث في معجزة معروفة باسم، معجزة إشباع الجموع بخمس خبزات وسمكتين. وكان يسوع يتعاطف مع هذه الجموع من الفقراء الجائعين المعوزين، لأنه هو نفسه كان فقيرا جائعا معوزا. كان يسوع يقول لهم (تعالوا اليّ يا جميع المتعَبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم) [انجيل متى الاصحاح ١١ العدد ٢٨]

من بين الأشياء الدالة على فقر يسوع المسيح، هي أنه لم يفكّر في الزواج، وهو الحال الذي يعاني منه كل الفقراء من الشباب، في منطقة الشرق الأوسط حتى عصرنا الحالي، حيث يحرمهم فقرهم من القدرة على الزواج، فيبقون على عزوبيّتهم. كانت هذه الظاهرة الاجتماعية شديدة الوضوح، في أغلب أقاليم الامبراطورية الرومانية في القرون الأولى من الميلاد. يذكر أحد الأناجيل المهجورة، وهو إنجيل القدّيس توما، المعثور عليه في نجع حمّادي، في الاصحاح ٤٩ العدد ٢، من طبعة سوريز Saurez، أن يسوع قد قال (طوبي لمن يعيشون وحدهم محتفظين بعزوبيتهم). ثم قال (الكثيرون يقفون أمام الأبواب، التي لا يدخل منها إلا الوحيدون).

كذلك مسألة السكن. لم يكن ليسوع المسيح أي مكان مستقرّ، يعود اليه ليقضي ليلته فيه، أو لينعزل عن العالم فيه، أو ليعتزل العالم فيه طلبا لبعض الراحة والسكينة، بل كان يقضي الليالي في بيوت من يقبلون أن يستضيفوه عندهم. كان عدم وجود مسكن دائم ليسوع، هو بسبب فقره، فحتى لو أنه كان بين وقتٍ وآخر، يمارس مهنة النجارة، فإن عائده منها كان قليلا جدا، بحيث لا يمكنه به أن يقتني منزلا، لا بالامتلاك، ولا حتى بالاستئجار. يقول يسوع المسيح في إنجيل متى الاصحاح الثامن العدد ٢٠ (للثعالب أوكار، ولطيور السماء أعشاش، أمّا ابن الإنسان، فليس له مكان يسند اليه رأسه).

كان يسوع أحيانا يبيت في منزل أحد تلاميذه، أو حتى في بيت أحد الخطاة بهدف دعوته إلى الصلاح، كما جاء في إنجيل لوقا الاصحاح ١٩، الأعداد من ٥ إلى ٧ (فلمّا وصل يسوع إلى هذا المكان، رفع رأسه ورأى زكّا وقال له: انزل لأنه لا بدّ أن أقيم اليوم في بيتك، فلمّا رأى الجميع ذلك، تذمّروا قائلين: قد دخل ليبيت عند رجل خاطىء، فقال لهم يسوع: اليوم قد تمّ خلاص أهل هذا البيت).

الفصل الرابع
الحياة الدينيّة

(١)

المعابد والكهنة

إن الرأي التقليدي السائد، الذي يميل إلى تبسيط الأشياء، يدعونا إلى الاعتقاد بأن كل سكّان فلسطين، على زمن يسوع المسيح، كانوا من اليهود، وأن الحياة الدينية تدور حول محور واحد هو معبد الملك سليمان في أورشليم. إلا أن البحث العلمي قد أثبت لنا، أن هذه المنطقة في هذا الوقت كانت كوزموبوليتانية بامتياز، يعيش فيها مصريون وعرب وسوريون وفينيقيون (لبنانيون)، في حالة اندماج شبه تام مع وجود جزر قليلة منعزلة من الأقليات اليونانية واليهودية. كان اليونانيون (الاغريق) هم السادة السابقون للبلاد، لذلك كانوا يشعرون بقدر من التميّز، الذي حافظ لهم عليه المحتل الروماني، أما اليهود فكانوا يشعرون بأنهم أقدم من أقام في هذه المنطقة من العالم.

هذا التنوّع السكاني أدّى إلى ظهور تعدّدية عقائدية، ووجود عدد كبير من المعابد المخصّصة لممارسات طقوس المعتقدات المختلفة، وعدد أكبر من الأماكن المقدّسة، في المدن الكبيرة وفوق المرتفعات الجبلية، وفي العاصمة أورشليم. فلنضرب بعض الأمثلة. ففيما يتعلّق بالمعتقدات الرومانية في ذلك الوقت، التي كانت ذات طابع وثني واضح، إذ تدور كلها حول عبادة شخص الامبراطور الروماني نفسه، ففي فلسطين في ذلك الوقت من القرن الأول للميلاد، كان يوجد عدد كبير من نوعية المعابد المخصّصة لهذه العبادات. كان هيرودس الكبير المشهور بكونه صاحب أكبر عدد من الانجازات المعمارية في عصره، قد

أقام عددا من المعابد المخصّصة لعبادة القياصرة المتتالين.

أهم هذه المعابد كان معبد مدينة قيصرية، المرتفع فوق تلّ، في مواجهة ميناء المدينة البحري، يرتفع أمامه تمثال هائل الحجم للمعبود قيصر، حتى يتمكن الناس القادمون إلى المدينة من البحر، من مشاهدة التمثال على بعد مسافة كبيرة. لم يكن تمثال قيصر هذا يقل حجما عن تمثال زيوس كبير آلهة الاغريق، الذي كان قائما على قمة جبل الأوليمب في اليونان، وكان يعتبر احدى عجائب العالم القديم السبع [كتابات المؤرّخ يوسيفوس، وكذلك كتاب جوزيف رينجل Ringel عن الاكتشافات الأثرية في قيصرية بفلسطين، والمطبوع في باريس سنة ١٩٧٥].

يأتي بعده في الأهمية المعبد المقام في مدينة السامرة، والذي كان عند اكتشافه لا يزال يحيط به سوره، بحث ان كل ما كان يوجد داخل هذا السور كان يعتبر مقدّسا [كتاب جورج أندرو رايزنر Reisner عن حفائر جامعة هارفارد في فلسطين، والمطبوع سنة ١٩١٠]. هناك كذلك معبد مدينة بانياس الواقع عند منابع نهر الأردن. ثم بعد هيرودس جاء بيلاطوس (المشهور بلقب البونطي Pontius)، الذي حكم المنطقة بين عام ٢٦ وعام ٣٦ ميلادية، وأقام معبدا لعبادة الامبراطور تيبريوس قيصر، بالقرب من مسرح مدينة قيصرية.

كانت العبادة الرسمية في الدولة هي عبادة الامبراطور، يمارسها في تلك المعابد النبلاء والمستفيدون منهم، أما العبادة التي كانت تمارسها الكتلة الشعبية الجماهيرية، فهي عبادة ايسة/ ايست/ إيزيس، التي انتقلت من مصر إلى فلسطين، بل إلى كل دول حوض البحر المتوسّط، بعد أن كانت قد ذاعت شهرتها، بفضل انتقال العناصر الحضارية والمعمارية والدينية المصرية، من مصر إلى جميع أنحاء الأرض مع الاسكندر الأكبر، في نهايات القرن الرابع قبل الميلاد، ثم مع خلفائه البطالمة والسلوقيين والأنطيوخيين، خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد.

كان الاسكندر قد جاء إلى مصر خلال العام ٣٣٣/ ٣٣٢ قبل الميلاد، وأسّس مدينة الاسكندرية، ثم ذهب إلى الأقصر لزيارة معبد آمون هناك، حيث ترك مقصورة ومائدة قرابين تحمل اسمه، ثم ذهب إلى واحة سيوة، حيث تم الاعتراف به ابنا لآمون في معبده هناك، ومنذ تلك اللحظة حمل الاسكندر على رأسه التاج الذي كان قد وضعه كهنة آمون على رأسه، وهو التاج الذي يتكون من قرنين ينتميان غالبا إلى الكبش، الذي كان رمزا لآمون بصفته فخّاريا

خالقا للبشر، على العجلة التي يستعملها الفخرانية بشكل يدوي في صنع الأواني. انتقلت عبادة ثالوث إيزيس/ أوزوريس/ حورس، من مصر إلى كل البلاد التي فتحها الاسكندر، خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، بين ٣٣٣ ق م و٣٢٣ ق م، فلسطين والشام والعراق وفارس وأفغانستان، وصولا إلى الهند.

لكن كما فعل الاغريق في كل شيء، فقد حوّلوا أوزوريس إلى شكل جديد، فبدلا من شكله البشري المعروف في المعابد المصرية، حيث يرسم وينقش وينحت في شكل رجل واقف، وجسمه كله ملفوف بشريط كتّاني، بذراعين متقاطعين فوق صدره، وهو ما يعرف في علوم المصريات بالشكل الموميائي mummy form، ويمثّل الكفن الذي تمّت إحاطة جثمان أوزوريس به بعد تحنيطه. في الحضارة الهيلينستية تمّ تصويره في صورة أوزيرابيس، والاسم الجديد يتكوّن من شقّين، الأول منهما هو اسم أوزير المعروف، والثاني هو اسم آبيس، الذي كان الإله القومي المصري منذ الأسرة السادسة والعشرين، وحتى نهاية عصر الأسرات بنهاية الأسرة الثلاثين، ويظهر في المعابد المصرية في شكل عجل قوي البنيان، متين العضلات، ويرمز إلى القوّة الجسمانية والخصوبة الجنسية.

كانت بعض المعابد والهياكل المقدّسة قد خصّصت لعبادة أوسيرابيس، في كل مدن فلسطين الكبيرة، وكانت هذه المعابد والهياكل قد أنشئت على زمن الحكام الاغريق، إلا أن هذه المعابد ظهرت كذلك في المدن الجديدة التي أنشأها الرومان، في العاصمة الادارية الجديدة (قيصرية)، التي حاول بها الرومان منافسة سلطة العاصمة القديمة لفلسطين (أورشليم)، وفي السامرة، وفي أورشليم نفسها [كتاب رايزنر]. كانت هذه المعابد إذن منتشرة في كل المدن التي تحرّك فيها وفيما بينها يسوع المسيح، في السنوات الثلاث التي دامت خلالها بعثته، السنوات التي استمر فيها تبشيره، بين عامه الثلاثين وعامه الثالث والثلاثين.

ولذلك فإن معبد الملك سليمان في أورشليم، الذي كان قد تمّ تجديده وترميمه وتوسعته في زمن هيرودس الكبير، أصبح معبدا تمارس فيه عبادات مختلفة متعدّدة، نظرا لاتساعه الشاسع، ولتقبّل السلطات المدنية للتعدّدية الدينية، ويا للعجب. فكان فيه بالتالي إلى جوار الهيكل المخصّص لعبادة قيصر روما الامبراطور، والهيكل المخصّص لعبادة إله اليهود يهوه، هيكلا مخصّصا لعبادة أحد آلهة الكنعانيين الكبار، الذي لم تكن له هياكل عديدة في

هذا الزمن في فلسطين، ألا وهو الإله المسمّى (العليَ)، ومعنى الاسم هو الأعلى مقاما بين كل الآلهة [كتاب رينجل].

هي كما تلاحظون، كلمة تحمل نفس المعنى في اللغة العربية، إذ تعتبر اللغتان الكنعانية والعربية، من نفس الأصول العائلية الساميّة، هما والمصرية القديمة والعبرية. يجب إذن هنا أن نذكر هذه الحقيقة المعروفة لعلماء اللغات، وهي أن الكثير من الكلمات تحمل نفس المعنى ونفس الطابع الصوتي في اللغات السامية المختلفة السابق ذكرها، ولا يكون الاختلاف بينها إلا فقط في طريقة كتابتها بحروف مختلفة في اللغات المختلفة. إلا أن اللغة العربية لم تظهر في صورة كتابية، قريبة الشبه من صورتها الحالية التي نعرفها عليها إلا في منتصف القرن الثالث الميلادي.

(٢)

الكهنة المصريّون

كان لكل طقوس عبادة كهنة يتخصّصون فيها، ويتبعون هيكل آلهتها، ولذلك كانت فلسطين ممتلئة عن آخرها بكهنة مختلفي المذاهب متعدّدي الديانات، ما بين رومانيين ومصريين ويهود، وعلى سبيل المثال فإن كهنة طقوس عبادة الامبراطور أوغسطس قيصر، وهي العبادة التي كانت منتشرة في روما، ولها العديد من المعابد في ايطاليا، كانت لها أفرع في فلسطين، وكان كهنتها يسمّون الكهنة الأوغسطيون. وهي المعلومات التي حصلنا عليها من النصوص التي تسمّى نصوص مدينة قيصرية [موجودة في كتابات المؤرّخ اليوناني تاسيتوس، خاصة في كتابه المعنون الحوليّات].

كانت لعبادة إيزيس وأوزوريس هي الأخرى كهنتها الذين يختصّون بها، وكانوا في أغلبيتهم المطلقة من المصريين، حتى لو أنهم كانوا يعملون في المعابد البطلمية الهيلينستية خارج حدود مصر، وحتى لو أن الإله كان يحمل اسم وملامح الإله أوسيرابيس، بدلا من أن يحمل اسم وملامح الإله أوزوريس. كانت اللغة المستعملة في هذه الطقوس والعبادات، هي اللغة المصرية القديمة (المشهورة بالكتابة بالخط الهيروغليفي)، حتى لو كانت في معابد إيزيس في أوروبا [كتاب والتر أوتو المعنون كهنة ومعابد الحضارة المصرية القديمة في العالم الهيلينستي الصادر في روما سنة ١٩٧١].

كانت طبقة الكهنة المصريين، تمثّل تراتبية وظيفية هرمية، يأتي على رأسها الكاهن الأكبر، الذي تقع تحت سلطته طبقة ممن يسمّون أنبياء المعبد، الذين تأتي بعدهم طبقة ممن يسمّون الكهنة والكتبة، حتى نصل في نهاية السلم الوظيفي إلى طبقة المرنّمين المقدّسين، الذين يتولّون مهمّة إنشاد الألحان الدينية، ومعهم طبقة حاملي الهياكل المتنقّلة pastophoros، الذين يدورون داخل ممرات وأروقة المعبد، وهم يحملون الهياكل الخشبية أو الحجرية المتنقّلة لآلهة المعبد. لم تكن وظائف الكهنوت وراثية، بل إن فرصة أن تصبح كاهنا كانت متاحة لكل أفراد الشعب بشرط انجاز الحد الأدنى من المعارف الدينية الضرورية، والخضوع للاختبارات والنجاح فيها. كما لم يكن من المحتّم على الكهنة أن يتزوّجوا من بنات غيرهم من الكهنة [كتاب المؤرّخ اللاتيني أبوليه Apulee المعنون مسخ الكائنات Metamorphoses].

في ذلك الوقت كان الكاهن الأكبر لأي من هذه المعابد المصرية، خلافا لما كانت عليه الأحوال في مصر قبل أكثر من ألف عام، وقت ازدهار الحضارة المصرية في الدولة الحديثة، يضرب المثل لبقية كهنة المعبد بدرجاتهم المختلفة، في التقشّف والزهد في الحياة، والاستغناء عن مظاهر الثراء، بحيث يكون قدوةً لهم، فيأكل جميعهم باقتصاد وزهد. في الحقيقة أنهم لم يكن لديهم الاختيار، فإن الموارد المالية للمعابد المصرية في فلسطين في ذلك الوقت، كانت قد انخفضت جدا عن سابق الأحوال، حتى أن كبير الكهنة لم يكن يحصل من عمله ذلك إلا على مرتب لا يتعدّى نصف أوبول (وحدة نقد صغيرة في اليونان القديمة) في العام، بالاضافة إلى بعض الهدايا التي توزّعها السلطات المحلية على الكهنة في مناسبات الأعياد، في شكل كميّات متفاوتة الحجم عاما بعد عام، من القمح وزيت الطعام [الجزء الثاني من كتاب كهنة المعابد المصرية للمؤلف والتر أوتو الصادر في سنة ١٩٧١].

وهكذا كان على الكهنة المصريين الذين يعيشون في فلسطين تحت الاحتلال الروماني، أن يبحثوا لأنفسهم عن مصادر رزق مختلفة، تتناسب مع إمكانيات كلٍ منهم، حتى يحصلوا لأنفسهم ولعائلاتهم على الحدّ الأدنى من الدخل الذي يسمح باستمرار الحياة. لكن في الحقيقة كانت السلطات الرومانية تعاونهم قدر استطاعتها، وذلك بتعيينهم في بعض الوظائف الادارية، لأنهم في أغلب الأحوال كانوا يجيدون قراءة وكتابة أكثر من لغة، من بينها بلا شك اللغة اليونانية القديمة، التي كانت اللغة المصرية القديمة تكتب بحروفها منذ الغزو الاغريقي لمصر قبل أربعة قرون. أما عدا ذلك كنت تجد من بينهم من يستطيع ممارسة

مهن الطب أو المحاماة، إلا أن الأغلبية المطلقة من صغار الكهنة كانوا يعملون في الحرف اليدوية مثل فلاحة الأرض.

المؤرّخ ترتيليانوس هو أوّل مؤلف لاتيني يعتنق المسيحية، ويعزى اليه الفضل في اشتقاق أغلب المصطلحات المسيحية التي اشتقّت من أصول لاتينية، وهو مولود سنة ١٥٥ ميلادية ومتوفّى سنة ٢٢٠ ميلادية. نجد في كتاباته قرب نهاية حياته بعض الفقرات، التي يقرّظ فيها أخلاقيّات وسلوكيّات الكهنة المصريين، الذين كان قد بدأ في مقارنتهم بالكهنة المسيحيين في زمنه، أي في أوائل القرن الثالث الميلادي، الذين كانوا رغم فترات الاضطهاد العديدة، تحت الاحتلال الروماني الوثني، يبحثون عن المجد الشخصي ومتع الحياة. يقول لهم (ستحمرّ وجوهكم خجلا من جشعكم ومن تكالبكم على الحياة، إذا أدركتم كيف كانت بساطة وتواضع حياة أسلافكم في المعابد المصرية في فلسطين قبل مئتي عام) [كتاب تاريخ العبادات المصرية خارج مصر للمؤلّف جورج لافاي الصادر في باريس سنة ١٨٨٤].

(٣)

الصدّوقيّون والفرّيسيّون

إن الأقلية اليهودية التي كانت تسكن بشكل خاص في إقليم اليهودية، وهو المسمّى الذي كان يطلق على أورشليم وضواحيها والريف المحيط بها، كانت تسكن هذا الاقليم وكأنها محبوسة فيه، مما يعطي الانطباع بأن اليهود كانوا يخافون أن يخرجوا عن حدود هذه المنطقة، التي يتواجدون فيها بكثافة عالية. كان لدى اليهود هم أيضا معابدهم وكهنتهم، وكان أولئك الكهنة إمّا صدّوقيّين أو فرّيسيّين. اللقب صدّوقي مشتق من اسم صادوق، الذي كان كبيرا للكهنة على زمن الملك داوود، في القرن العاشر قبل الميلاد، وعندما مات النبي والملك داوود حوالي سنة ٩٢٠ ق م، ساند صادوق الملك سليمان، ابن الملك داوود ووريثه على العرش، مما يدلّ على ذكائه السياسي، وبالتالي استمر في شغل منصب كبير الكهنة في زمن الملك سليمان. وقد حمل كبار كهنة المعابد اليهودية هذا اللقب طوال عشرة قرون، حتى لو لم تكن لهم صلات قرابة بصادوق القرن العاشر قبل الميلاد.

كان الكهنة الصدّوقيون على عكس الكهنة المصريين، يشكّلون طبقة مغلقة، أو فئة خاصة جدا، لا يمكن اطلاقا الدخول فيها، وذلك عبر عدّة قواعد حافظوا عليها، وهي أولا

أن يرث الابن وظيفة أبيه ورتبته في الكهنوت الصدّوقي، بعد وفاة الأب، وبعد أن يكون الابن خلال حياة الأب، قد حصل على القدر اللازم من المعرفة بالمعتقدات والطقوس اللازمة للممارسات الدينية. ثانيا كان على الرجال من كهنة الصدّوقيين أن يتزوّجوا من بنات الكهنة الآخرين، حتى لا يدخل رجال غرباء داخل هذه الفئة المغلقة على نفسها [هذه المعلومات موجودة بشكل متفرّق في بعض أسفار التوراة مثل السفر الثاني للنبي صموئيل والسفر الأول من أسفار الملوك وسفر النبي حزقيال].

ثم تلى ذلك في مرحلة لاحقة على العودة من السبي البابلي، الذي دام حوالي ثلاثة قرون، بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد، أن اخترعت سلسلة أنساب (شجرات أنساب عائلية)، لتدعيم موقفهم من غيرهم من الكهنة المنافسين، ولتأكيد شرعيّة حصولهم على الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها، شجرة عائلية تربط بين الكاهن (صادوق) في القرن العاشر قبل الميلاد، وبالتالي بين صدّوقيي القرن الثالث قبل الميلاد، وبين نبي الله (موسى) في القرن الثالث عشر ق م، وذلك عن طريق اختراع رباط نسب يربط (صادوق) مع (بنحاس) ابن (أليعازر) ابن (هارون) شقيق النبي (موسى) [السفر الأول من أخبار الأيام/ اصحاح ٦/ العدد من ٥٠ إلى ٥٣].

يميل علماء التاريخ والآثار في الوقت الحالي إلى اعتبار، أن (يوسف) ابن (يعقوب) وكلاهما من أنبياء الله، كان قد جاء إلى مصر في منتصف القرن ١٨ ق م، وأن أخوته قد جاؤوا بعد ذلك، وأن الشعب اليهودي قد ظل في مصر حوالي خمسة قرون، وبالتالي يكون موسى وهارون قد عاشا في مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأن خروج بني اسرائيل من مصر، كان قد وقع حوالي ١٢٢٠ ق م، غالبا على زمن الملك المصري (مرنبتاح)، ابن ووريث عرش الملك المصري (رمسيس الثاني). [الدليل على ذلك موجود في المتحف المصري بالقاهرة، حيث يوجد بالطابق الأرضي، ما يعرف باسم لوحة انتصارات مرنبتاح على أعدائه من شعوب البحر والشعوب الأخرى القادمة من الشرق ومن الغرب، وحيث يرد لأول مرة في التاريخ، اسم بني اسرائيل في قائمة أعداء مصر الذين انتصر عليهم مرنبتاح].

حوالي سنة ٢٠٠ ق م، كانت أوضاع الصدّوقيين قد استقرّت في أورشليم، ومنهم كان يأتي دائما الكاهن الأكبر للطقس اليهودي في معبد الملك سليمان. بعد حوالي ثلاثة قرون من السيطرة على أهم المناصب الدينية في المدينة، أصبح الصدّوقيون خلال القرن

الأول للميلاد، يمثّلون الأرستقراطية اليهودية، التي تعيش في أفضل أحياء المدينة المحيطة بالمعبد. ثمّ إنهم على عكس الكهنة المصريين الذين كانوا يعيشون في زهد وتقشّف، كان الصدّوقيّون يهتمّون بمظاهر الثراء ورغد العيش، وكما هو متوقّع في مثل تلك الأحوال لم يكونوا يكتفون بزوجة واحدة، بل إنهم مارسوا تعدّد الزوجات، التي لم تكن هناك نصوص توراتية تحرّمه، ثم إنهم بالاضافة إلى الزوجات كانوا يمتلكون الإماء اللائي كن يخضعن لكل أشكال الاستغلال الجنسي [كتاب وصيّة لاوي/ الفصل رقم ١٤/ الأعداد من ٥ إلى ٨].

كان الصدّوقيّون يبدون اهتماما أكبر بنصوص التوراة التي تحافظ لهم على امتيازاتهم وتميّزهم على غيرهم، وعلى مكتسابتهم المعنوية والمادية التي نجحوا في انجازها والاحتفاظ بها عبر قرون، وبالتالي كانوا يفضّلون أسفار التوراة مثل الجزئين الأول والثاني من أخبار ملوك اسرائيل، وكذلك الجزئين الأول والثاني من أخبار الأيام، ويكرهون الأسفار المكتوبة على لسان أنبياء التوراة، مثل أسفار عزرا ونحميا وأشعياء وإرميا وحزقيال، لأن أنبياء التوراة كانوا كثيري الانتقاد لجشع كهنة المعبد.

كان الصدّوقيّون كذلك يكرهون أيّ محاولات للتجديد في المعتقدات أو في الطقوس، لأن أي محاولة للتجديد قد تضرّ بمصالحهم المستقرّة. كان الشعب اليهودي يتّهمهم بالغرور والتعالي. وقد وصلت درجة كره الشعب اليهودي لهم إلى اتهامهم باحتقار كلمات الربّ يهوه، التي قالها على لسان أنبيائه، في الأسفار التي تحمل أسماء هؤلاء الأنبياء. وقد ذكر المؤرّخ يوسيفوس في الجزء الثامن من كتابه عن العالم القديم، ما يؤكد على أن الشعب اليهودي كان يرى في الكهنة الصدّوقيين الكثير من النفاق وعدم الأمانة، رغم أنهم يتظاهرون بأنهم شرفاء محترمون إلا أنهم يدّعون الرحمة، ثم يدينون الخطاة رغم أنهم يعيشون في الفساد من أخمص أقدامهم حتى قمم رؤوسهم.

ومن أعجب الأشياء التي يذكرها يوسيفوس، هي أنه عندما كان الشعب قد بدأ في تذكير الصدّوقيين بالآخرة وبالثواب والعقاب، كان الصدّوقيّون يردّون بأن الأرواح لا حياة لها بعد الموت. كانوا قد بدأوا يجدون الحلّ لمتناقضاتهم تلك، في الإدّعاء بأنه لا وجود لحياة أخرى، وأن الأرواح تفنى مع أجسادها، وأنه لاقيامة بعد الموت، وبالتالي لا حساب بعد القيامة، لأنه ليست هناك قيامة من الأموات، وبالتالي ليس هناك ثواب وعقاب. إن السعادة

هي في هذا العالم، ومن لا يحصل على السعادة في هذا العالم، لن يحصل عليها في مكان آخر، لأنه ليس هناك مكان آخر [يمكن العثور على هذه المعلومات فيما يسمّى تلمود بابل، كما أن سفر أعمال الرسل كان قد أشار اليها في اصحاح ٤ العددين ١ و٢، وهما العددان اللذان ينصّان على أن الصدوقيين، كانوا يريدون القاء القبض على تلاميذ المسيح الذين كانوا يؤكدون للناس، أن القيامة من الأموات هي حقيقة].

كانت الجبهة المعارضة للصدّوقيّين هي جبهة الفرّيسيّين. هذه الكلمة (فرّيسي) هي من أصول آرامية وعربية وتعني المفروز، أو المنفصل، أو الموضوع جانبا. وكانت تلك التسمية قد أطلقت عليهم من قبل معارضيهم ومنافسيهم الصدّوقيون، بشكل كان يوحي بالسخرية والمقصود به الاهانة. في الحقيقة كان الفرّيسيون يعيشون فعلا في عزلة، ليس فقط عن غيرهم من اليهود بل أيضا كذلك عن العرب والاغريق [كتاب الفيلسوف المصري أوريجانوس المطبوع في لايبزيج سنة ١٩٣٣]. يشهد القرن الثاني قبل الميلاد، ظهور طبقة من الداعمين للفرّيسيّين، وهم طبقة الحاسيديم hasidim، وهو اسم كان يطلق على كل من يلتزم حرفيّا بنصوص التوراة، ويقاوم كل السلطات الحاكمة، مهما كانت اتجاهاتها السياسية.

وِفقا لكتابات المؤرّخ يوسيبوس، وصل عدد الفرّيسيين وداعميهم في بدايات القرن الأول للميلاد، على زمن هيرودوس الكبير، إلى ما لا يقلّ عن ستّة آلاف شخص، كانوا يعيشون كلهم معا في أورشليم، وهم من أطلق عليهم لقب خاباريم khabarim، أي المتحدّين. لكن قد يكون هذا الرقم مبالغا فيه بعض الشيء، على عادة يوسيبوس، خاصة إذا علمنا أنه هو نفسه كان يعتبر واحدا من الفرّيسيين. أمّا الخاباريم التقليديون فقد كانوا يرفضون أي اختلاط بكل من هو غير خاباريم، ليس فقط من العرب والاغريق، بل كذلك من اليهود، إذ كانوا يعتبرون أن الآخرين هم كتلة بشرية غير نقيّة، وغير قابلة حتى للّمس untouchables. كانوا فيما بينهم يراعون كل وصايا التطّهر والتطهير وفقا للمقاييس اللاويّة levitic. كانوا يقولون إنهم هم وحدهم فقط شعب الله المختار، وأن باقي شعوب الأرض هم لا شيء. لم يكونوا يقبلون أن يدعوا إلى بيوت غير الخاباريم، ولا أن يدعوهم هم إلى بيوتهم. حتى كان من الممنوع على الخاباريم، تهنئة غير الخاباريم بأعيادهم.

الفصل الخامس
العبادات

(١)

عبادة إيزيس في فلسطين

كانت عبادة إيزيس تسود العالم الروماني، من مصر إلى سوريا إلى آسيا الوسطى، ومنها في الاتجاه إلى روسيا، وكذلك عبر حوض البحر المتوسط إلى شمال أفريقيا، ومنها إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا. كانت كل تلك المجتمعات في القرن الأول للميلاد، رغم الجنسيّات المختلفة، والتاريخ المختلف، مجتمعات تسود فيها الطبقية، وينقسم فيها الناس إلى سادة وعبيد، كان البؤس والشقاء يجعل البشر يعانون دون نهاية، وكان هذا هو السبب الرئيسي في انتشار عبادة إيزيس التي كانت تحارب الظلم الاجتماعي، وتقدّم للناس فرص الخلاص نفسها، بصرف النظر عن كونهم سادة أو عبيدا. فإذا كانت القوّة العسكرية قد مكّنت روما من السيطرة الاقتصادية على أغنياء العالم، فإن القوّة الروحيّة والدينية قد مكّنت مصر من السيطرة على قلوب وعقول فقراء العالم.

كانت معابد إيزيس المنتشرة في كل دول العالم القديم، تجمع داخلها بين عبادة الأم ايست/ إيزيس، وعبادة الالهين الآخرين في نفس الثالوث، وهما الأب أوزير/ أوسيرابيس والابن حور/ حورس. لكن كان يحدث أحيانا أن يخصّص المعبد، لعبادة إله واحد فقط من هذه الآلهة الثلاثة [كتاب ميتامورفوز Metamorphose أو مسخ الأشكال/ لأبوليه Apule].

وقد أكّدت الاكتشافات الأثرية في أرض الشام، الأرض التي عاش فيها ومشى عليها يسوع المسيح، في فلسطين وسوريا ولبنان، انتشار هذه العبادات فيها، بدليل حجم المعثور

عليه هناك، من التماثيل والتمائم والأواني الفخّارية والمصابيح الزجاجية والتوابيت الخشبية والحجرية، التي نقشت عليها أو زخرفت فوقها بالبارز أو بالغائر، الأشكال المختلفة لهذه الآلهة [كتاب الآثار المصرية خارج حدود مصر الجغرافية/ ليدن/ ١٩٧٥].

كانت إيزيس تتشكل في قوالب مختلفة في البلاد المختلفة، فهي تقرب في الشبه من العديد من آلهات الحضارات المختلفة المجاورة لمصر، وقد كانت الأسماء المتعدّدة لإيزيس، تذكر فيما كان يعرف باسم الترنيمات الأربع لايزيدورا [كتاب ترنيمات ايزيدورا/ للمؤلفة فردريكا فاندرليب/ تورنتو/ ١٩٧٢]، وبالمناسبة فإن اسم ايزيدورا يعني حرفيا عطيّة إيزيس، أي تلك التي أعطتها إيزيس، وهي الترنيمات التي نفهم منها كيف كان عبدة الآلهات المختلفات، مثل فينوس أو أفروديت أو ديانا أو مينرفا، أو باختصار كل الآلهات الاناث في حضارات القرون الأخيرة قبل الميلاد، والأولى بعد الميلاد، يرون في آلهتهنّ ملامح من إيزيس المصرية. هذا حدث في حضارات الشرق الأدنى القديم، مثل حضارات فلسطين وسوريا ولبنان والعراق، وكذلك في حضارات أوروبا في اليونان وايطاليا، وفي بعض البلاد الأفريقية مثل اثيوبيا.

هذا هو كذلك الموضوع الرئيسي الذي يعالجه أبوليه Apule في كتابه تغيّر الأشكال، أو ميتامورفوزيس، حيث يتحدّث عن الآلهة، الذين يعاودون الظهور في حضارات تجاور تلك التي كانوا قد ظهروا فيها في بداياتهم المبكّرة، فمسألة عودة الظهور بأسماء جديدة، وبأشكال تختلف قليلا عن الشكل الأصلي، لم تكن مقتصرة على إيزيس، بل كانت هذه الظاهرة تشمل آلهة آخرين مثل أوزير وحورس وجحوتي وغيرهم. فجحوتي (تحوت) مثلا إله الكتابة عند المصريين القدماء، ظهر في الحضارة الاغريقية باسم هيرميس، وكان يشغل نفس الوظيفة المتعلّقة بكتابة الرسائل، إذ كان هو حامل الرسائل. من الغريب كذلك ملاحظة أن بعض الألقاب، التي كانت قد أطلقت أولا على إيزيس، ستعود إلى الظهور مرات تالية، عندما تستخدم في وصف العذراء مريم، مثل لقب (والدة الاله) ولقب (أم النور) ولقب (ملكة السماء).

كانت إيزيس تعبد في أماكن كثيرة في فلسطين، بوصفها أقرب البلاد المجاورة لمصر. فلو تأمّلنا مناطق السهل الساحلي، لشرق حوض البحر المتوسط، لوجدنا الكثير من المعابد والآثار الخاصة بإيزيس، في مدن مثل غزّة ورفح وعسقلون. وردت هذه المعلومات في برديّة

تعود إلى عصر الأسرة المصرية السادسة والعشرين التي تعرف باسم (العصر الصاوي)، لأن عاصمة مصر في تلك الأسرة كانت في الموقع الحالي لبلدة (صا الحجر) الحالية، التي تقع في شمال غرب دلتا النيل.

تعرف البردية باسم بردية أوكسيرينكوس Oxyrhynchus، [درسها ونشرها كل من برنار جرينفيل وآرثر هانت/ في لندن/ سنة ١٩١٥]. أوكسيرينكوس هو الاسم الذي كان يطلق في ذلك الوقت، على المدينة التي ستعرف فيما بعد باسم (البهنسا)، التي ستصبح مركزا حضاريا هاما في العصرين القبطي والاسلامي، بسبب وقوعها على مدخل طريق القوافل بين وادي النيل والواحات البحرية. كانت قد لجأت إلى السكن في أوكسيرينكوس بعض القبائل الآرامية، هربا من فلسطين/ اسرائيل على زمن السبي البابلي، في القرن السادس قبل الميلاد، والبردية بالخط الآرامي [الموسوعة المصرية/ وزارة الثقافة المصرية/ طبعة ١٩٦٠/ صفحة ١٦١]. وسنستعرض فيما يلي أسماء بعض المدن الفلسطينية، التي تم العثور فيها على آثار تدلّ على عبادة إيزيس، أو على عبادة ثالوثها، الأب أوزير والأم إيزيس والابن حورس.

مدينة قيصريّة كانت هي المدينة التي أنشأها هيرودوس الكبير سنة ١٠ ق م، على أن تصبح العاصمة الجديدة لاقليم فلسطين، تحت الاحتلال الروماني، بدلا من العاصمة القديمة أورشليم. كان من المفترض في الأصل أن تسمّى ستراتو Strato، ألا أن هيرودوس غيّر الاسم إلى قيصرية Caesarea، (هذا هو الأصل اللغوي الذي نتج عنه تسمية الأسواق المغطّاة قيساريّة في كل مدن المنطقة). غيّر هيرودوس اسم المدينة حتى يخلّد ذكرى زيارة القيصر أوغسطس لفلسطين. كانت هذه المدينة تقع على البحر المتوسط، وأقيم لها ميناء/ مرفأ بحري، لتشجيع التجارة البحرية بينها وبين العالم القديم. وهي تقريبا في منتصف المسافة بين أورشليم في الجنوب الشرقي منها على بعد ٤٧ ميلا ، وعكّا في الشمال منها على بعد ٤٤ ميلا [قاموس الكتاب المقدّس/ دار الثقافة/ طبعة ١٩٩٩/ صفحة ٧٥٥].

في الموقع الحالي للمدينة القديمة، تم العثور على قطع من حجر اليشب، وهو من الأحجار الكريمة مختلفة الألوان، صوّر عليها الإله أوزير في شكله الجديد، المعروف في الحضارة البطلمية المصرية باسم أوزيرابيس، وهو رجل ذو ملامح يونانية وبلحية كثيفة وخمس خصلات شعر تتدلّى على الجبهة، والاسم المكتوب على قطعة الحجر الكريم هو

أوزيرابيس [طبعت الصور ونشرت في كتاب آثار وأيقونات سيرابيس/ ليدن/ ١٩٨٣]. يذكر تلمود بابليون، أن السكان المقيمين في منطقة سواحل فلسطين، من غير معتنقي الديانة اليهودية، كانوا ينهون كلامهم بالقَسَم باسم محبوبة روما، للتدليل على صدق كلامهم، وهم لا يقصدون إلا إيزيس.

الكتابات بشكل عام تدل على أن عبادة إيزيس وأوزير كانت منتشرة في هذه المدن الفلسطينية. ومن العبارات المتكررة على شواهد القبور أو على واجهات المقابر، يمكن أن نجد عبارة (لنتوسّل إلى الربّ أوزير أن يمنحك ماء الحياة الأخرى) [وهي عبارة ترد في نصوص الأهرامات بدءا من الدولة المصرية القديمة/ نسخة سبيليرز Speleers]، والعلاقة كانت قوية بين أوزير والماء، إذ إنه في مصر القديمة هو الذي يطّهر المتوّفى، بسكب الماء عليه، حتى يتمكن بعد تطهيره، من إجتياز عتبات العالم الآخر، في الذهاب والإياب [مقال عن القيصرية كميناء بحري/ دراسة في الكتابات العبرية واليونانية واللاتينية على المقابر/ في دورية الكتاب المقدّس/ عدد سنة ١٩٧١/ للمؤلف أفراهام نيجيف].

كما أن قطع النقود المعدنية التي عثر عليها في موقع الميناء البحري، حيث كان يكثر التعامل بالعملات المعدنية، تدلّ على أن أسماء إيزيس وأوزوريس وحورس، كانت ترد على وجه أو ظهر هذه العملات المعدنية، لرغبة المتعاملين، وكذلك رغبة من يسكّون النقود، في أن يصبح هذا النقد، في حماية أعظم آلهة العصر، الذين تعترف بهم كل حضارات المنطقة [كتاب البعثة المشتركة إلى ميناء قيصرية Joint expedition to Caesarea Maritima/ من تأليف جدعون فورستر/ طبعة مونتانا سكولرز].

(٢)

أوزوريس أم يَهْوَه؟

إن الفكر المصري القديم يترك أثره ليتردّد صداه في الديانة المسيحية. هناك أولا الاعتقاد في وجود الإله الواحد المتمثّل في أوزوريس الذي مات ثم عاد إلى الحياة ليصبح نموذجا يحتذيه المصري القديم، ثم هناك ثانيا الاعتقاد في وجود الثالوث المكوّن من الأب والأم والابن، أزوريس وإيزيس وحورس. إن النظريات الخاصة بطفولة يسوع المسيح التي تعتبره منتميا إلى الديانة اليهودية، ذلك قبل أن يبدأ التبشير بديانته الجديدة، تقوم في الديانتين

المسيحية واليهودية على أساس معتقدات دخلها الكثير من الحكايات المروية شفهيا في الثقافة الشعبية اليهودية.

كما أن شجرة العائلة التي تخصّ يسوع المسيح وتذكر أسماء أشخاص ينتمون إلى حوالي ستين جيلا ونجدها في بداية الأناجيل، بها الكثير من التلفيق والتأليف للوصول إلى تحقيق الهدف، وهو محاولة اثبات انتماء يسوع المسيح إلى عدد من أنبياء العهد القديم وصولا إلى سيّدنا آدم. هذه المحاولة التي قام بها كتبة الأناجيل كان الهدف الأساسي منها هو اقناع اليهود المتمسّكين بديانتهم القديمة بالتحوّل إلى الديانة الجديدة.

من جهة أخرى فإن كل المؤشّرات تشارك في تأكيد الصلات المباشرة بين التراث الديني المصري وممارسات الكهنة المصريين العلاجية من ناحية، وبين المعتقدات والعبادات المسيحية من ناحية أخرى، بما فيها بالطبع قدرات المسيح العلاجية التي كانت تشفي المرضى بأمراض مزمنة عجز غيره من الأطباء عن علاجها. الدلائل التي تثبت هذا الكلام كثيرة ومتعدّدة بين المكتشفات الأثرية في الأرض المصرية بالإضافة إلى نصوص من بعض الأناجيل نفسها.

أول ما نقابله في تاريخ الكنيسة مثلا في بدايات القرن الخامس الميلادي نجده في كتابات القدّيس جيروم، وهو أحد آباء الكنيسة الغربية المعاصرة، الذي لا ينزعج مطلقا من أن فكرة التثليث في العقيدة المسيحية (الآب والابن والروح القدس)، هي على غرار التثليث في العقائد المصرية القديمة (أزوريس وحورس وإيزيس)، ولكن على أن تحلّ الروح القدس محلّ العذراء مريم.

أتساءل لماذا ينزعج المسيحيون الآن من تلك الفكرة القائلة بأن المسيحية قد نشأت تحت رعاية ديانات مصر القديمة لا في حضن الديانة اليهودية. إن كلا من أوزريس ويهوة يشكّلان هويّة الهية لكن أقربهما إلى الفكر الإنساني والى الديانة العالمية هو أوزوريس وليس يهوة. إن أوزوريس هو على الأقل قد علّم المصريين زراعة الأرض أما يهوة فلم يعلّم اليهود إلا محاربة غيرهم من شعوب الأرض، كأنه قائد حربي ذو نعرة قومية شديدة التعصّب لشعبه المختار ضد غيرهم من شعوب الأرض، الذين هم أيضا من خليقة يهوة حسب المعتقدات اليهودية، إذ لم يخلق شعوب الأرض الأخرى التي لم تكن تدين بالديانة اليهودية آلهة أخرى غير يهوة.

(٣)

الألقاب الأوزيرية

إن اللقب الرئيسي الذي كان يحمله الكاهن الأعظم في مصر القديمة حتى نهاية الأسرة الثلاثين، وهي آخر أسرة مصرية حاكمة، هو لقب (حم نتر) وتعني (خادم الإله). أما منذ بداية العصر البطلمي الذي جاء بنهاية الأسرة الثلاثين، واحتلال مصر بواسطة أحد قادة الاسكندر الأكبر وهو بطلميوس الأول، فكانت طبقة كبار موظّفي الدولة وأشرافها، تأتي في درجة تالية أقل أهمية من درجة الكاهن الأعظم، وكانوا يحملون لقب (الأنبياء).

كانوا هم فقط المسموح لهم بكتابة الأسئلة التي يتوجّه بها أفراد الشعب إلى الإله، لا بصورة شفهية وإنما بكتابتها على الأوراق، وتوجيهها إلى الإله في قدس أقداسه، بتركها في صورتها الورقية هناك حيث يقيم الوحي الإلهي في المعابد المختلفة، وكانوا كذلك هم فقط المسموح لهم بتلقي الإجابات على تلك الأسئلة، أو بتفسير ردود الإله التي ترد اليهم في شكل علامات ورموز، ثم ينقلونها إلى بقية أفراد الشعب الذين كانوا يعتبرونها من تجليّات الأحكام الإلهية. أي أن هؤلاء الأنبياء (حسب تسميتهم باليونانية القديمة) كانوا يقومون بالوساطة بين الرب والشعب.

في المقابل كانت هذه الوظيفة المسمّاة (نبيّ) قد اختفت من المعابد اليهودية من قبل زمن يسوع المسيح. ولم تعد موجودة إلا في أسفار العهد القديم، في الأزمان التي لعب فيها الأنبياء دور الوسطاء بين الرب والشعب، عندما كانوا هم المسؤولون عن اعلان الإرادة الإلهية على الشعب، في حالة من الحالات الكثيرة التي كان الشعب يرغب فيها في معرفة رأي الرب في مسألة معينة من المسائل المطروحة للجدل. انطفأت روح النبوّة منذ زمن ملاخي (أحد أنبياء اليهود في العهد القديم). أمّا السفر الذي وضعه النبي دانيال في زمن لاحق، فقد تم اعتباره سفرا تأريخيا هدفه هو وصف مجمل سيرة حياة hagiography أحد أنبياء العهد القديم. أمّا في مصر فقد استمرّت هذه الوظيفة قائمة في كل المعابد المصرية حتى زمن متأخر جدا، إذ كان آخر ذِكر لممارسة وظيفة (الأنبياء) في مصر، في سنة ٣٤٧

ميلادية، في معبد الالهة إيزيس القائم على جزيرة فيلة Philae بمنطقة الشلال الأول إلى الجنوب من أسوان.

(٤)

يسوع في هيكل أوزوريس

لم تكن ليسوع زيارة واحدة لمصر، مع أمّه مريم وأبيه بالتبنّي يوسف، عندما كان طفلا صغيرا، بل إنه عاد اليها مرات عديدة، ليقيم فيها سنوات طويلة، خلال فترة الثلاثين عاما المجهولة من حياته، خاصة بين سن الثامنة عشرة وسن الثلاثين، عندما أقام في المساكن الملحقة بالمعابد المصرية، ليذهب كل صباح إلى المعبد، والى المدرسة الملحقة بالمعبد، ليتعلّم الديانة المصرية القديمة، وليتعلّم كذلك مبادئ علاج الأمراض، خاصة من نوع تلك المرتبطة بالحالات النفسية، أو بالاضطرابات العقلية. مما يدلّنا على ذلك أن يسوع عندما عاد إلى فلسطين وهو في سن الثلاثين، ليبدأ بعثته وكرازته وتبشيره، كان معروفا لدى العامة بلقب النبيّ، في الوقت الذي كان قد اختفى فيه الأنبياء من بني اسرائيل، منذ مئات السنوات، في حين كان كهنة المعابد المصرية لا يزالون يحملون هذا اللقب.

كان الاعتقاد الشائع لدى الشعب اليهودي المقيم في فلسطين، في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، وبداية القرن الأول من الميلاد، أنه قد حان أوان عودة أحد كبار أنبياء بني اسرائيل، في قامة موسى أو ايليّا، لانقاذ الشعب اليهودي، من الهوان الذي يعانيه، تحت نير الاحتلال الروماني [كتاب مسيحية العهد الجديد/ للمؤلف كولمان/ ١٩٥٧]. على وجه الخصوص عندما بدأ يسوع في ممارسة علاجاته المعجزية في شفاء أمراض مزمنة، مثل حالة عودة البصر إلى الشخص المولود أعمى، بدت الجموع واثقة من كون يسوع هو أحد الأنبياء العظام. يقول نص إنجيل متى في الاصحاح ٢١، العددين ٤٥ و٤٦ (أن رؤساء الكهنة اليهود، كانوا يريدون القاء القبض عليه، لأنه يثير الجموع، إلا أنهم امتنعوا عن فعل ذلك، لأنهم كانوا يعتبرونه نبيّا). كانوا يلقبّونه أحيانا بنبيّ الناصرة، مدينة مسقط رأسه.

ثم ساد الاعتقاد لدى طائفة كبيرة من الشعب اليهودي، أنه النبي إيليا. في إنجيل مرقص الاصحاح السادس العدد ١٤ يقول (سمع الملك هيرودوس عن يسوع، فقال لا شك أنه

يوحنّا المعمدان وقد قام من الأموات) وكان هيرودوس المشهور بنزواته الجنسية، قد أُعْجِبَ برقصة هيروديا، ابنة زوجته التي كان يدلّلها كثيرا، حتى أنه وعدها أمام جمع من ضيوفه بأنه سيهبها كل ما تطلب، وبعد أن استشارت هيروديا أمها، طلبت رأس يوحنا المعمدان، لأن يوحنا كان ينتقد الملك على علاقته بأم هيروديا، حيث إنه كان هناك قدر من الشك في مسألة زواجهما، فلم يجد هيرودوس بدّا من القبض عليه، ثم قَطَع رأسه، وحملها اليها على طبق، حتى ترضى عنه. ثم يأتي العدد ١٥ من نفس الإنجيل ليقول (وآخرون قالوا هذا ايليا، وغيرهم قالوا هذا نبيّ كباقي الأنبياء).

هناك نصّ في إنجيل يوحنا، يأتي في سياق بعد أن قام يسوع بمعجزة إطعام خمسة آلاف شخص، بخمس خبزات وسمكتين، في الاصحاح السادس والعددين ١٤ و١٥، يقول النصّ (فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع، قالوا: حقّا هذا هو النبيّ الآتي إلى العالم. وعلم يسوع أنهم على وشك أن يختطفوه ليقيموه ملكا، فعاد إلى الجبل وحده). إذ كانت هناك نبوءة توراتية، بعودة أحد أنبياء التوراة، لانقاذ الشعب اليهودي من الاحتلال الروماني. ويبدو أن كتبة الأناجيل قد حاولوا، لفت انتباه الشعب اليهودي، إلى إمكانية أن يكون يسوع هذا هو النبيّ المنتظر، هو المسيح المنتظر، وذلك لجعلهم يؤمنون بالمسيحية. وهو ما يمكننا تسميته بالاتّجاه إلى تهويد الأناجيل.

لكن في سياق آخر يأتي نصٌّ آخر، في سفر أعمال الرسل، الذي كتب في القرن الثاني الميلادي، الاصحاح الثاني الأعداد من ٢٢ إلى ٢٤، يقول على لسان بطرس (يا بني إسرائيل اسمعوا هذا الكلام، إن يسوع الناصري رجل أيّده الله بمعجزات كثيرة، أجراها على يده كما تعلمون. ومع ذلك فقد سمح الله وفقا لمشيئته، أن تقبضوا عليه وتصلبوه وتقتلوه. لكنّ الله أقامه من بين الأموات). لم يذكر بطرس هنا، أن يسوع هو النبيّ العائد من أنبياء التوراة العظام، أو أنه هو المسيح المنتظر، رغم أن هذا هو ما كان بطرس قد كرّره، أثناء حياة يسوع القصيرة على الأرض.

أمّا يسوع المسيح نفسه، فقد كان لديه الاحساس، بأنه نبيّ ينتظره نفس المصير المأساوي المحتوم لكل الأنبياء، فهو الذي قال في إنجيل متى الاصحاح ٢٣ العدد ٣٧، على لسان الربّ (يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين، كم مرّة أردت أن أجمع أولادك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، فلم تريدوا! ها إن بيتكم يترك لكم خرابا). وهو الذي

قال في إنجيل مرقص، الاصحاح السادس العدد ٤ (لا كرامة لنبيّ في وطنه). إذن فإن يسوع كان يعتبر نفسه نبيّا، لأنها الرتبة التي كان قد حصل عليها في مصر، بعد التعليم الذي كان قد حصّله في المعابد المصرية. لكنه لم يكن أحد أنبياء اليهود التوراتيين، الذي كان مقدّرا له أن يعود إلى الأرض. هذا بشهادة يسوع نفسه الذي قال في إنجيل متى، الاصحاح ١١ العدد ١٤ (إن شئتم أن تصدّقوا، فإن يوحنا المعمدان هذا، هو النبي إيليّا الذي كان رجوعه منتظرا).

بالاضافة إلى هذا فإن كل الأماكن التي مارس فيها يسوع معجزاته في فلسطين، كانت توجد بالقرب منها معابد مصرية، مخصّصة لثالوث إيزيس وأوزوريس وحورس، يكون في الغالب ملحقا بها، حمّامات يمارس فيها علاج الأمراض حسب الطريقة المصرية. وقد ذكر إنجيل يوحنا هذه الحقيقة، في الاصحاح الخامس الأعداد من ٥ إلى ٩ التي تقول (صعد يسوع إلى أورشليم في أحد الأعياد اليهودية، وكان بالقرب من باب الغنم في أورشليم بِرْكة اسمها بالعبرية بيت حسدا، حولها خمس قاعات لعلاج المرضى، يرقد فيها جَمْعٌ كبير من المرضى، من عميان وعرج ومشلولين، ينتظرون أن تتحرّك مياه البركة، لأن ملاكا كان يأتي من حين لآخر إلى البركة ويحرّك ماءها. فكان الذي ينزل أولا يشفى مهما كان مرضه).

بعد زمن المسيح لاحظ بعض المؤلفين أن هذه البِرْكة التي كانت تدور فيها معجزات شفائية، كانت تابعة لأحد المعابد غير اليهودية في أورشليم، والدليل على ذلك ورد في كل هذه الأناجيل، التي لاحظت أن معجزة الشفاء التي قام بها يسوع في ذلك اليوم، ما كان لها أن تحدث لو أن هذا العبد كان يهوديا، إذ إنه كان يوم سبت، وهو اليوم الذي تمنع فيه الحركة، وتمنع فيه زيارة المعابد في كل الطوائف اليهودية، وهذا دليل كاف على أن المعبد لم يكن يهوديا، وعلى أن يسوع لم يكن من أنبياء اليهود، الذين كانوا يلاحظون جميعا بدقّة شديدة، عدم القيام بأي شيء في أي يوم سبت [انجيل يوحنا الاصحاح ٥ العدد ٩].

الفصل السادس
الطقوس

(١)

معمودية نهر الأردن

إن حادثة معموديّة (أو تعميد) يسوع المسيح على يد يوحنا المعمدان (النبي يحيى) في مياه نهر الأردن، بمناسبة بلوغه سن الثلاثين، وبداية عمله التبشيري، وهي الحادثة الواردة في انجيلي متى ومرقص، المكتوبين بعد موت المسيح بوقت قصير، بين سنتي ٤٠ و٥٠ ميلادية، تبدو أحيانا موضع شك، لعدم ورودها رغم أهميتها ودلالتها، في الانجيلين الآخرين المعتمدين من كنيسة روما في القرن الخامس عشر، وهما انجيلا لوقا ويوحنا. مع ملاحظة أن هذين الانجيلين الأخيرين كانا قد كتبا في وقت لاحق، فلوقا مكتوب سنة ٧٠ ميلادية، ويوحنا مكتوب في نهاية القرن الأول، في حوالي سنة ١٠٠ من الميلاد.

ما السبب في سكوت الانجيلين الثالث والرابع عن إيراد حادثة وردت في الانجيلين الأول والثاني؟ في الحقيقة إن السبب هو الصراع، الذي كان دائرا بين أتباع يوحنا المعمدان من جهة، وبقية المسيحيين من أصول يهودية من جهة أخرى. وهو ما أدّى لاحقا بأتباع يوحنا المعمدان خلال القرن الثاني للميلاد، إلى إضافة حادثة التعميد إلى الانجيلين الأقدم، وهما الانجيلان اللذان لم نعثر لهما على مخطوطات أقدم من تلك المكتوبة في القرن الثاني للميلاد.

هذه الاختلافات بين الأناجيل الأربعة، فيما يتعلق بحادثة المعمودية، لم تكن إذن بسبب الخلاف حول أحداث تاريخية، بل كانت فقط بسبب الصراع الذي نشأ بين أتباع يوحنا

المعمدان من جهة، وبين بقية المسيحيين اليهود من جهة أخرى، عندما قال أتباع يوحنا إنه إذا كان يسوع المسيح قد قَبِلَ أن تكون معموديته على يد يوحنا، فهذا يعني بالنسبة اليهم أن يسوع المسيح كان يشعر بأن يوحنا أهم وأقوى منه، وبالتالي يكون يوحنا هو الأجدر بالرسالة السماوية.

هنا ردّ عليهم المسيحيون الآخرون بجملة أوردوها لاحقا في الأناجيل، مدّعين أن يوحنا كان قد قال أمام الجموع المحتشدة، إنه غير جدير حتى بأن (ينحني أمام يسوع ليحلّ له سيور حذائه). ثم لتأكيد كلامهم أضافوا إلى الأناجيل، بقية التفاصيل الخاصة بانشقاق السماء، وظهور الروح القدس في شكل حمامة، هبطت من السماء إلى رأس يسوع، بالإضافة إلى الصوت القادم من السماء قائلا (هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ).

أما في إنجيل العبرانيين، فتجد انكارا تاما لهذه لحادثة المسمّاة معمودية يسوع على يد يوحنا. وفي [انجيل مارسيون Marcion] المكتوب في القرن الثاني الميلادي، لا يأتي أي ذكر لهذه الحادثة. يقول النص (قالت مريم أم يسوع لابنها: يقولون إن المعمودية على يد يوحنا في مياه نهر الأردن، تغفر ما تقدّم من خطايا. فردّ عليها ابنها قائلا لها: عن أي خطايا تتحدّثين أيتها المرأة، وما هو السبب الذي سيجعلني أذهب إلى يوحنا في نهر الأردن ليغفر لي الربّ خطايا لم أرتكبها). لكل هذا التناقض بين المعطيات المختلفة المتعلّقة بهذه القصّة الخاصة بالمعمودية، أصبحت المسألة برمّتها مشكوكا فيها.

في الحقيقة هناك من الكتابات ما يشير، إلى إمكانية حصول يسوع المسيح على الخلاص من الخطايا بمعمودية الماء، ولكن في زمن مبكّر جدا من حياته، عندما كان لا يزال يعيش في مصر، لا في سنّ الثلاثين وهو يعيش في فلسطين. معمودية الماء هو طقس مارسه الكهنة المصريون منذ القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد [آلان جاردنر Alain Gardner معمودية الفرعون the Baptism of the Pharaoh]، على الفراعنة وعلى العائلات الملكية في الدولة القديمة، بغرض تخليصهم من خطاياهم برش الماء المقدّس عليهم، ثم امتدت هذه الممارسة لتشمل خلال أسرات الدولة الحديثة بالتدريج، كل طوائف الشعب المصري، من الكتبة والقضاة والفنّانين، وصولا في النهاية إلى العمّال والفلاحين خلال فترة حكم الأسرات في العصر المتأخر.

تحتفظ المعابد المصرية التي قد يصل عمر بعضها إلى ألفي عام قبل الميلاد، في

مجموعة معابد الكرنك مثلا، بحوائط كاملة تظهر عليها بالنقش الغائر أو البارز، مناظر معمودية فرعون مصر بالماء، حيث نرى الفرعون واقفا بين شخصين من الآلهة، غالبا هما الأخوان غير الشقيقين حورس برأس صقر وأنوبيس برأس ابن آوى، وأحيانا هما حورس وعمّه سيتوس برأس حمار ذي فم أسطواني يقال إنه لآكل النمل، أو حورس مع إله الحكمة جحوتي برأس طائر أبي منجل. هذان الالهان يمسك كل منهما بدورق ماء يسكب منه الماء المقدّس على جسد الفرعون الواقف في المنتصف بينهما.

في الواقع كان كهنة المعابد المصرية هم الذين يقومون بأداء طقس معمودية التطهير هذا المقدّس، وهم يرتدون ملابس الكهنة ولكن واضعين أقنعة على رؤوسهم للدلالة على الآلهة الذين كانوا يقومون بانتحال شخصيّاتها. كانت الألفاظ المصاحبة للطقس والمنطوقة من الكهنة تقول (فلتكن نقيّا أنت وقرينك، بصفتك المبجّلة كملك على البلاد، بقسميها وأرضيها مصر العليا ومصر السفلى، أنت يا من ستعيش مخلّدا إلى أبد الآبدين، آمين) [المرجع هو لوحة منقوشة على حجر جرانيتي للملك سيتوس الأول من الأسرة التاسعة عشرة في متحف مدينة بروكسل].

أمّا في المعابد المصرية من العصر اليوناني الروماني، أو في الأجزاء التي أضيفت خلال العصر اليوناني الروماني إلى المعابد المصرية القديمة التي كانت واستمرت قائمة من عصر نهاية الأسرات المصرية، إلى العصر اليوناني الروماني، وهو العصر الذي امتد ليشغل حوالي عشرة قرون، بين القرنين الرابع قبل الميلاد والسابع بعد الميلاد، فقد أصبحت هناك في كل معبد، مهما صغر حجمه، بحيرة مياه مقدّسة، تشغل في بعض المعابد مساحة شاسعة، مثلما هو الحال في البحيرات المقدّسة الباقية حتى الآن على حالها، في معبدي الكرنك ودندرة، أو تكون فقط في شكل بئر مياه مقدّسة كما هو الحال في معبدي كوم أومبو وكلابشة.

كان ذلك التغيير في أنظمة بناء المعابد يتفّق مع التطوّر الحادث في الديانة المصرية القديمة، التي أصبح طقس التطّهر فيها واجبا على كل فرد من المصلّين، قبيل أيّة صلاة، عدّة مرات في اليوم الواحد. حين كان على كل المصلّين أن يغسلوا أقدامهم وسيقانهم وأيديهم وأذرعهم ورؤوسهم وأعناقهم في مياه البحيرة المقدّسة. ومع ذلك فقد استمرّ كهنة المعابد في استعمال التطهّر بشكله القديم، عندما كانوا في نهاية المراسم الطقسية في وجود حشود

من البشر، يستمرّون في نثر الماء المقدّس على رؤوس الحشود، وهم يتنقّلون بين صفوف المؤمنين، بالشكل الذي يستمر في الحدوث كل أسبوع حتى يومنا الحالي، في كل الكنائس المصرية القبطية، في نهاية القدّاسات التي يحتشد لها المؤمنون.

في المعابد المخصّصة لعبادة إيزيس، كان المؤمن الجديد المتحوّل إلى عبادتها، يتلقى من كهنة معابد إيزيس، طقس المعمودية التي كانت تعني اعتماده مؤمنا جديدا، وكان هذا الطقس يستعمل فيه الماء بكثرة، حيث كان الماء رمزا للولادة الجديدة، التي ستفتح أمام المؤمن الطريق إلى تجديد الحياة، والى تجديد الطاقات الإيجابية في جسم المؤمن.

كان طقس المعمودية يمارس أولا بنثر الماء المقدّس على جسم المؤمن الجديد، أثناء تلاوة الصلوات الخاصة بالطقس، ثم يحدث عندما يبلغ الطقس أوجه، أن يغمر جسم المؤمن كله في حوض ممتلئ عن آخره بالماء المقدّس، وكان هذا الفعل الأخير دالا على موت الشخص القديم تحت الماء، ومولد الشخص الجديد في نفس لحظة الخروج من الماء. فيما بعد تحوّل الحوض الممتلئ بالماء، إلى بحيرة مقدّسة، يسير اليها المؤمن الجديد، محاطا بالكهنة وبأصدقائه من المؤمنين القدامى.

في متحف الآثار المصرية القديمة بميدان التحرير بالقاهرة، نجد شاهد قبر تمّ العثور عليه في موقع احدى مناطق الحفائر بالإسكندرية، يعتقد أنه يمكن تأريخه ببداية العصر البطلمي، أي حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، يمكننا أن نشاهد منقوشا عليه شكل الإله حورس طفلا في سن صغير، وقد تمّ تصويره واقفا على قدميه، عاريا في وضع المواجهة (en face)، أي ليس بالتصوير الجانبي (بروفيل profile) كما كان معتادا في التصوير الجداري لمصر القديمة، وقد وضحت فوق رأسه والى الجانب الأيمن من وجهه خصلة من شعره، وهي العلامة التي استعملها المصريون القدماء في فنون التصوير الجداري والنحت، للتعبير عن كون الطفل لا يزال في سن صغير.

بعد ثلاثة قرون، أي تقريبا في أوائل القرن الأول للميلاد، وبعد أن تكون عبادة إيزيس قد انتشرت في كل حوض البحر المتوسّط، بفضل الاحتلال الروماني لمصر، وبالتالي بفضل انتقال التأثيرات الحضارية المصرية إلى كل مدن العالم القديم، سيظهر نفس هذا الطفل الواقف عاريا، على شواهد القبور في منطقة مقابر مدينة بومبي الإيطالية، ولكنه بدلا من أن يحمل على الجانب الأيمن لوجهه، خصلة الشعر المصرية المتدلية من رأسه، سيكون شعر

رأسه كله، ممتلئا بالخصلات المجعدة، بالأسلوب المعهود للتصوير الجداري الروماني. [هذه القطعة من شواهد القبور موجودة الآن في متحف ليدن Leiden]. وعندما تستقر جالية رومانية كبيرة، خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، في إقليم الفيّوم حول بحيرة قارون، سيعود نفس هذا الطفل إلى الظهور، فوق شواهد القبور، في منطقة كانت تعرف باسم ثيا دلفيا Theadelphia، وستعرف لاحقا في مصر باسم بطن حريت.

(٢)

معمودية الكنيسة القبطية

احتفظ هذا الطقس الكنسي المسيحي، بكل ما كان يربطه بالطقس نفسه في المعابد المصرية القديمة، وكانت خطوات الممارسة في القرون الأول للمسيحية، تتبع نفس التقليد المصري القديم، ثم تغيّر الترتيب بالتدريج في بعض الكنائس البعيدة جغرافيا عن تأثير مصر القديمة. هذا الطقس كان يمارس بشكل دوري بواسطة المؤمنين المكرّسين للعبادة، كأطقم كهنة المعابد، أو الأشخاص الذين يُقبلون في مهنة الكهانة لأول مرة. كان المقصود من طقس المعمودية في مصر القديمة هو أن يتطهّر الإنسان من خطاياه.

أما في المسيحية فهذا الطقس لا يُمارس إلا مرة واحدة، على الأطفال الرضّع، لأن المعمودية في الايمان المسيحي هي ما يسمّيه الإنجيل (الولادة الثانية من الماء والروح)، وهي طقس تدشيني لانسان مسيحي لا يزال في مرحلة الطفولة البريئة. أمّا في زمن مجيء المسيح، وفي الأيّام الأولى من بعثته، كان هذا الطقس يمارس في مياه نهر الأردن، لكل من يريد غفران خطاياه، على يد النبي يحيى (الذي يسمّيه الإنجيل يوحنا المعمدان).

في مصر القديمة كانت الطقوس ترتّب على أيام متتالية، ففي أول يوم يحصل المؤمن المكرّس على حمّام تقليدي يغسل فيه جسمه كله، بشرط أن يكون صائما قبلها بليلة، ويظل صائما طوال نهار كامل، يتمّ فيه ممارسة طقس إخراج الأرواح الشريرة Exorcism، التي قد تكون داخل جسده في حالة سكون، أو في حالة تقمّص، ويتمّ هذا الطقس بوضع يدّ الكاهن الأكبر على جسد المكرّس، وتلاوة بعض الصلوات.

بعد ذلك يقوم المكرّس بالاعتراف أمام الكاهن بخطاياه، أو بكل ما يمكن للشخص المكرّس أن يعتبره خطايا وذنوبا من المفترض أن يطلب لها الغفران من الاله. وقد انتقل طقس الاعتراف هذا بالكامل إلى الكنيسة. يشترط كذلك أن يكون المكرّس مرتديا أقل قدر من الملابس، بحيث لا يكون هناك على جسمه أي ما يمكن له تلويث هذا الجسد.

يتمّ غمر المكرّس ثلاث مرّات متتاليات في الماء المقدّس، ثم يقوم الكاهن بنطق بعض العبارات التي يقصد بها لعن الشيطان، ويقوم المكرّس بتكرارها وراءه. يضمّخ بعد ذلك المكرّس بالأطياب والدهون الزيتية، ويرتدي ملابس جديدة نقيّة. انتقل طقس الغمر في الماء ثلاث مرات إلى الكنيسة المسيحية، التي تقول إن المرّات الثلاث، هي إشارة إلى الأيّام الثلاثة التي أمضاها يسوع في القبر، قبل أن يقوم من بين الأموات. وبالتالي فإن غمر الجسم داخل الماء هو رمز للموت، ثم الخروج بالجسم من الماء هو رمز للعودة إلى الحياة.

أمّا في مصر القديمة فإن المرات الثلاث كانت تشير إلى ثالوث أوزير إله البعث هو وزوجته إيزيس وابنه حورس. ثم يتناول المكرّس من الوجبة التي كانت تتكوّن في العادة من الخبز غير المتخمّر (البتاو) وعصير الشعير غير المتخمّر. طقس التناول من الخبز والنبيذ غير المتخمّر (عصير الكروم) هو الآخر انتقل إلى الكنيسة المسيحية [كتاب قوانين هيبوليت/ the canons of Hippolyte/ القانون رقم ١٩ من الجزء رقم ٣١/ طبعة سنة ١٩٦٦].

في كتاب المفكّر أبوليه Apule المعروف باسم تناسخ الأشكال أو ميتا مورفوز Metamrphose، في الجزء رقم ١١ الفصل ٢٣، يصف لنا عملية المعمودية في معبد مصري قديم، مخصّص لعبادة إيزيس، ويضيف الينا بعض المعلومات الجديدة، مثل أن الغوص في الماء هو ذهاب إلى آلهة (العالم الآخر) أو (العالم السفلي)، حتى أنه استخدم عبارة (مثل الذهاب إلى الجحيم)، أو أن يقول المكرّس (هأنذا الآن أقترب من عالم الموتى، هأنذا نفسي قد أصبح ميّتا، لأني قد أتخطّى عتبة العالم السفلي)، وهي كلها عبارات استعملها كتاب الموتى في مصر القديمة، قبل ألف وخمسمائة عام من الميلاد.

يضيف أبوليه أن الخروج من الماء هو العودة إلى آلهة عالمنا الأرضي، وأن طقس استخراج الأرواح الشريرة، كان يجريه أكبر كهنة المعبد على المكرّس، بحيث يكونان في أقصى أطراف المعبد توغّلا داخله، قد يكون ذلك في حجرة إلى جوار قدس أقداس المعبد، وبعيدا عن الحركة الدائرة في صالات وأروقة المعبد. إلا أن أبوليه يذكر، أن عدد المرّات

التي ينزل فيها المكرّس تحت الماء، ثم يخرج فيها من الماء، هي سبع مرات وليس ثلاثا [كتاب ملوك وآلهة مصر/ للمؤلف موريه Moret/ باريس/ ١٩١١].

ثم هناك رسم جداري في مدافن كاليست Calliste بروما، تمّ تأريخه بنهاية القرن الثاني للميلاد، يظهر فيه الطفل يسوع، واقفا في مجرى مائي، عاريا تماما وفي وضعية المواجهة، مثلما كانت هي العادة في تصوير الطفل حورس، ويقف إلى جواره رجل يرتدي ما يدلّ على أنه كاهن مصري، إذ إنه يرتدي العباءة التي تكشف جزءا من الصدر، وتغطّي أحد الكتفين، وتتوقّف أعلى الركبتين، ثم إنه يحمل على وجهه ملامح مصرية، مثل البشرة الداكنة، والشعر الأجعد الكثيف، والذقن الحليق، وهو ما يجعلنا نفكّر في الصور الشخصية لسكّان الفيوم Fayoum portraits، في القرنين الثاني والثالث الميلاديين. ثم يمدّ المعمِّد ذراعه ليضع يده على رأس الطفل بقطرات الماء.

كانت الفيّوم هي المكان الذي تجمّعت فيه طوائف عديدة من الرومان، كان من بينهم من عملوا في الزراعة، أو في الحرف اليدوية والفنية مثل صناعة الفخّار وزخرفته، أو فن تصوير أوجه الموتى على ألواح خشبية، تضاف إلى التوابيت عند الدفن، وفقا للاعتقاد في أن الروح عند عودتها، لن تتمكن من التعرف على جسد صاحبها، إلا اذا وجدت صورة وجهه إلى جوار تابوته. انتقل هؤلاء الرومان بين مصر وروما، فانتقلت إلى روما بعض الأشكال الفنية المصرية.

كان عدد الرومان الاجمالي في الفيّوم حوالي ربع مليون نسمة، حين كانت مصر واحدة من أهم وأغنى الولايات في الامبراطورية الرومانية، بحيث تمّ اعتبار الفيّوم في ذلك الوقت، أكبر تجمّع للرومان في مصر خلال تلك الفترة، بعد مدينة الاسكندرية، التي كان يوجد بها ما قد يصل إلى ٤٠٠ ألف نسمة من الرومان [لوكليرك/ قاموس الآثار المسيحية/ ١٩٠٧، كذلك كتاب الفن الباليو كريستيان paleochristian/ أي ما قبل المسيحي/ بيار دو بورجيه/ ١٩٧١].

كما أن هناك تابوتًا حجريًّا آخر في متحف مدينة تيرم Thermes، من القرن الثالث الميلادي، وهي القطعة التي تحمل رقم ٢٣٨٩٣ في أرشيف المتحف، ثم وردت في كتاب لأندريه جرابار صدر في باريس سنة ١٩٦٦. تزخر جوانب التابوت بالزخارف البارزة التي تصوّر معمودية الطفل يسوع. يظهر الطفل كما لو كان هو النموذج الأوّلي المنمّط

stereotype لهاربوقراط Harpocrate، أي لحورس (حور/ هور/ هار Har) مضافا اليه التفاصيل اليونانية الرومانية التقليدية، فهو طفل سمين بشعر أجعد بخصلات ملتوية، ملامحه أوروبية، يقف عاريا تماما بوضعية المواجهة en face، في حوض استحمام يصل فيه الماء إلى مستوى ركبتيه.

يقف إلى جواره خارج الحوض، رجل قريب الشبه من سيرابيس، أي الصورة الرومانية للاله أوزيريس، وهو رجل متقدّم في السن بلحية كثيفة وشارب كثيف، بالاضافة إلى الخمس خصلات شعر الملتوية التقليدية على الجبهة، يرتدي الرداء اليوناني المعروف باسم هيماتيون، الذي يصل فيه الثوب إلى مستوى القدمين، مغطيا الجسم كله. اليد اليمنى للرجل تسكب الماء على رأس الطفل. قد لا نرى في مثل هذا المنظر في بعض الأحيان، إلا اليد اليمنى وقد وضعت دون ماء على رأس الطفل.

كانت تلك النماذج المشار اليها أعلاه، من بين النماذج النادرة، إذ إنه حتى بداية القرن الرابع للميلاد، كانت أغلبية سكان الامبراطورية الرومانية، لا تزال على وثنيّتها، وبالتالي لم يبدأ المنظر الذي صوّرته الأناجيل لمعمودية يسوع في الظهور، على اللوحات الجدارية أو على التوابيت، إلا بعد تحوّل الأغلبية السكّانية إلى الديانة المسيحية، بعد أن تحوّل الامبراطور قسطنطين بنفسه اليها سنة ٣٢٥ ميلادية، وبشكل أكثر وضوحا بعد أن فرضها الامبراطور ثيودوسيوس ديانة رسمية للدولة بعد ٣٩٥ ميلادية.

المنظر الذي صوّرته الأناجيل هو لرجلين متقاربين في السن، تقريبا سن الثلاثين، وكذلك هما يتقاربان في الحجم، أحدهما هو يسوع المسيح، والآخر هو يوحنّا المعمدان. ثم يظهر الروح القدس على شكل حمامة تنزل من السماء لتقف على رأس يسوع، ويأتي صوت من السماء قائلا (هذا هو ابني الحبيبي الذي به سررت).

من المعروف كذلك في تاريخ الديانة اليهودية، أن الطقس الذي مورس خلال قرون طويلة للدلالة على العهد بين يهوه والإنسان، هو طقس الختان الذي مورس فقط على الذكور من بني اسرائيل، وهي العلامة التي طلب يهوه من موسى أن يمارسها كل ذكر يهودي، ليستدل بها يهوه على أن هذا الإنسان هو يهودي، كأن يهوه وهو في المعتقد اليهودي يعتبر خالق الكون، لن يعرف حقيقة انتماء الإنسان إلا بعلامة خارجية ظاهرة على جسده، كأن يهوه غير قادر على الاطّلاع على نفوس البشر الذين خلقهم. هذا هو ما قاله أنبياء اليهود للشعب

اليهودي، منذ موسى حتى القرون الأولى للميلاد.

كأن الشعب اليهودي هو الشعب الوحيد الذي كان يمارس هذا الطقس. رغم أن التاريخ يقول لنا الآن أن طقس الختان مورس على الذكور من المصريين، ومن غيرهم من شعوب المنطقة، قرونا طويلة قبل ظهور الديانة اليهودية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وأن الختان لم يكن مقتصرا على اليهود. إلا أن الطقس الذي أضيف فعلا إلى الممارسات الدينية اليهودية، هو طقس التطهّر بالغمر في الماء، الذي لم يظهر في الطقوس اليهودية، إلا بعد أن كان قد انتقل اليها من المسيحية، التي كان قد انتقل اليها في دورها من الممارسات الطقسية المصرية القديمة.

وقد ظلّ الجدل حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، بين حاخامات الشعب اليهودي، حول أهمية وجدوى التطهّر بالماء، الذي لم يكن يمارس بالغمر في الماء، بل بمجرّد رش الماء ثلاث مرات على الرأس. وهو ما يقودنا حتما إلى الاعتقاد في أن طقس التطهّر الذي مارسه يوحنا المعمدان، في مياه نهر الأردن، في العام الثلاثين من عمر يسوع المسيح، لم يكن آتيا من الديانة اليهودية، بل كان آتيا من تأثّر الممارسات الدينية في فلسطين، بتلك التي كان يمارسها الشعب المصري، الذي كان أفراده قد بدأوا في الهجرة من مصر إلى البلاد المحيطة بها، منذ بداية عصر الانحدار المصري في العصر المتأخّر، الذي يبدأ في زمن الأسرة الثانية والعشرين. هناك أيضا اشارات إلى ما كان يسمّى التطهّر حسب طقس قُمران [كتاب من هو يسوع الناصري؟/ للألماني جونتر بورنكام/ باريس/ ١٩٧٣].

(٣)

العشاء الأخير

كان التقليد الشائع في مصر القديمة، أن يطلق على المتوفّى لقب أوزير، أي أن كلمة (أوزير) في مصر القديمة أصبحت مرادفة لكلمة (متوفّى)، وهو ما سيسمح لهذا المتوفّى – حسب معتقداتهم – أن يصبح عائدا إلى الحياة، مثلما حدث مع أوزير وعاد إلى الحياة. هكذا أصبح العيد السنوي الكبير في الديانة المصرية القديمة، هو الاحتفال بموت وبعث أوزير عيدا لكل الموتى، وهو الطقس الذي يحدث في خلاله، أن يقتسم الجميع تناول أجزاء من جسد أوزير، في شكل قطع من الخبز غير المتخمّر، تكون مصبوبة في قوالب على شكل

أجزاء من جسم البشر، كالقلب واليد والرأس.

هذه هي نفس الفكرة وراء أن يتحوّل الربّ إلى انسان، بكل صفات البشر الجسدية، ثم يقبض عليه ويجلد ويعذّب ويُصلب ويموت، ثم يدفن في بطن الأرض، لكنه في اليوم الثالث يتغلب على الموت ويقوم من بين الأموات، حتى يصبح كل البشر الفانين هم أيضا – بتوحّدهم مع يسوع – قادرون على التغلب على الموت. والسر الحقيقي في القدرة على التوحّد مع يسوع، هو أن يتناول كل مسيحي من جسد ودمّ يسوع المسيح، في الطقس الكنسي المعروف باسم (سر التناول).

كان يسوع المسيح قد أطلع تلاميذه الاثني عشر على ضرورة ممارسة هذا الطقس، خلال عشائه الأخير معهم، قبيل أن يقبض عليه في فجر يوم الجمعة الحزينة. هذا هو الدليل القاطع على أن المسيحية قد امتدّت بجذورها في الحضارة المصرية القديمة، إذ إن هذه الفكرة – اقتسام جسد ودمّ الربّ – لم ترد على الاطلاق في أية نصوص توراتية [مقال لأشرف اسكندر صادق/ بعنوان ديانة مصر القديمة أعدّت الطريق للمسيحية/ في العدد التاسع من مجلّة العالم القبطي/ الصادر سنة ١٩٨٠].

من بين الأفكار المؤسّسة للديانة المصرية، فكرة انفصال الروح عن الجسد في لحظة الموت، فقد عرفت مصر القديمة وجود الروح، وكانوا يسمّونها القرين أو ال (كا)، أما الجسد الفاني الذي يحمل صفات الإنسان الجسدية، من طول وعرض ولون بشرة، فكانوا يسمونه ال (با). عند الموت تنفصل ال (كا) عن الجسد، الذي يذهب هو إلى الدفن في باطن الأرض. أدرك المصريون أن الجسد قابل للفناء، وأن الروح خالدة إلى الأبد، لكن هذا لم يمنعهم من محاولة العثور على حلّ، للإبقاء على الأجساد صالحة لإعادة الاستعمال أطول فترة ممكنة، حتى تتمكن الأجساد من البقاء في حالة قابلة للتمييز، عند عودة أرواحها اليها، بعد أن تكون قد تمّت محاسبة الأرواح أمام قضاة العالم الآخر، فتتمكن الروح من العودة إلى الأرض، لتردّ الحياة إلى المتوفّى، بعد أن تدخل نفس الجسد الذي شغلته سابقا، خلال الحياة الأرضية لهذا الجسد.

هناك قطعة شقافة (معروفة بالانجليزية بكلمة ostraca)، موجودة حاليا في المتحف المصري بالقاهرة، وهي من زمن الأسرة الثامنة عشرة، عثر عليها في وادي الملوك، منقوش عليها النص التالي، [الذي تم نشره في كتاب ترنيمات وصلوات من مصر القديمة/ للمؤلفين

باروك ودوما/ سنة ١٩٨٠] وهو النصّ الذي يعبّر عن ترنيمة تتلى أمام أوزير، تقول (أنت الأب والأم لكل كائن بشري/ كل البشر يعيشون من أنفاسك المقدّسة/ ويقتاتون على لحم جسدك). ومن المعروف عبر كتابات الرحّالة الاغريق والرومان، أنه بعد مثل هذه الطقوس والصلوات، القريبة الشبه جدا من طقس التناول من الأسرار المقدّسة في الكنيسة، كان كهنة مصر القديمة، مع أفراد من شعب المعبد، يتناولون معا وجبات طعام حقيقية، تتكوّن غالبا من اللحم والخبز، ومن شراب يكون غالبا من نبيذ البلح.

في الحقيقة كانت مثل هذه الوجبات المقدّسة تتفاوت في محتواها الغذائي، وفقا للحالة الاقتصادية لمن يقدّمون الأضاحي، ففي حالة الأغنياء الذين يضحّون بثيران أو عجول، كانت الوجبات تشتمل على مقادير كبيرة من اللحوم، ويمكننا أن نرى في أغلب مناظر التقدمات على جدران مقابر الأثرياء، الرسومات السطحية أو النقوش البارزة أو الغائرة، التي تصوّر الصفوف المتتالية من الخدم الذين يحملون على أكتافهم أفخاذ الثيران والعجول. أما الفقراء فكانوا يكتفون في وجباتهم المقدّسة في المعابد، بعد طقوس تكريس جسد الرب أوزيريس، بتناول أقراص الكعك أو الخبز المستدير (القربان)، مع شراب متخمّر مثل الجعة، وهي البيرة المصنوعة من الشعير المتخمّر. أما يسوع المسيح فقد اكتفى في عشائه الأخير مع تلاميذه، بالخبز والنبيذ غير المتخمّر.

بصرف النظر عن حقيقة اليوم الذي وقعت فيه أحداث العشاء الأخير، أو حقيقة عدد المشاركين فيه، وإن كانوا قد جلسوا حول مائدة أو جلسوا مفترشين أرض الحجرة، فالمهم في موضوعنا هو قدرتنا على عقد مقارنات بين هذا العشاء الأخير، وبين كلٍ من الفصح المصري الأوزيري والفصح الموسوي اليهودي. كان أهم طقس من طقوس الفصح الموسوي اليهودي، هو تقديم رأس ذبيحة حيوانية إلى الربّ يهوه، قربانا إلى الربّ يهوه، في مناسبة خلاص شعب اسرائيل بخروجه من مصر أرض العبودية.

كانت هناك طقوس أخرى، مثل طقس أخذ دمّ الذبائح ووضعه على عتبات المنازل، للتبرّك به وللوقاية من العين الحاسدة. هذا الطقس الأخير كان مقصودا به، الردّ على السؤال (لماذا؟)، الذي كانت تطرحه على كهنة اسرائيل، كل الأجيال الجديدة من يهود صحراء التيه في سيناء، ثم الأجيال الجديدة من يهود سنوات الاستقرار النسبي في أرض كنعان، تلك الأجيال التي لم تعرف الحياة التي عاشها اليهود في مصر، الردّ عليهم بأن وضع دمّ الذبائح

على عتبات البيوت، كان طقسا مورس لأول مرة في مصر، عندما انتوى يهوه الانتقام من المصريين بقتل أبكار بيوتهم، فكان اليهود قد وضعوا هذا الدمّ على أبواب بيوتهم، علامة حتى يتركها الربّ يهوه في سلام، دون أن يؤذي قاطنيها، أثناء مروره على البيوت كلها بيتا بيتا [سفر الخروج/ الإصحاح الثاني عشر/ الأعداد من ١ إلى ١٤ ثم الأعداد من ٢١ إلى ٢٧].

إن الأناجيل الثلاثة المتشابهة إلى حد بعيد في مضمونها synoptic، وهي لكل من متى ومرقص ولوقا، لم تذكر أبدا في أي موضع متعلّق بالعشاء الأخير، أن يسوع المسيح وفقا للعادة اليهودية، قد قدّم في تلك الليلة قربانا إلى الربّ يهوه، في شكل نعجة صغيرة مذبوحة، يلطّخ بدمها عتب باب المنزل، كما كانت هي العادة لدى يهود اسرائيل في ذلك الوقت. حتى القدّيس الانجيلي الرابع يوحنا، وهو الذي كان يختلف في مضمون إنجيله إلى حدٍ ما عن الثلاثة الآخرين، لم يذكر فيما يتعلّق بالعشاء الأخير، السابق بيوم على الاحتفال بعيد الفصح ذلك العام في ١٣ أبريل/ نيسان، أي شيء يتعلّق بوجبة استثنائية، بل هو مجرّد عشاء عادي مثل كل تلك الوجبات التي أكلها التلاميذ مع يسوع [مقال لجوزيف تابوري/ في مجلة عمّانوئيل Immannuel/ العدد ١٢ لسنة ١٩٨١/ صفحة ٣٢].

لكن هناك قطعة شقافة صغيرة من الفخّار ostracon، تعود زمنيا إلى العصر القبطي، عثر عليها في مصر، تقول إنه وفقا لانجيل متى، كان يسوع قد قدّم في مناسبة العشاء الأخير، فرخا صغيرا من الطيور، ولطّخ بدمه عتبة الباب [Hennecke /fragment copt/ / في كتاب أبوكريفا العهد الجديد أي الأسفار غير القانونية للعهد الجديد/ الصادر سنة ١٩٥٩]. إذ يبدو أن كل المؤلفين المسيحيين خلال القرن الأول للميلاد، أو على الأقل أغلبهم، بالاضافة إلى غالبية من عملوا في استنساخ النصوص الدينية، حاولوا قدر استطاعتهم، تصوير العشاء الأخير بين المسيح وتلاميذه، كما لو كان صورة ولو مصغّرة، من الاحتفال بالفصح، على الطريقة اليهودية، في محاولة شبه يائسة لجذب انتباه يهود ذلك الزمان، إلى أن الديانة المسيحية ما هي إلا مجرّد امتداد للديانة اليهودية.

كان من بين ما توصّلت اليه مصر القديمة مبكّرا جدا في تاريخ البشرية، فكرة أن الإنسان يتكوّن من جزء مادي فاني هم ال(با)، وجزء آخر غير مادي لا يفنى هو ال(كا)، وأن بمولد الإنسان تأتي اليه ال(كا) الأزلية الأبدية من روح الاله، لتسكن جسده الفاني طوال حياته، منذ مولده حتى مماته، ثم تغادر جسده عند مماته لتعود إلى الاتحاد بالاله. ال(كا) هي قوّة

الهية مقدّسة، تكون غالبا حافزا على فعل الخير في حياة الإنسان الأرضية القصيرة، وقد استعمل علم المصريّات للدلالة عليها كلمة (القرين) في اللغة العربية، أما في الفرنسية مثلا فالكلمة هي (البديل). وقد انتقلت هذه الفكرة إلى التراث الشعبي المصري، وتعبّر عنها كلمة (القرين)، وهو الكيان الروحي الذي لا يفارقك أبدا طوال حياتك، بل يظلّ لصيقا بك دون أن تراه. إلا أن بعض الطبقات الشعبية تعتقد أنه يمكن التعبير عن هذا الكيان كذلك بعبارة (الجن الذي يؤاخيك). أما في المسيحية فإن هذه الفكرة قد عبّر عنها التراث الكتابي والشفاهي معا، عبر قرون طويلة بعبارة (الملاك الحارس).

أمّا مسألة الاتحاد مع الربّ، عن طريق قوّة خاصة تنتقل منه إلى الإنسان، خلال الطقوس الكنسية المقدّسة، فالتعبير المسيحي عن هذه المسألة هو (التناول من الأسرار المقدّسة)، وهو التعبير الذي تستعمل له في الفرنسية والانجليزية الكلمة نفسها وهي communion وتعني الاتحاد سويّا (الإنسان والربّ)، وهو نفس المعنى الذي يستعمل له المسيحيّون أيضا عبارة (التناول من جسد ودمّ يسوع المسيح)، وهو الطقس الكنسي الذي مارسه يسوع المسيح مع تلاميذه، للمرة الأولى والأخيرة، خلال عشائه الأخير معهم، ليلة القبض عليه (خميس العهد)، وسجنه وجلده وصلبه ظهر اليوم التالي (الجمعة الحزينة)، ليقضي نهارا في القبر (سبت النور)، ويقوم من الأموات صباح الأحد [كتاب أورشليم المقدّس/ طبعة ١٩٨٣/ صفحة ١٥٤٠]

وكذلك يحدث في [كتاب الموتى في مصر القديمة/ نسخة كولباتشي Kolpatchy] صفحة ٢٥٤، أن يذكر النصّ أنه أثناء رحلة المتوفّى إلى العالم الآخر، عبر مناطق الليل الاثنتي عشرة، وخاصة عند الوصول إلى نهاية الرحلة، وأثناء طقس الحساب الأخير، الذي يتمّ خلاله وزن خطاياه وسيّئاته، بوضعها في كفّة ميزان، في مقابل أفعاله الخيّرة وحسناته، في الكفّة الأخرى لنفس الميزان، تحت إشراف الأخوين غير الشقيقين حورس وأنوبيس، أن تقدّم إلى المتوفّى وجبات خفيفة تساعده على القيام بالمهام الضرورية، أثناء عبور مناطق الليل، وأثناء الاعتراف أمام القضاة الاثنين وأربعين، التي يلزمها الكثير من القوّة البدنية، والحضور الذهني، تتكوّن في الأساس من الخبز غير المتخمّر (البتاو) والجعة غير المتخمّرة (من الشعير).

يقول إنجيل القدّيس يوحنا في الاصحاح السادس، الأعداد من ٤٨ إلى ٥٦ (أنا هو خبز

الحياة، أكل آباؤكم المنّ في البرّيّة ثم ماتوا، ولكن ها هنا الخبز النازل من السماء، ليأكل منه الإنسان فلا يموت، والخبز الذي أقدّمه أنا هو جسدي، أبذله من أجل أن يحيى العالم، من يأكل جسدي ويشرب دمي، فله حياة أبدية). هنا يبدو اختلاف إنجيل يوحنا عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، في أنه يشير إلى الاختلاف بين التقليد اليهودي، الذي ساد فيه الاعتقاد، بأن الله كان قد أنقذ شعبه اليهودي في برَيّة سيناء، بإسقاط المنّ والسلوى عليه من السماء [سفر الخروج الاصحاح ١٦ الأعداد من ٣١ إلى ٣٥]، أما في المسيحية فقد أرسل يسوع المسيح لخلاص الشعب.

ثم أضاف إنجيل يوحنا في العدد ٦٣ من نفس الاصحاح (إن الروح هو الذي يعطي الحياة، أمّا الجسد فلا يفيد شيئا). وكانت هذه العبارات التي نطق بها هنا يسوع المسيح، هي السبب في أن عددا كبيرا من يهود اسرائيل، في القرن الأول للميلاد، تردّدوا في قبول الايمان بالمسيح، لاعتقادهم أنه حسب الايمان الموسوي القديم، سيتمّ الاتحاد بين البشر والربّ بالجسد، في حين أنهم فهموا أن المسيح يقول إن هذا الاتحاد لن يكون بالجسد بل بالروح. وقد وردت في إنجيل يوحنا، الاصحاح السادس العدد ٦٦، العبارة التي تقرّ هذه الحقيقة إذ تقول (من ذلك الوقت هجره كثيرون من أتباعه، ولم يعودوا يتبعونه). وهي مشكلة فلسفية شغلت اللاهوتيين فترة طويلة، عن صورة الاتحاد الذي سيكون بين الربّ والبشر الناجين من الموت.

حدث آخر كان له نفس الأثر في انفضاض عدد كبير من المؤمنين بالمسيح من حوله، وهو حادث الصلب. وقد بقي هذا الصلب سببا في صعوبة انضمام أعضاء جدد إلى المسيحية، لعشرات السنوات، إذ بدت فكرة (الربّ المصلوب) في الذهنية الجمعية للشعب اليهودي، كأنها فكرة تسخر من الربّ ومن شعبه. كان هذا بسبب أن فكرة أن (الله يضحّي بنفسه على الصليب)، صعبة الهضم جدا بالنسبة للشعب اليهودي، الذي كان في زمن مجيء المسيح، يعتقد أن علاقته بالربّ مستقرّة، على أساليب المعتقدات والطقوس الموسوية القديمة. فأتى المسيح يريد أن ينقض القديم، ويريد أن يعيد تأسيس العلاقة على مبادئ جديدة.

لم يكن في مقدور ثلاثة من كتبة الأناجيل المعترف بها، وهم متّى ومرقص ولوقا، أن يقرّوا في أناجيلهم بأن المسيح ينقض صراحة التحالف القديم، الذي تعاقد عليه (يهوه) مع شعبه المختار، التحالف أو التعاقد أو العهد القديم. لكن بولس الذي تحوّل إلى المسيحية بعد

موت المسيح، وأصبح أهم المبشّرين به خلال فترة تمتدّ حوالي ثلاثين عاما، بين ثلاثينات وستّينات القرن الأول للميلاد، حاول في رسائله المتعدّدة إلى شعوب العالم القديم، أن يقول إن طقس التناول من جسد ودمّ الربّ، هو العهد الجديد بين الربّ وشعبه. وقد تمّ إدخال تعديلات لاحقة على نصوص الأناجيل لإضافة هذا المعنى اليها. فالى جوار عبارة (هذا هو دمي) أضيفت عبارة (هذا هو العهد الجديد بيني وبينكم).

هناك عبارة أخرى أضيفت إلى جوار هاتين العبارتين السابقتين، وهي عبارة (هذه الكأس هي العهد الجديد، بدمي الذي يسفك لأجلكم). وقد وردت بنفس هذه الكلمات في الأناجيل المختلفة في مخطوطات لاحقة على مخطوطات القرن الأول للميلاد. [انجيل لوقا/ اصحاح ٢٢/ العدد ٢٠]. ثم تأتي عبارة (أقول لكم إني لا أشرب بعد اليوم من نتاج الكرمة هذا، حتى يأتي اليوم الذي فيه أشربه معكم جديدا في ملكوت أبي). [انجيل مرقص/ اصحاح ١٤/ العدد ٢٥، وانجيل متى/ اصحاح ٢٦/ العدد ٢٩].

هذه العبارة الأخيرة، تشير إلى ما تطلقُ عليه النصوص المصرية القديمة، مثل كتاب الموتى ونصوص التوابيت، اسم (الوجبة الأُخْرَوِيّة)، أي الوجبة التي سيتناولها الناجون مع الربّ في الآخرة، عند وصولهم إلى ملكوت السماوات. خلاصة هذا الموضوع هي أن التقليد الموسوي اليهودي، لم يعرف أبدا طقس تناول وجبة مشتركة، يأكل خلالها المؤمنون جسد ودمّ ذبيحة حيّة، هي جسد ودمّ الإله المخلّص أوزير/ المسيح، في حين كان ذلك الطقس هو أهم طقوس ديانة مصر القديمة، وبعد ذلك يصبح أهم طقوس الكنيسة المسيحية، الذي يمارسه المسيحيون في القمّة الدرامية لنهاية كل قدّاس كنسي.

الفصل السابع
أسبوع الآلام

(١)

يسوع وأحد السعف

كانت أعياد إيزيس التي تغنّي فيها الجموع أغنيّات جماعية وهم يحملون سعف النخيل، علامة على الحبور والابتهاج، تتلوّن وتتشكّل بألوان وأشكال مختلفة، عندما تكون الاحتفالات بتلك الأعياد في بلدان مختلفة. في فلسطين مثلا كان لهذه الأعياد تأثير كبير على السكّان مختلفي الأجناس في زمن ما قبل المسيحية، ثم استمر لهذه الأعياد نفس التأثير عندما بدأ تحوّل عدد كبير من السكّان إلى المسيحية. إن يوحنا كاتب سفر الرؤيا، وهو السفر المعروف لاحقا باسم سفر نهاية العالم، يرى جموعا مختلفة من شعوب مختلفة الجنس واللغة، تقف يوم القيامة أمام كرسي عرش الربّ، وهم يرتدون جميعا ملابس بيضاء زاهية، وهم يمسكون في أياديهم بسعف النخيل، ينشدون سويّا ترنيمة لمجد الربّ. إنها نفس الصورة التي كان عليها محمل موكب إيزيس في المعابد المصرية حتى نهاية الأسرة الثلاثين [سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي الاصحاح السابع الأعداد من رقم ٩ إلى رقم ١٢].

إن يوحنا كاتب سفر الرؤيا، هو نفسه يوحنا واضع أحد الأناجيل الأربعة، التي تتحدّث جميعها عن الأحد السابق على أسبوع الآلام، وتصف جميعها المجد الذي كان لموكب دخول يسوع المسيح منتصرا إلى أورشليم. إن كتّاب الأناجيل الثلاثة الأخر، الذين يتشابهون في نظرتهم إلى الموضوع بشكل عام، وهم متى ومرقص ولوقا، وتسمّيهم المصادر لاحقا متشابهي النظرة synoptique، لا يذكرون على الاطلاق في أي موضع من مواضع وصف أحد

السعف إنه عيد الفصح يهودي، الوحيد الذي يذكر هذا الكلام هو يوحنا. لكن الشيء الذي لم يكن معلوما لهم كلهم هو أن هناك أصولا مصرية المنشأ للاحتفال بالفصح اليهودي، وأن المقصود في الأصل بهذا الاحتفال لم يكن يسوع المسيح، ولم تكن الالهة إيزيس، بل كان طقسا احتفاليا لذكرى تضحية أوزير بنفسه، وأسبوع آلامه.

عندما دخل يسوع المسيح مدينة أورشليم، في يوم أحد السعف، كان راكبا على ظهر جحش، فرش الناس أمامه بعض أرديتهم، وآخرون بحثوا عن أوراق أشجار فرشوها في طريقه. ثم إننا نجد أثرا لهذا التقليد المتعلّق بفرش الثياب وأوراق الأشجار على الأرض أمام المواكب، وقد ورد ذكرها في التوراة في مواضع عدّة تتعلق بالاحتفال بمواسم الحصاد، ولم تظهر هذه الاحتفالات إلا بعد عودة الشعب اليهودي من السبي البابلي، منها في سفر اللاويين اصحاح ٢٣ عدد ٤٠، وكذلك في مزمور داوود رقم ١١٨ العدد ٢٧.

مع ملاحظة أن الاحتفال بالحصاد في التقاليد الكنعانية، لم يكن في الربيع كما هو الحال في الفصح اليهودي، بل كان في نهايات فصل الصيف قرب بداية الخريف، غالبا في شهر سبتمبر. إن الاحتفال بهذا العيد عند مقدم الربيع وارتباطه باستعمال سعف النخيل، هو احتفال مصري صميم ارتبط منذ القدم بعبادة أوزوريس. كان هناك معبد أوزيري صغير في أحد أحياء أورشليم القديم، المعروف باسم بيت حسدا، ارتبط في الأناجيل بذهاب يسوع اليه حيث مارس قدراته الاستثنائية في شفاء المرضى.

هناك حادثة أخرى تأتي في الأناجيل مرتبطة بدخول يسوع المسيح المظفّر إلى أورشليم، في بعض الأناجيل تكون قبل الدخول إلى أورشليم [يوحنا الاصحاح ١٢ العدد ٣]، وفي بعضها الآخر تكون بعد الدخول إلى أورشليم [متى الاصحاح ٢٦ العدد ٧، ومرقص الاصحاح ١٤ العدد ٣]. هذه الحادثة هي انحناء امرأة على قدميّ يسوع لتصبّ عليهما عطرا، ثم مسح القدمين بشعر رأسها، وقد جاءت هكذا في نفس الاصحاح من إنجيل يوحنا، لكن أدخل انجيلا متى ومرقص تعديلا على التفاصيل عندما ذكرا أن المرأة قد سكبت العطر على رأس المسيح وليس على قدميه.

يذكر أبوليه Apulee في كتابه ميتامورفوزيس Metamorphosis، في الجزء ١١ العدد ٢٤، أن أحد عبدة إيزيس واسمه لوتشيوس، كان ينحني أمام تمثال إيزيس في معبدها، ليغسل بدموعه قدميها، ثم يجففهما بشعر رأسه. فيما بعد كانت أنشودة إيزيس في معابدها تحمل

طلبا إلى المؤمنين بها، أن يعطّروا رأسها بالزيوت والأطياب. التشابه واضح بين الحادثتين، مع تغيير جنس كل من العابد والمعبود.

هناك كذلك ما تنصّ عليه كل الأناجيل، من أن الشعب الذي كان في استقبال دخول يسوع المسيح منتصرا ظافرا، إلى المدينة التي ترحّب به حيث يوجد أنصارٌ له يقبلون أن يضحّوا بحياتهم من أجله، كان هذا الدخول مصحوبا بغناء كورالي، أي من طبقات صوتية مختلفة، وذلك لوجود جموع شعبية مختلفة، من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال من الجنسين، هذه الترنيمة، كانت فيها عبارات تشبّه يسوع المسيح المنتصر على قوى الشرّ، بالقمر الذي يبزغ بدرا في سماء ليل الظلم الحالك السواد. هذا هو نفس ما كان يحدث في كل المدن التي كانت بها معابد لعبادة إيزيس، حيث كان تمثالها يجوب المدينة محمولا على أكتاف أتباعها، وهم يغنّون كلهم، رجالا ونساءً وأطفالا، ترنيمات تحمل نفس هذه المعاني، خاصة عند اقتراب لحظة عودة التمثال إلى معبده، واقترابه من باب الدخول.

كانت العبارة المتكرّرة على ألسنة الشعب، واتفقت عليها كل الأناجيل، هي عبارة (مبارك الآتي باسم الربّ). ثم عندما كان يتمّ نقل هذه النصوص، من يد إلى يد عبر المخطوطات، كان الكتبة اليهود المتحوّلون إلى المسيحية، منذ نهاية القرن الأول الميلادي، يضيفون إلى هذه النصوص بعض الكلمات أو العبارات أو المعاني، التي كان يُقْصَد بها تهويد النصّ. والمقصود بالتهويد هنا أن تنطبق على النبيّ الجديد صفة المَلَكِية، كما كان الحال مع أهم أنبياء اليهود وهما داوود وسليمان، اللذان كانا إلى جوار كونهما نبيّين، أصبحا كذلك مَلِكين أرضيّين.

لذلك أضيفت إلى نسخ الإنجيل في هذا الخصوص عبارة (مبارك المَلِك الآتي باسم الرب) وهي العبارة كما هي الموجودة حتى الآن في إنجيل لوقا الاصحاح رقم ١٩ العدد ٣٨. وهو كذلك نفس ما كان يقال في معبد إيزيس، أمام الأضرحة المخصّصة لعبادة الابن حورس حيث كان يقال له (حورس هو الابن الذي يستوي على عرش والده). لكل ذلك ظلّ عدد كبير من المؤمنين بيسوع المسيح يعتقدون أنه يوما ما حتما سيعود ليصبح ملكا أرضيا.

بالنسبة للشعب اليهودي، كان الآباء المؤسّسون للديانة اليهودية، بداية من القرن العشرين قبل الميلاد، هم ابراهيم واسحاق ويعقوب، أمّا داوود في التوراة، فلم يكن يُعْتَبَر من الآباء المؤسّسين، بل من الأنبياء الملوك، الذين أقاموا مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم، حوالي

منتصف القرن العاشر قبل الميلاد. لكنه لا يُعْتَبَر من الأنبياء، في نظر كل الأسباط الاثني عشر للشعب اليهودي، من نسل الاثني عشر ابنا ليعقوب، بل كان يعتبر كذلك لطائفة واحدة منهم فقط لا غير [سفر الملوك الأول، اصحاح ٢ أعداد ١٢ و ٢٤ و٢٦ و٣٢، اصحاح ٣ الأعداد من ٣ إلى ٧]. بعض فقرات التوراة تعطي لداوود لقب (خادم الربّ يهوه)، وبعضها الآخر يعطيه لقب (راعي خراف الربّ الضالة)، ولكن ليست هناك أية نصوص توراتية تعطي لداوود لقب (الباتريارك Patriarch) ومعناه (الأب الحاكم المتسلّط).

إن نصوص الأناجيل، خاصة انجيلي متى ولوقا، التي تتعرّض لطفولة يسوع المسيح، أو لشجرة أنسابه العائلية، وهي النصوص التي يسود حاليا الاعتقاد، بأنها كانت قد أضيفت إلى الأناجيل، في نهايات القرن الأول للميلاد، أو في بدايات القرن الثاني، تدعو إلى الاعتقاد، أو تروّج لفكرة، أن يسوع المسيح هو من نسل داوود النبي والملك. كان الغرض من هذه الاضافات والايضاحات، هو جذب المزيد من اليهود المتديّنين، إلى الاعتقاد في جدّيّة رسالة يسوع المسيح، وفي حقيقة انتمائها إلى المعتقدات اليهودية الأصيلة. منذ ذلك الوقت المبكّر من تاريخ المسيحية، اكتسب داوود النبي والملك أهمية خاصة لدى المسيحيين. وقد أصبح أحد أهم ألقاب يسوع المسيح لاحقا هو لقب (المسيح ابن داوود).

كان هذا اللقب (ابن داوود) هو اللقب الذي اعتاد الكنعانيّون اطلاقه على (طاردي الأرواح الشريرة) من أجساد المرضى، الذين كانت تبدو عليهم ظواهر مرضية، لم يكن العلم وقتها يسمح بتفسيرها. ثم اكتسب هذا اللقب (ابن داوود) معنى جديد له، أقرب إلى أن يكون وصفا ليسوع المسيح، بصفته من خلّص البشرية من سيطرة الشيطان عليها. وبالتالي ظهر في سفر أعمال الرسل، الذي يصف حياة حواريي المسيح، خلال السنوات التي تلت صعود يسوع المسيح إلى السماء، يأتي ذكر داوود النبي والملك، مسبوقا أو متبوعا بلقب، لم يكن له على الاطلاق في أيّة نصوص توراتية سابقة، وهو لقب (الأب الروحي لشعب اسرائيل)، أو لقب (الباتريارك) [سفر أعمال الرسل الاصحاح رقم ٢ العدد ٢٩ والاصحاح رقم ٤ العدد ٢٥].

من الجدير بالذكر، أن الترنيمات، التي كانت قد ذكرت بشكل عرضي في الأناجيل، لكونها قد رُنِّمَت عند دخول المسيح منتصرا إلى أورشليم، كانت قد أضيفت اليها، منذ منتصف القرن الثاني للميلاد، عبارات تشير إلى النبي والملك داوود. هذه العبارات المضافة

هي كما ورد في إنجيل مرقص الاصحاح رقم ١١ العددين ٩ و١٠، (أوصَنّا! مبارك الآتي باسم الرب! مباركة مملكة أبينا داوود الآتية! أوصَنّا في الأعالي).

كما استعمل ذلك الشخص الذي أعاد نسخ إنجيل متى في نهايات القرن الثاني الميلادي، عبارات مقتبسة من أسفار التوراة، كما لو كانت عبارات تشير إلى نبوءات العهد القديم عن مجيء المسيح، مثل عبارة سفر أشعياء الاصحاح ٦٢ العدد ١١ القائلة (قولوا لابنة صهيون ها قد أقبل مخلصك)، وعبارة سفر زخاري اصحاح رقم ٩ العدد ٩ القائلة (ابتهجي يا ابنة صهيون، واهتفي يا ابنة أورشليم، لأن هوّذا ملكك مقبل اليكِ، ورغم كونه ملكا إلا أنه متواضع، فهو لا يركب عجلة حربية، بل يأتي راكبا على ظهر جحش ابن أتان).

وهكذا تمّ تحقيق المراد من النص الانجيلي، بتهويده بعد إضافة نصوص أو عبارات توراتية اليه، لم تكن موجودة في النصّ الأصلي [المؤلف هاينريش جوليوس هولزمان/ في كتابه عن التاريخ المسيحي على ضوء ما جاء في النصوص المتتالية للأناجيل/ طبعة فرايبورج سنة ١٨٩٢].

(٢)

أسبوع آلام أوزيريس

ان محنة الربّ يسوع المسيح - حسب المعتقد المسيحي - هي محنة موته كانسان بشري زائل، ثم - حسب المعتقد المسيحي - عودته إلى الحياة بعد قيامته من بين الأموات، وصعوده إلى السماء ليرتقي العرش إلى جوار أبيه. كل هذه الأفكار الفلسفية المعقّدة، لم تكن معروفة في التوراة، بل حتى لم يكن لها أي ذكر، في أي نصّ من نصوص الأسفار التوراتية، بل إن مجرّد ذكرها في بداية العصر المسيحي، كان يدعو اليهود إلى الاعتقاد بأن قائلها يكفر بالربّ، بل ويجدّف على الربّ، ويرتكب كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر [انجيل متى الاصحاح ٢٦ العدد ٦٥]، وهو النص الذي يذكر أن يسوع المسيح عند القبض عليه يعلن أنه (ابن الله)، فيشقّ رئيس كهنة اليهود ثيابه صارخا (ها هو قد جدّف، وها أنتم قد سمعتم تجديفه).

وبالتالي فإن هذه الفكرة لم تأتِ إلى الأناجيل من التوراة اليهودية، بل جاءت اليها من المعتقدات المصرية القديمة، التي تحدّد بدقة شديدة في النص المصري القديم، أن أوزوريس وهو ربّ أرباب المصريين، مات ثم قام من الأموات لفداء الشعب المصري من الموت، فتكون لهم الحياة الأبدية [كتاب مصر القديمة والمعتقدات المسيحية للمؤلف كيرت زيتيه الصادر في لايبزيج سنة ١٩٣٠].

ان الأسطورة الدينية غالبا ما تحمل معها جزءا من حقيقة تاريخية منسيّة. هذا ينطبق بدقّة على حالة أوزوريس. ورغم أنه ينقصنا الكثير من المعارف المتعلّقة بمصر في الألفية الرابعة قبل الميلاد، أي بين ٤٠٠٠ ق م و٣٠٠٠ ق م، وذلك بسبب أن الكتابة لم تستقر في شكلها شبه النهائي في مصر القديمة إلا بعد ٣٢٠٠ ق م، فإن المعارف التي انتقلت الينا بدءا من هذا التاريخ، تحمل الكثير مما يدعو إلى الاعتقاد بأن أوزوريس كان شخصية حقيقية. كان بطلا قوميا من جنوب مصر، عاش ومات قبل أن يتمكّن المصريون من تسجيل حياته كتابةً، لكنه ترك ذكراه واضحة في الكتابات اللاحقة. هو بطل مصري سعى مخلصا إلى توحيد الشمال والجنوب، أثناء ذلك الصراع الطويل بينهما الذي دام على الأقل ألف عام، حتى تمّ توحيد القطرين.

تمّ تأليهه بعد وفاته بمئات السنين، لسبب لا يزال مجهولا لنا، واستقرّت عبادته في أبيدوس (المعروفة حاليا بالعرابة المدفونة)، بالقرب من مدينة البلينا بإقليم سوهاج. هناك يوجد حتى الآن الهيكل الأقدم الذي كان مخصّصا لعبادته [كتاب المؤلف جون جريفيث بعنوان أوزوريس سنة ١٩٨٢]. هناك موقع يسمّى نديت Nedit، بالقرب من أبيدوس، تذكر نصوص الأهرامات التي تعود أقدم نسخة منها إلى بداية الأسرة الخامسة المصرية، حوالي ٢٥٠٠ ق م، أنها كانت المكان الذي دارت فيه أحداث الدراما (المأساة) الأوزيرية.

تتدرّج بشرة المصريين الذين يقيمون في مصر العليا، أي في صعيد مصر جنوب دلتا النيل، حيث تكون الشمس حارقة صيفا، بين اللون الأسمر للمناطق الواقعة إلى شمال الصعيد، واللون الأسود المحروق في المناطق الواقعة في أقصى جنوب البلاد. وكان هذا هو اللون الذي يميّز بشرة أوزوريس، في الكتابات المشهورة عنه في نصوص الأهرامات، أو كلما جاء ذكره على جدران المقابر والمعابد، أو في الرسومات التي كانت تزيّن الوثائق المكتوبة على لفافات البردي. يمكننا أن نرى هذا اللون الأسود لبشرة أوزوريس، في المناظر

التي تظهر على جدران مقبرة توت عنخ آمون، في وادي الملوك بطيبة الغربية، حيث يقف الملك توت عنخ آمون أمام إله الموت والبعث أوزوريس.

اهتم المصريون القدماء بالدقة في تصوير ألوان بشرة الأجناس البشرية المختلفة، فعندما جاءت غزوات من شمال شرق مصر لأناس، كالهكسوس حوالي ١٨٠٠ ق م، ويوسف وأخوته حوالي ١٧٠٠ ق م، وكالحيثيين حوالي ١٣٠٠ ق م، وهم على التوالي من ساكني فلسطين (أرض كنعان) وهضاب شمال سوريا وجنوب تركيا، ظهرت البشرات ذوات الألوان الفاتحة. وهو ما جعل الفنّان المصري يمثّل سيتوس/ شطا باللون الفاتح نسبيا لأنه اعتبر من قوى الشر، عدوّا لأوزير إله الخير، وإن كان سيتوس قد كثر ظهوره كذلك بلون بشرة أقرب إلى اللون الأحمر، لأنه كان يمثّل القوى الشريرة في الطبيعة مثل النار ولهيب الصحراء.

استمرّ تصوير بشرة أوزوريس باللون الداكن، وهو نفس اللون الذي يظهر به أوزوريس حتى القرن الثالث للميلاد، عندما حلّت المسيحية في مصر بدلا من الديانة القديمة، فتوقّف الناس عن رسم صور إله الموت والبعث أوزوريس على جدران المقابر، لكن لون بشرة أوزوريس السمراء الداكنة هو ما يذكّرنا به المؤلف بلوتارك، مرة أخرى لاحقا عندما يضع نسخته اللاتينية من إيزيس وأوزوريس De Iside e Osiride.

كان أوزير منذ وقت مبكر في الحضارة المصرية، الها للموت وللبعث، وحيث إن هذا هو ما تفعله الطبيعة نفسها، إذ تكون بذور النباتات ميّتة، طالما ظلّت في المخازن، إلا أنها تعود إلى الحياة عند زرعها وريّها بالماء، فتعود إلى النماء، لذلك أصبح أوزير في فترة لاحقة من الحضارة المصرية الها للنمو الخضري، أي للخير والنماء والاخصاب. بالتالي أصبحت أهمية أوزير مضاعفة، لارتباطه ليس فقط بالموت والبعث، بل كذلك بنشاط الزراعة، وهو النشاط الرئيسي في بلد زراعي كمصر [كتاب المؤلف جيمس فريزر Frazer بعنوان دراسات في الديانات الشرقية/ ماكيملان/ لندن ١٩٠٦].

عبّر أوزير كذلك عن معاني الصراع الأزلي الأبدي بين قوى الخير وقوى الشر، وهو الصراع الذي كان ينتهي عادة بغلبة قوى الخير على قوى الشر، رغم الانتصار الذي يحقّقه الشر في البداية أحيانا. ثم ظهر في الكتابات المصرية، من بين ألقاب أوزير الجديدة، اللقب الذي يكتبه المتخصّصون في الآثار المصرية في هذا الشكل wnn - nfr، بطريقة الدلالات

الصوتية للسواكن دون الحروف المتحرّكة والتي تسمّى بالانجليزية transliteration، إلا أن اللفظ تمّت صياغته في اللاتينية واليونانية بالشكل (أونوفريس)، وكلمة ونن wnn تعني الأبدي، وكلمة نفر nfe تعني الجميل، والكلمتان معا تعنيان الجميل إلى الأبد، والمقصود بهذا اللقب ليس الجمال الجسدي وإنما جمال الأفعال، حيث إنه هو من يعطي الشعب المصري الغذاء من طرح الأرض. ليس هذا فقط لكنه هو الذي كان قد علّم المصريين أسرار زراعة الأرض[شاهد قبر في المتحف البريطاني رقم ٥٨٠، وكذلك كتاب باروك ودوما ترنيمات وصلوات من مصر القديمة/ طبعة ١٩٨٠].

أمّا كلمة أوزير نفسها فهي مشتقّة من الفعل وِزِر wsr، وتعني القوي [كتاب جون جريفيث بعنوان أوزوريس الصادر سنة ١٩٨٢]، ثم أصبحت هذه الكلمة لا تطلق إلا عليه، لأنها أصبحت تعني (الكلّي القوّة omnipotent). هذه الصفات لأوزير كاله للخير والقوة الكلية، انتشرت في كل نصوص العصر المتأخّر في مصر (الأسرات من الواحدة والعشرين إلى الثلاثين أي بين القرنين الحادي عشر والرابع قبل الميلاد)، وكذلك خلال العصر اليوناني الروماني (بين القرنين الرابع ق م والرابع بعد الميلاد).

استعان به المصريون ولو معنويّا، بتوجيه الصلوات اليه طلبا للنصرة وللانتقام من الظلم الواقع على الشعب المصري، في مواجهة شعوب مجاورة كانت خلال تلك الفترات، قد أصبحت أكثر قوّة من الشعب المصري، مثل الشعوب الآشورية والبابلية والفارسية واليونانية (الاغريقية) والرومانية.

تحمّل الشعب المصري خلال مئات السنين، تبعات الاحتلال الأجنبي للأراضي المصرية، مع كل ما يعنيه هذا من حرمان من خيرات البلاد المصرية، واستغلال للقوّات الأجنبية التي لم يكن يستطيع التغلّب عليها، ثم بالتدريج اعتاد الشعب على الحرمان والمعاناة، وكذلك على فكرة اللجوء إلى الربّ أوزير المنتقم الجبّار طلبا للنصرة، ولو معنويا بالتشكيك في آلهة الآخرين، والادّعاء بأن الههم أوزير هو الإله الحقيقي الوحيد، بين كل آلهة الأرض، وأن ايمانهم به هو الايمان الوحيد الجدير بالحفاظ عليه [النصوص المسجّلة على جدران مقبرة بيتوزيريس في تونة الجبل بإقليم المنيا من القرن الأول الميلادي].

كان الاحتفال بذكرى طريق آلام أوزير، واحدا من أقدم الأعياد الدينية، التي احتفل بها الشعب المصري، منذ ما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف عام، قبل مجيء يسوع المسيح [نصوص

الأهرامات المسجّلة على جدران حجرات الدفن في الأهرامات بداية من أهرامات الأسرة الخامسة، تذكر خلال القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، أن هذا الاحتفال عمره في مصر يزيد عن ألف عام أي منذ عصر ما قبل الأسرات].

في نظرية خلق العالم cosmogony، وفقا لمدرسة عين شمس (هليوبوليس) أقدم المدارس الدينية المصرية، خلق الإله رع من افرازاته المنوية، دون الاستعانة بأي إله آخر عداه، ابنين من صلبه، كانا ذكرا وأنثى، الذكر هو شو إله الهواء، والأنثى هي تفنوت آلهة الماء، وهما اللذان أنجبا بدورهما جِب إله الأرض ونوت آلهة السماء. هذان الأخيران كانا قد وُلِدا ملتصقين، حتى جاء رعّ وفصَل السماء عن الأرض. ثم أنجب هذان الأخيران أربعة آلهة، هم أوزير وإيسة وشطا ونفتيسة. أوزير (أوزوريس/ اذريس) هو الأخ الأكبر، وشطا (سيتوس/ شيطان) هو الأخ الأصغر، وإيسة هي الأخت الكبرى، ونفتيسة (نفيسة) هي الأخت الصغرى.

كان أوزير هو إله جنوب مصر، في حين كان شطا هو إله شمال مصر. كان أوزير محبوبا من الشعب، وورود هذا المعنى في نصوص الأهرامات يدلّ على أن أوزير، رغم أن الأسطورة تقول إنه ابن السماء والأرض، كان شخصية حقيقية. في حين كان شطا شريرا ومكروها، لذلك أصبح شطا يغار من محبّة الناس لأخيه، وبالتالي أراد أن ينتقم منه. مستعملا الحيلة والمكر والدهاء.

موقع الأحداث التي سيرد ذكرها عن الانتقام، في نصوص متفاوتة القدم، يقع غالبا في الاقليم الجغرافي حيث أبيدوس الحالية هي أكبر مدينة، وتقع بعض الأحداث بالقرب من طينة (طينيس أو تينيس Thinis) التي تعتبر عاصمة الصعيد خلال الألف عام، السابقة على مولد الملك نعرمر (مينا)، موحّد القطرين ومؤسّس الأسرة الأولى. يرد أيضا ذكر موقع مدينة صغيرة، تعرف باسم ناديت أو ندت (أي بحروف متحرّكة طويلة أو قصيرة)، وقد يكون الاسم نادجت (جيم معطّشة) وأحيانا ينطق (نادية). الكلمة المصرية القديمة التي اشتق منها اسم الموقع هي ndt، ندت وتعني فعل أن تفرد شيئا ما على الأرض.

سيكون معنى هذه الكلمة هو أن جسم أوزير قد تمّ فرده على الأرض، بعد أن أوقعه أخوه شطا على الأرض، وتمكن من قتله، بمعاونة بعض المتواطئين معه من الأشرار، الذين دائما ما تمتلىء بهم بعض الأماكن [كتاب للمؤلف أدولف إيرمان بعنوان معجم ألفاظ اللغة

المصرية القديمة صدر في لايبزيج سنة ١٩٢٨]. في بعض النسخ يقال إن أوزير قد ألقي في ماء النهر (النيل)، وأنه كان مكتّف الأيدي والأرجل فلم يتمكن من انقاذ نفسه، هذا بفرض أنه لم يكن قد قتل بعد. بل إن بعض النسخ (مثل نصّ بلوتارخ) تقترح حتى أن جثمان أوزير كان قد وضع داخل تابوت خشبي معدّ سلفا، قبل حادث الاغتيال.

يموت أوزير غريقا أو يموت مختنقا داخل التابوت الملقى في مياه النهر [معلومات واردة على حجر في المتحف البريطاني يحمل رقم ٤٩٨، وعليه اسم الملك شباكا من الأسرة الليبية رقم ٢٢]. تقول النصوص إن إيزيسة ونفتيسة كانتا تبكيان بكاءا مرا، وتنتحبان بصوت مرتفع، وتلطمان الخدود، وتضربان الصدور بقبضات الأيدي، وتشقّان الثياب، وتمزّقان الشعور وأغطية الرأس، عندما علمتا باختفاء أوزير، فرغم أنه كان متزوّجا من إيزيسة، إلا أن نفتيسة الشقيقة الصغرى، هي الأخرى كانت تحبّه، وتكره من زوّجوها به غصبا، ألا وهو الشرير شطا [كتاب التاريخ لهيرودوت الجزء الثاني العدد ٤٠].

تقول احدى نسخ الأسطورة إن جثّة أوزير، تطفو وحدها فوق سطح مياه نهر النيل، في اليوم الثالث بعد الوفاة. تضيف هذه النسخة من الأسطورة، أن مياه النهر قد دفعت الجثمان إلى الشاطىء، حيث استقرّ أسفل شجرة جمّيز (فيكوس سيكوموروس باللاتينية ficus sycomorus)، بحيث إن الجثة أصبحت شبه مختفية خلف جذع الشجرة، هكذا تمكنت هذه الشجرة من إنقاذ جثمان أوزير ومنع شطا من العثور عليه، وهو من ضمن الأسباب التي تبرّر لاحقا عبادة هذه الشجرة، ثم تحوّلها إلى أحد رموز الالهة حاتحور.

بالاضافة إلى أنها تذكر في النصوص الخاصة بالعالم الآخر (المعروفة في المصرية القديمة باسم الايمي دوات) كاحدى أكثر الأشجار انتشارا في الجنّة. إلا أن هناك نصّا آخر وهو ذلك الذي يخصّ بلوتارخوص (بلوتارك)، الذي يقترح أن الجثّة كانت داخل تابوت خشبي، تمكّنت تيارات المياه في النيل، من دفعه إلى البحر المتوسّط، حيث دفعته الأمواج في اتجاه بيبلوس على شواطىء فينيقيا (جُبيل في لبنان الحالية)، حيث دخل كذلك في جذع شجرة، ولكنها في هذه النسخة شجرة أَرْز.

في نسخة بلوتارك هناك مقدار أكبر من الخيال والشاعرية، حيث تتحوّل ايست الباحثة عن زوجها وأخيها، إلى طائر يجوب سماء البلاد بحثا عن الجثّة المفقودة، وعندما تنتهي من سماء مصر وتقترب من ساحل البحر المتوسّط، تشعر كما لو أن العطر المنبعث من رائحة

جسد زوجها، يأتي من مكان ما عبر البحر، فتقودها حاسة الشمّ إلى موقع شجرة الأرز في لبنان. بل إن الشاعرية تبلغ قمّتها عندما يذكر بلوتارك، أن ايست تُخْرِج صندوق التابوت من جذع الشجرة، ثم تُخْرِج الجثّة من صندوق التابوت، وتفردها من جديد على الأرض، وتضمّها اليها فينتقل دفء جسد ايست إلى جسد زوجها، وتشعر كما لو أن الجثّة بين يديها تفقد برودتها بالتدريج، فتبكي وتسقط دمعاتها على جسد زوجها، فإذا به يتجاوب مع هذه الدموع، كما لو أنها قطرات من الماء تروي عطش جسده. تقول الأسطورة إن هذا اللقاء الحميم بين الزوجين، بعد عودة الحياة اليه، هو الذي سينتج عنه إنجاب ولدهما حورس.

يعودان سويّا إلى مصر، وتحتفي الزوجة بزوجها الغائب عنها، فتذهب لاعداد وجبة طعام له، بينما تترك زوجها نائما في أحراش الدلتا. هنا تتفق جميع نسخ الأسطورة على أن الأخ الشرير، أدرك ما حدث وبدأ يحوم حول المكان، حتى يجد الفرصة المناسبة لاعادة قتل أوزير. في هذه المرة يتأكد من القتل بتقطيع الجسم إلى أربعة عشر جزءا، هي ١ – الرأس، ٢ و٣– هما الذراعان، ٤ و٥– هما اليدان، ٦– هو الصدر، ٧– هو البطن، ٨ و٩ – هما الفخذان، ١٠ و١١– هما الساقان، ١٢ و١٣– هما القدمان، أما الجزء الرابع عشر فهو العضو الجنسي.

تتفّق كذلك جميع نسخ الأسطورة على أن الشرير، حتى يجعل مهمّة إعادة تجميع أجزاء الجسد مستحيلة، يطير هو الآخر عابرا فوق كل مناطق الدلتا والصعيد، ليقذف بكل جزء من الأجزاء الأربعة عشر إمّا شرق النيل أو غربه، على مسافات متساوية، هي حوالي ٧٥ كيلومترا، ولذلك فهناك في مصر أربعة عشر موقعا يحملون اسم أبو صير، وهي الأماكن المشهورة في التاريخ، بأنه كان قد تمّ في كلٍ منها العثور، على جزء من الأجزاء الأربعة عشر، من جسد أوزير الممزّق المتفسّخ.

أصبحت أبيدوس هي مركز عباد أوزير لأنه كان قد تمّ فيها العثور على الرأس. إلا أن مشكلة استعادة الجسد كله تعقّدت جدا، عندما سقط العضو الجنسي في مياه النهر أثناء عبور شطا الشرير، أمام مدينة اسنا. تقول بعض النسخ اليونانية الرومانية إن سمكة بلطي أكلت هذا الجزء من الجسد، أو أنها ابتلعته سليما كاملا دون مضغه، وبالتالي سمّيت مدينة اسنا في العصر اليوناني مدينة لاتوبوليس Latopolis، أي مدينة السمكة البلطي، فكلمة مدينة باليونانية هي بوليس، والسمكة البلطي باليونانية هي لاتوس. فيما بعد ستصبح من بين الوظائف التي يشغلها أوزير، بصفته إله الموت والبعث، وربّ الانماء، منصب كبير قضاة

العالم الآخر، ورئيس محكمة يوم الحساب.

في النصوص المنقوشة باللغة المصرية القديمة على جدران معبد دندرة، وهو أحد أحدث المعابد المصرية في العصر اليوناني الروماني، ويعود إلى القرون الأولى بعد الميلاد، وهي النصوص التي قام بجمعها عالم الآثار الفرنسي شاسينا Chassinat، وطبعها له المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة IFAO سنة ١٩٦٨، نجد ذكرا متكرّرا واضحا لاحتفالات المعبد بالأعياد التي تحتفي بذكرى موت وبعث أوزير، حيث يقوم بعض الكهنة بتمثيل مناظر وتلاوة مقاطع من نصوص هذه المأساة، مما يؤكد أن ذكرى أوزير كانت لا تزال باقية حتى ثلاثة قرون على الأقل بعد مجيء يسوع المسيح. وقد ورد ذكر هذه الاحتفالات في كتابات عدد كبير من الرحّالة والجغرافيين الذين قاموا بزيارة مصر في ذلك العصر.

هيرودوت مثلا الذي زار مصر في منتصف القرن الخامس ق م، قام بزيارة أحد المعابد المصرية في مدينة سايس وهي (صا الحجر) الحالية، شمال غرب الدلتا، بالقرب من مدينة دسوق في محافظة كفر الشيخ، حيث كانت توجد بحيرة بالقرب من المعبد، تدور على ضفافها بعض مناظر موت أوزير غرقا، ويستعمل هيرودوت في وصف هذا الموضوع مفردات مثل آلام وعذاب الربّ أوزير، وهي نفس المفردات التي ستستعمل لاحقا في وصف آلام وعذاب الربّ يسوع المسيح، خلال الأسبوع الذي تمّ فيه، القبض عليه وجلده وصلبه وموته، ثم قيامته من الأموات. نصوص الأناجيل تستعمل نفس مفردات هيرودوت التي كان قد نقلها عن الكهنة المصريين من القرن ٥ ق م. نفس المفردات اليونانية. في عبارة واحدة هي (الأسرار المقدّسة الخاصة بعذاب وآلام الربّ عند موته ثم عند قيامته من عالم الأموات).

(٣)

أسبوع آلام المسيح

التشابه واضح جدا بين القصتين، فالربّ (أوزير/ يسوع) الذي هو في الأصل كان انسانا مثل كل البشر، وكان محكوما عليه بالموت مثلهم جميعا، يضحّي بنفسه رغم كونه ربّا ويموت، ثم يقوم من بين الأموات، والهدف من كل ذلك هو أن يعطي للمؤمنين به الأمل في التغلّب على الموت، والتغلب على قوى الموت والشرّ المتمثلة في الأخ الشرير شطا، أو في

الشيطان الذي حاول إغواء المسيح قبل أن يبدأ دعوته، حسبما ورد في الأناجيل. المفردات المستعملة في نصوص الأناجيل هي كلمات مثل السرّ المقدّس والمرتبط بآلام الربّ.

من الغريب أن هذه القصة/ المسرحية، كانت قد وردت في بعض الكتابات التاريخية، المتعلقة بالعصر المتأخّر، في الفترة التي وقعت فيها مصر تحت الاحتلال الفارسي، وهي نفس الفترة التي زار فيها هيرودوت مصر، بحيث أطلق الكهنة المصريون على هذه المسرحية، التي كانوا يمثّلونها سنويّا في المعابد المصرية اسم (عودة الشيطان)، لأن الشخصية الدرامية التي كانت تمثّل الشرّ، كانت من نصيب ممثّل يحمل ملامح فارسية، ويرتدي ملابس فارسية، كأن الاحتلال الفارسي أصبح هو قوى الشر التي ينبغي التغلّب عليها [وردت هذه المعلومات في كتاب المسرح المصري القديم/ للمؤلف الفرنسي إتيان دريوتون/ من مطبوعات المعهد الفرنسي بالقاهرة/ سنة ١٩٤٢].

وفقا لما جاء في الأناجيل، متى اصحاح ٢٦، ومرقص اصحاح ١٤، ولوقا اصحاح ٢٢، كانت الجبهة المعارضة ليسوع المسيح، أي بمعنى آخر العنصر الشرير الذي يمثّل القوى الشيطانية، الموازية للأخ الأصغر (شطا) في قصة أوزير، هذه الجبهة المعارضة كانت من فئة كهنة اليهود من كبار السنّ، بالاضافة إلى أثرياء اليهود من الكتبة وجباة الضرائب، وكان يسوع ضحيّة أو فريسة للمؤامرة التي أعدّوها للايقاع به، بتواطؤ من يهوذا الاسخريوطي الذي سلّمه لهم. كان تأثير تلك الطبقة من الكهنة والكتبة لا يزال قويّا في الشعب اليهودي البائس، حتى أن جماعات منهم اقتنعت تماما بأن يسوع المسيح، هو مجرم مارق يستحق القتل، فذهبوا إلى القائد الروماني بيلاطس البونطي يطالبونه بصلب المسيح، قائلين له إن دم يسوع سيكون عليهم وعلى أولادهم من بعدهم، ولهذا طلب بيلاطس الماء حتى يغسل يديه من دمّ المسيح.

رغم أن حقيقة الصراع، كما ستتضح لاحقا للدارسين الموضوعيين، في علوم الاجتماع والاقتصاد السياسي، هي صراع بين الأثرياء المدافعين عن المذاهب القديمة، التي تحتفظ لهم بامتيازاتهم، في مقابل المتمرّد محرّر العبيد يسوع المسيح، الذي كان يدافع عن الفقراء وعن حقوقهم في حياة كريمة. الصراع الحقيقي كان صراعا طبقيّا بين الأثرياء والفقراء، وإن كان ظاهريا هو صراع بين مذهب قديم ومذهب جديد.

نصوص التوابيت هي نصوص كانت تكتب أو ترسم، على أسطح التوابيت الخشبية أو

الحجرية، بداية من عصر الدولة الوسطى، أي من نهاية الأسرة الحادية عشرة، وحتى نهايات العصر الفرعوني. كانت هذه النصوص تتحدّث، كما كانت تفعل نصوص الأهرامات سابقا، عن رحلة المتوفّى منذ لحظة موته حتى لحظه بعثه حيّا، عبر رحلة طويلة تدوم خلال ساعات الليل الاثنتي عشرة. نصوص التوابيت هي المرحلة المتوسّطة في تاريخ الكتابات الجنائزية في مصر القديمة، بين نصوص أهرامات الدولة القديمة، عندما كان الدخول إلى العالم الآخر مقتصرا على الملوك، وبين نصوص كتاب الموتى عندما أصبح لكل الناس الحقّ في الدخول إلى العالم الآخر.

تقول نصوص التوابيت التي يعود زمنها إلى الدولة الوسطى، أي إلى حوالي ٢٠٠٠ سنة ق م، إن حدادا عاما مدّته سبعة أيام، كان يفرض على البلاد، كل عام بعد مراسم الدفن الرمزي لجثّة أوزير [في دراسة قام بها العالم فولكنر]. وتقول نصوص معبد دندرة من العصر اليوناني الروماني [في دراسة قام بها شاسينا]، أي من ٣٠٠ ق م إلى ٣٠٠ بعد الميلاد، إن تمثالا مومیائيا، أي أن جسمه كله يكون ملفوفا في ثوب من شرائط الكتّان، وبذراعين متقاطعين على الصدر، له وجه آدمي ملتح يمثّل أوزير، وفوق جبهته ثعبان الكوبرا، يمسك بعلامات القوة والسطوة، السوط والصولَجان، كان يظلّ معروضا في المعبد، كرمز لأوزير المتوفّى، فوق أغصان من شجر الجمّيز، وهي من الأشجار المقدّسة في الجنّة على صورتها المصرية القديمة، خلال أيام الحداد السبعة.

كان العدد سبعة من الأعداد المقدّسة في مصر القديمة، وهو رمز للاكتمال، حيث كان يُعتقد إن أوزير كان عليه أن يعبر سبع سموات، حتى يعود إلى بداية الدورة الكاملة للحياة والموت [قصة ساتني وخعموس/ دراسة قام بها جاستون ماسبيرو/ في كتابه عن القصص الشعبية في مصر القديمة/ مطبوع في باريس سنة ١٩١٢]. خلال هذه الأيام السبعة، كان ينبغي أن تظل الحراسة نهارا وليلا حول التمثال المومیائي لأوزير، مع ممارسة طقوس ليلا ونهارا، بنظام ثابت مستقر منذ سنوات بعيدة، على يد عدد كبير من الكهنة والباكيات النائحات.

تتم تلاوة صلوات وترتيل أنشودات، بها مقاطع حزينة تشبه عويل الفقد، على خلفية من الصراخ والبكاء، والقاء اللائمة على الذات بنوع من المازوخية، مع بعض المقاطع المحفوظة التي تتكرّر مئات المرات على ألسنة الجميع [كيرياليسون/ يارب ارحم/ تتكرر

٤٠٠ مرة/ يوم الجمعة الحزينة/ في الكنيسة المصرية الحالية/ في يوم ذكرى صلب المسيح ودفنه في القبر]. كل هذا في وسط أجواء تمتلئ بروائح البخور والعطور والأطياب [لا تزال الكنائس تستعمل البخور].

أسبوع الآلام هذا الذي كانت المعابد المصرية تحتفل به، لا يزال موجودا في الكنيسة المصرية، قد تكون هناك بعض التفاصيل التي اختلفت عن الزمن القديم، إلا أن الفكرة الرئيسية لا تزال هي هي، الاحتفال لمدة أسبوع بذكرى موت وبعث يسوع المسيح، بعد أن يكون قد تعذّب وجلد وصلب على يد أشرار العالم الحديث، من جنود وضبّاط الاحتلال الروماني. والنقطة الواضحة جدا هي مسألة السهر طول الليل في الكنائس، مع الصيام والامتناع عن الطعام [تحدّثت الأناجيل عن ضرورة الصيام مثلا في متى الاصحاح التاسع العدد ١٥]، طوال مدّة الأسبوع المقدّس، لحراسة الجسد من الأعداء، طبعا بشكل رمزي. أشرنا أعلاه في بعض المقاطع السابقة إلى بعض نقاط التشابه الأخرى[أنظر مادة الأسبوع المقدّس/ في قاموس آثار وطقوس الكنيسة القبطية / لماريا كرامر - والكنيسة الأرمينية/ لوكلارك/ ١٩٦٦].

لم تذكر الأناجيل أي شيء، عن أنه خلال الاحتفال بأسبوع الآلام هذا، ينبغي تقديم أضحية من الحيوانات، كخروف صغير أو عجل أو غيرهما من الحيوانات، حسب عادة اليهود في الفصح اليهودي، الذي احتفلوا به لأول مرة عند خروجهم من أرض مصر، إلى أرض الميعاد، ثم أصبحوا يحتفلون به كل عام، تجديدا لذكرى الخروج، التي اعتبروها ميلادا ثانيا للشعب اليهودي، حتى أن كلمة فصح في العرف اليهودي، كان يعتقد أن المقصود بها هو (بصخة أو باسكوا pasqua) أي عبور الماء، إشارة إلى معجزة نبي الله موسى، التي سمح له الله فيها، بعبوره هو وشعب اسرائيل برزخ السويس، دون أن يغرقوا في مياه البحر الأحمر. إلا أن عدم وجود أضحية في الفصح المسيحي هو دليل على أنه أقرب إلى الفصح المصري منه إلى الفصح اليهودي. قال القدّيس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (إن فصحنا هو يسوع المسيح) [الاصحاح الخامس العدد ٧].

(٤)

مسرحية آلام أوزير

كان المصريون القدماء يحتفلون كل عام بإحياء ذكرى موت الربّ أوزير ثمّ عودته إلى الحياة. كان الاحتفال يقوم على ممارسة طقوس مختلفة، إلا أن الطقس الرئيسي فيها كان، أن يقوم الكهنة والكاهنات بلعب الأدوار المختلفة في هذه المسرحية المقدّسة، أمام جموع الشعب الساكن في محيط دائرة كل معبد من المعابد الأوزيرية، التي لم يكن يقل عددها عن أربعة عشر معبدا. تلك المسرحية لم يكن يستعان فيها بممثّلين محترفين، بل بكهنة وكاهنات من كل معبد، يقومون ويقمن بلعب أدوار الشخصيات الرئيسية، في هذه الدراما المسرحية التراجيدية السنوية، أوزير وسيتوس (شطا) وايست (إيزيسة) ونفتيسة وحورس، بالاضافة إلى الجموع التي تمثّل فئات مختلفة من البشر، مثل صيادّي الأسماك في مستنقعات أحراش الدلتا، أو مثل الرجال الأشرار المتواطئين مع الشيطان [كتاب المؤلف موريه Moret/ بعنوان ملوك مصر وآلهتها/ الصادر في باريس سنة ١٩١١].

كان العرض المسرحي ينقسم إلى عدد من الفصول المتتالية، التي كان نظام تقديمها قد تغيّر بعض الشيء، وفقا لمكان تقديمها في عشرات المعابد داخل وخارج مصر، وزمان تقديمها عبر فترة زمنية ممتدّة لا تقل عن ثلاثة آلاف عام. يبدأ العرض المسرحي بمنظر لأوزير مع أخيه الشرير، في حوارات مستمرّة تدلّنا دلالة قاطعة على الصراع الخفي الدائر بينهما ، بسبب الغيرة القاتلة، التي كان الأخ الطالح يشعر بها تجاه الأخ الصالح (قابيل وهابيل). تشير بعض المصادر إلى أن أوزير كان متزوّجا من إيزيسة، وأن شطا كان متزوجا من نفتيسة، إلا أن تلك الأخيرة كانت تظهر كرها لزوجها، ومحبّة لزوج أختها.

المنظر الثاني هو الظهور المفاجئ لمجموعة من الأشرار المتواطئين مع الأخ الشرير. هنا تختلف المصادر في حقيقة عددهم، وفي طبيعة ما حدث بعد ذلك، إلا أن المؤامرة كانت واضحة في محاولة شطا أن يوحي إلى أخيه، أن المأدبة التي أقامها على شرفه، هي لتقديم هديّة له، عبارة عن صندوق خشبي مطعّم بالأحجار الكريمة، يصلح للاستعمال كتابوت بعد الوفاة، إلا أن شطا يقنع أوزير بضرورة أن يضع جسده داخل التابوت، حتى يتأكّد من

دقّة مقاييس جسده على مقاييس التابوت. المنظر الثالث هو غلق التابوت على جسد أوزير بالأقفال من جميع الجوانب، والاسراع به إلى بحيرة المعبد المقدّسة (التي تمثّل رمزيّا مياه نهر النيل) للتخلّص منه بإلقائه في الماء [كتاب شاسينا Chassinat عن نصوص معبد دندرة].

هناك بعض الفصول والمناظر التي كانت تظهر وتختفي كما سبق القول، من بينها مثلا أن تظهر ايست هنا وهي تبحث عن زوجها الغائب، ثم تتحوّل إلى طائر يطير فوق البلاد، حتى تقوده رائحة عطر جسد الزوج، إلى موقعه الجديد، إمّا داخل جذع شجرة جمّيز (في مصر)، أو شجرة أَرْز في بيبلوس بلبنان. يأتي هنا في سياق العمل المسرحي الكامل الأجزاء، منظر استرداد جسد الزوج (الجثّة) وفرده على الأرض، والتصاق جسد الزوجة به، وانتقال حرارة جسد الزوجة اليه، وعودة ملامح الحياة تدريجيا إلى الجسد المتوفّى، أولا باسترداد حرارته الطبيعية، ثم ثانيا عندما تبدأ الزوجة في ريّ الجسد بدموعها يبدأ في الانتفاض والحركة والاستجابة لها.

يعودان سويّا إلى مصر، أو إلى موقع المعبد حيث تدور فصول المسرحية ومناظرها، وقد أصبحت الزوجة حاملا في جنينها حورس. ينام الزوج أثناء اعداد الزوجة لطعام الغذاء. ثم يعود الشرير إلى الظهور، إذ يُحاط علما بهذه التطوّرات، بواسطة الأشرار المتواطئين معه، فيقتل أوزير وهو نائم، ويقطّع جسمه إلى أربعة عشر جزءا.

في هذا المنظر من المسرحية، الذي يقوم فيه الشرير شطا بمحاكاة تقطيع جسم أوزير، يكون قد تمّ إعداد الأجزاء المذكورة إمّا من الفخار، أو من الطين، أو أن تكون منحوتة في الخشب، أو حتى من الحجر. وقد تمّ العثور على الكثير من مثل هذه الأجزاء الرمزية لجسد أوزير، في العديد من المواقع الأثرية، وتقوم المتاحف المختلفة بعرضها [صالة الآلهة بالطابق العلوي من المتحف المصري بالقاهرة. كما أن كتاب شاسينا عن نصوص دندرة يعود إلى ذكر هذا الموضوع].

الأعجب في هذا الموضوع هو أنه في بعض الأحيان، كان المصريون المحتفلون بهذه المسرحية السنوية، يعدّون قبل ذهابهم إلى المعبد للاحتفال بذكرى أوزير، قطعا من الخبز غير المتخمّر، داخل قوالب كانت في البداية خشبية، ثم أصبحت قوالب معدنية لاحقا، على شكل أجزاء من الجسد، وذلك لاعطاء قطع الخبز أشكالا لأجزاء من الجسم البشري، كأن تكون هناك قطعة خبز على شكل يد بشرية، أو أخرى على شكل قدم بشرية، أو ثالثة

على شكل رأس بشري [بداية فكرة التناول من جسد الإله]. لكن أشهر هذه القطع من الخبز وأكثرها انتشارا، كانت تلك التي تخبز على شكل قلب بشري. ولا يزال المصريون الحاليون، يستعملون حتى الآن في بعض احتفالاتهم الدينية، طريقة صنع قطع من الخبز أو من الكحك، على شكل قوالب بشرية. كما أن هناك قوالب أخرى ازدادت شهرتها عبر القرون، خاصة القالب الذي يمثّل شكل سمكة، والآخر الذي يمثّل شكل نجمة خماسية.

بعد منظر محاكاة التقطيع، ثم منظر إلقاء هذه الأجزاء في الأركان المختفية الأربعة للمعبد، يأتي منظر محاولات إيزيسة ونفتيسة للبحث عن الأجزاء المفقودة، وقد يشترك ممثلون آخرون في هذا البحث الحقيقي، يلعبون أدوار آلهة أُخَر مثل حورس (رأس صقر) وأنوبيس (رأس ابن آوي) وجحوتي (رأس طائر الأيبيس ibis أبو منجل)، وقد يشترك كذلك بعض الأفراد المختارين من جمهور المشاهدين. في البداية يكون الجميع صامتين، بل إن مظاهر الحداد العام قد تبدو على الوجوه، بل إن بعض النساء يمكنهنّ حتى أن يحللن ضفائر شعر رؤوسهنّ، وبعضهنّ الآخر يبدأن في تمزيق الشعور المزيّفة الموضوعة فوق الرؤوس، ويقوم الجميع كذلك بين وقت وآخر، بلطم الخدود، وبالضرب على الصدور، والبعض بتمزيق الثياب.

بالاضافة طبعا إلى وجود عدد كبير من النائحات الباكيات المحترفات، اللائي يمارسن هذه المهنة في المعابد، في مثل تلك المناسبات، كما أنهنّ يمارسنها طوال العام في المراسم الخاصة بالجنازات [يمكن مشاهدة العديد من مناظر الباكيات النائحات، على جدران مقابر أشراف ونبلاء وفنانين في طيبة الغربية، مثل مقابر حورإم حب/ رعموزا/ جحوتي إم حب/ نب آمون/ أوسر حات، بالاضافة إلى الموجود منها في كتاب الرسم المصري القديم/ للمؤلف ميخيتاريان/ المطبوع في سلسلة سكيرا Skira/ لدار النشر الفرنسية فلاماريون/ سنة ١٩٧٨].

خلال هذا الفصل من العرض المسرحي يُكتفى مؤقتا بأصوات النائحات، في حين أن الموسيقى المنتصرة لا تبدأ إلا بعد أول مظاهر العودة إلى الحياة للمتوفّى المقدّس، إذ تنتهي تماما مظاهر الحداد، ويعمّ الفرح أرجاء المعبد، بمجرّد العثور على أول قطعة ضائعة من الجسد المقدّس، ثم تتوالى مظاهر الفرح والحبور، مع ازدياد صخب الموسيقى وتعبيرها عن الفرح العارم، باستعمال آلات ايقاعية ووترية، وآلات نفخ، في كل مرة يتمّ فيها العثور،

على أحد الأجزاء الضائعة. ولا تتمّ سعادة الجميع، إلا بعد تمام تجميع، كل الأجزاء الأربعة عشر.

الكلمتان اللتان كانتا دائمتي التكرّر والورود، على ألسنة الشعب الباحث عن الجسد المفقود، هما كلمتا (البحث) و(العثور). هذا هو ما تذكره نصوص الأهرامات، عمّا كان يرد ذكره أثناء الاحتفالات، الأقدم تاريخيا خلال عصور بناء الأهرامات في الدولة القديمة (من ٢٨٠٠ ق م إلى ٢٣٠٠ ق م)، وهو نفس ما تذكره نصوص التوابيت، خلال عصور استعمال التوابيت من الدولة الوسطى (من ٢١٠٠ ق م إلى ١٨٠٠ ق م)، ثم نفس ما يذكره كتاب الموتى، في عصور استعمال كتاب الموتى من الدولة الحديثة (من ١٥٥٠ ق م إلى ١١٠٠ ق م). حتى الوصول إلى نصوص معبد دندرة من العصر اليوناني الروماني (من ٣٠٠ ق م إلى ٣٠٠ ميلادية). نفس الكلمتين كانتا تتكرّران على كل الألسنة، في كل هذه العصور المتباعدة.

تقول نصوص الأهرامات إن الأختين تبدآن في تلاوة صلوات ذات طابع سحري، تستعملان خلالها عبارات من نوع (إيزيسة تغسل أعضاءك) و(نفتيسة تجفّفها لك) و(الأختان تدفئان أعضاءك) ثم (الأختان تعيدان لمّ شمل أعضائك). تظهر هنا ممثلة أكبر سنّا تلعب دور الأم، والدة أوزير وإيزيسة ونفتيسة، وهي نوت الهة السماء. تقول (ها قد جاءتك الالهة أمك حتى لا ينقص لديك أيٌّ من معضّديك) ثم تقول (ها هي ذي تعيد وضع رأسك في مكانه)، ثم تحمل الرأس إلى موضعها من الجسد. ثم تقول (ها هي ذي تعيد وضع ذراعيك ويديك في أماكنها)، ثم تحمل الذراعين واليدين إلى مواضعها من الجسد. وهكذا دواليك.

نصل إلى اكتمال الأعضاء في مواضعها، عند هذا الحد تقول إيزيسة (انهض من مكانك/ يا أخي/ يا زوجي/ يا حبيبي). ويرد كل المغنيين التابعين للجوقة الموسيقية، ومعهم كل النائحات الباكيات (يا أوزير/ انصت لما يقال لك/ وانهض من مكانك). فيستجيب لهم. وينفجر الجمهور في هتاف مجنون يتردّد صداه في السماوات كما في الأرض. ويأتي صوت من السماء قائلا (أيّها الابن الحبيب/ كنت ميّتا/ وها أنت ذا/ قد عدت إلى الحياة/ هنيئا للبشر أجمعين). يردّد الشعب (إنك رحلت ثم عدت/ إنك نمت ثم قمت/ إنك متّ ثم عشت).

في مصر القديمة كان التعاطف الشعبي مع آلام أوزير، يمكن تفسيره بأن الشعب يشعر

بالاطمئنان، عندما يرى أن الإله القوي القدير، تعذّب ومات مثل جميع البشر الفانين، ثم تمكّن في نهاية المطاف، من الانتصار على الموت والعودة إلى الحياة، فإن هذا هو ما يعطي الأمل لكل فرد من أفراد الشعب، في إمكانية أن ينتصر كل منهم بدوره على الموت، ويعود إلى الحياة. ثم إن هذا الإله الذي تعذّب مثلهم بسبب الأشرار، سينتقم لهم يوم الحساب بعقاب الأشرار، وإثابة الأبرار. هذا هو سبب انتشار عبادة أوزير في الامبراطورية الرومانية، التي زاد فيها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان عن كل حدود الظلم السابقة.

كانت المعتقدات في الأعراف البدائية، السائدة في مرحلة ما قبل التاريخ، أنه ينبغي التضحية بحيوان لارضاء الآلهة. وكان هذا الاعتقاد قد نشأ، عندما كانت نار البرق تسقط من السماء، خلال العواصف الرعدية، فتأكل الزرع والضرع ثم تهدأ العاصفة. كما كان المصريون القدماء قد اعتادوا في بعض احتفالاتهم، على تقديم خنزير أو خروف، وأحيانا عجل للقادرين، أو حتى مجرّد إوزّة لغير القادرين، كذبيحة يضحّى بها أمام الآلهة، ليس فقط لترضَ عنهم، بل كذلك لتعيد اليهم شخصا قد مات، إذ ساد الاعتقاد في وقت ما بأن الالهة، قد تقبل الحصول على حياة حيوان، مقابل أن تردّ إلى البشر حياة انسان ميّت.

بعد ذلك مرّت البشرية بمرحلة لاحقة، عندما تصوّر الإنسان، وجود حيوانات تمثّل قوى الخير، كالبقرة والحمامة، وحيوانات أخرى تمثّل قوى الشر كالخنزير. وأن قتل الحيوان الذي يرمز إلى الشر، يمكنه أن ينقذ الإنسان الخيّر من الموت. كان هذا الفعل الرمزي يدلّ على أن حورس ابن أوزوريس، قد قتل شطا عدو والده اللدود، إذ وفقا لبعض نسخ الأسطورة تمكّن حورس في الحقيقة من قتل شطا، ووضعه عند قدميّ والده، وبذلك خلّص العالم من شروره. يقول النص (وها هو ذا حورس قد وضع أعداءك عند موطئ قدميك).

استطاع حورس أن ينتقم من أعداء والده، وأن يقطع رؤوسهم وأطرافهم، وأن ينتزع قلوبهم من أجسادهم. هذا هو ما فعله حورس، وكان المصريون يكرّرونه كل عام، في مواسم الاحتفال بعودة أوزير إلى الحياة، بعد أن كان قد مات، إذ كانوا يضعون خنزيرا أمام الآلهة عند أقدام تماثيلها [كتاب موريه عن ملوك وآلهة مصر]. يعود شطا إلى الظهور في الأساطير المصرية، في شكل خنزير، عندما يبدو مرسوما بوضوح، في الأشكال والرسوم المصاحبة لكتاب الموتى، من الدولة الحديثة، وهو يعترض طريق المركب المقدّس، الذي يحمل أرواح الموتي، من الأرض في طريقهم إلى السماء، عابرين خلال الاثنتي عشر ساعة،

أو الاثنتي عشر منطقة ليلية، بين غروب شمس نهار، وبزوغ شمس النهار التالي.

يبدو أن عادة تقديم الأضاحي الحيوانية تقل تديجيا عبر القرون، حتى نصل إلى زمن المؤرّخ اليوناني هيرودوت، الذي زار مصر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، لنجد في الجزء الخاص بمصر في كتابه، أنه أثناء وصفه لطقوس الاحتفال بأعياد ذكرى موت وبعث أوزير، كانت الأضحية المقدّمة في شكل بقرة مصنوعة من الخشب، غالبا ستكون هي الصورة التقليدية للالهة حاتحور، التي عرفت في بعض المعابد المصرية (في إدفو مثلا) بأنها زوجة حورس. كانت مصر تمرّ بأزمة اقتصادية بسب الاحتلال الفارسي، لذلك يقول هيرودت إن مثل هذه التماثيل في أزمنة الرخاء كان يمكن أن تكون مغطّاة بطبقة من الذهب [هيرودوت الجزء الثاني الأعداد من ١٢٩ إلى ١٣٢].

أما ديودوروس الصقلّي الذي جاء لزيارة مصر في القرن الأول للميلاد، فيذكر في كتابه، أنه أثناء زيارته لمعبد دندرة، كان هناك احتفال بأوزير، ظهر فيه هذا الإله في شكل تمثال صغير، من النوع المومیائي المتقاطع الذراعين، لا يتعدّى طوله ذراعا واحدا (حوالي ٥٢ سنتيمتر)، وقد قام هذا التمثال الصغير، بعمل جولته التقليدية داخل المعبد، مصحوبا في موكب من الكهنة، وهو محمول فوق ظهر بقرة مصنوعة من خشب الجمّيز، وهو من الأخشاب كثيرة الانتشار في وادي النيل. هذه البقرة غالبا ستكون قريبة الشبه جدا من تلك التي شاهدها هيرودوت قبل خمسة قرون، فقد خرجت مصر من نير الاحتلال الفارسي، لتقع تحت نير الاحتلالين اليوناني ثم الروماني، وهكذا استمرّت الأوضاع الاقتصادية في التدهور.

فيما بعد سيتمّ وضع تمثال أوزير الصغير داخل بطن البقرة الخشبية، ثم يحدث أثناء طقوس الاحتفال أن يتمّ إخراج هذا التمثال الصغير من بطن البقرة الخشبية، كما لو أنها قد ولدته. ينبغي هنا أن نشير إلى أهمية البقرة في الديانة المصرية القديمة، فهي ليست فقط رمز العطاء، بل إن بعض أسقف حجرات الدفن في مقابر الملوك والنبلاء، تصوّر هذه البقرة، كما لو أنها كانت السماء، إذ تبدو أقراص الشمس الإثنا عشر، وكذلك الأشكال النجمية الاثنا عشر، هذه الأقراص والأشكال التي يبلغ مجموعها أربعة وعشرين، تكون منثورة بترتيب على بطن القبقرة، كما لو أنها القبّة السماوية التي تمثّل ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين.

إن الفكرة التي تصبح الأكثر وضوحا في الديانة المصرية القديمة، عند بزوغ فجر الديانة

المسيحية، هي فكرة أن إله الخير أوزير يضحّى به، بواسطة قوى شريرة، من أجل أن يكون فداًا للجنس البشري كله، الواقع تحت أسر القوى الشريرة، الشيطان سلطان الخطيئة [نص الإنجيل الذي يقول: هكذا أحبّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له حياة الأبد].

أما البقرة المقدّسة التي يولد داخلها هذا الإله الخيّر، فيحلّ محلّها طائر الحمامة المقدّسة، التي تسمّيها المسيحية الروح القدس، وهي الروح التي سيولد من خلالها، الطفل المقدّس يسوع ملك السلام. في نصوص الأناجيل تظهر الروح القدس مرات عديدة في شكل حمامة، أشهرها هو منظر تعميد يسوع المسيح في نهر الأردن، في بداية بعثته، على يد يوحنا المعمدان (النبي يحيى) [حسب نص الانجيل: يأتي صوت من السماء قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت]. ثم مرة أخرى هي عند ظهور المسيح لتلاميذه الخائفين المجتمعين في مكان مغلق، خمسين يوما بعد صعوده أمام أعينهم إلى السماء.

(٥)

صلب المسيح

الجموع التي كان المسيح قد خذلها، عندما أعلن أن مملكته ليست من هذا العالم، وأنه لن يكون ملكا دنيويّا، وعندما شكّكهم في عقائدهم التوراتية الموروثة، أصرّت الجموع على قتله، إمّا شنقا أو رجما أو صلبا، لكن المعتاد في معاملة المجرمين في ذلك الوقت كان أن يصلبوا، فذهبت الجموع الغاضبة إلى الرجل الذي كان على رأس السلطة الرومانية المحلية وهو بيلاطوس البنطي، تطالب بصلبه.

وحيث إن يسوع كان شخصا نكرة غير معروف الملامح، إذ إنه كان يذوب في الجموع المحيطة به، يلبس مثل فقرائهم ويأكل بيديه معهم جالسين على الأرض، فقد اتفق الكاهن (قيافا Caiafus) مع (يهوذا الاسخريوطي)، وهو أحد التلاميذ الاثني عشر، على الذهاب مع الجنود، إلى الموضع الذي به يسوع، ويقترب منه ويحتضنه ويقبّله على وجهه، حتى لا يخطىء الجنود ويقبضون على شخص آخر. وفعلا حدث كل ما كان الكاهن قد اتفق عليه مع يهوذا، مقابل ثلاثين من الفضّة، أي ثلاثين قطعة من العملة المعدنية. كان ثمنا رخيصا

لتسليم يسوع، وشعر يهوذا بالذنب، حتى أنه بعد وقت قليل قد يكون بضعة أيام، ذهب وشنق نفسه على جذع شجرة.

من المؤكّد وفقا لكل المصادر التاريخية، أن يسوع المسيح كان قد تمّ القاء القبض عليه، في مكان يعرف باسم بستان جثسيماني، على سفح منطقة جبلية على أطراف مدينة أورشليم، في الساعات الأول من فجر يوم الجمعة، من نهايات شهر أبريل، حوالي سنة ٣٤ ميلادية، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره وثلاثة أشهر، ثم اقتيد إلى القضاة والكهنة، بتهمة إثارة الجموع الفقيرة، ضد سلطات الاحتلال الروماني.

تصف الأناجيل الأربعة المعترف بها، عمليات الاهانة، إذ مزّق الجنود له ملابسه، وألبسوه تاجا من الشوك، ثم جلدوه، وقبل أن يحلّ وقت الظهر، وضعوا على كتفيه صليبا خشبيا ضخما، انهار تحت ثقله عدة مرات، في الطريق إلى موقع الصلب، فاعترض الطريق شاب قوي هو سمعان القيرواني، الذي حمل الصليب عن يسوع. تقول الأناجيل إن صلب يسوع كان مؤامرة دبّرها كهنة اليهود، الذين كانوا يعارضون تعاليمه، بالتواطؤ مع السلطات المدنية للاحتلال الروماني، التي ساءها أن يثير هذا المتمرّد، فقراء الشعب ضد أغنيائه، وضد سلطات الدولة الرومانية.

بعض المصادر الدينية اليهودية، مثل تلمود بابليون، الذي أُدْخِلت عليه تعديلات كثيرة، لأنه كان طوال الوقت في حيازة الكهنة، تذكر أن يسوع المسيح مات مشنوقا على جذع شجرة، في حين أن بعض المصادر الدينية الأخرى، مثل سجلات السنهدرين، وهي الأخرى كان من الممكن إدخال تعديلات عليها، تذكر أنه تمّ رجمه بالأحجار حتى الموت.

الا أن المصادر التاريخية الأصلية authentic، مثل كتابات مؤرّخي القرن الأول للميلاد، التي حفظت في المكتبات العامة والخاصة، بالاضافة إلى مصادر الادارة الرومانية، التي اعتادت في ذلك الوقت على صلب المجرمين، والتي بلغ عدد من صلبتهم، خلال ستة قرون من الاحتلال الروماني، لدول شرق حوض البحر المتوسّط، أكثر من مئة ألف مصلوب، تذكر اسم يسوع المسيح الناصري، أي من بلدة الناصرة، في سجلاّت المصلوبين.

تخلّى عنه الجميع، حتى بطرس أقرب تلاميذه اليه، وهو التلميذ الوحيد الذي طلب منه يسوع قبيل موته، أن يكون رئيسا للكنيسة التي ستقام بعد موت يسوع، حتى بطرس أنكره ثلاث مرّات في ليلة الصلب. الوحيدات اللائي بقين إلى جواره هنّ المريمات الأربع، مريم

أمّه، ومريم المجدلية العاهرة التائبة، ومريمتان أخريان غير معروفتين. هذا يجعلنا نتذكّر على الفور أن جثّة أوزير، قبل أن تردّ اليه روحه، كانت تحرسها أربع نساء، هنّ زوجته إيزيس، وأخته نفتيس، بالاضافة إلى الثالثة سيلكيت والرابعة نيت، وهما من آلهة الحراسة في مصر القديمة، حتى أن نيت لم تكن تصوّر إلا وهي ممسكة بالقوس والأسهم، استعدادا لاطلاقها على الأعداء.

كانت هناك أقلية ضئيلة من الشعب الفقير، قد يكونون بضع مئات، ذهبت إلى موقع الصلب، لالقاء نظرة أخيرة على ذلك الشخص الغريب، الذي أضاء نور الأمل في العدالة السماوية، في قلوبهم الحزينة، ولو لفترة وجيزة لم تتعدَّ الثلاث سنوات. عندما صرخ يسوع صرخته الأخيرة وأسلم الروح إلى بارئه، صرخ هذا الجمع الضئيل، وبدأ الرجال منهم يضربون صدورهم بقبضات أيديهم، وبدأت النساء منهنّ في العويل وفي تمزيق الشعور. يذكر هذه التفاصيل أحد الأناجيل التي أصبحت فيما بعد ممنوعة، وهو إنجيل نيقوديموس. لكن هذا أيضا يذكّرنا بأن موكب الباكيات النائحات في مسرحية موت وبعث أوزير، كنّ يفعلن نفس الأشياء.

هناك أيضا تقليد مصري آخر تمّت ممارسته عند موت يسوع، إذ إنه لم يدفن في الأرض مباشرة على عادة اليهود، بل وُضِعَت جثّتُه في تابوت خشبي، كان قد تمّ شراؤه له في يوم صلبه [معلومات وردت في كتاب، تعود مخطوطته الأولى إلى النصف الأول من القرن الثاني للميلاد، وهو لمؤلف يدعى ميلتون Meliton السرديني، أي أنه كان من جزيرة سردينيا الايطالية]. النص السرديني يصف تابوتا خشبيا، قريب الشبه جدا من التابوت الخشبي، الوارد ذكره قبل ستّة قرون، أي في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، في كتاب هيرودوت المعنون التاريخ، في جزئه الثاني العدد ٧٨. وهو نفس وصف التابوت الوارد في نسخة بلوتارخوص لأسطورة أوزير وإيزيس.

هناك بعض التفاصيل الأخرى، جاءت في إنجيل متى الاصحاح ٢٧، في الأعداد من ٥٧ إلى ٦١ التي تقول (ولمّا حلّ مساء – الجمعة – جاء رجل غني من بلدة الرامة، اسمه يوسف، وكان أيضا تلميذا ليسوع، فتقدّم إلى بيلاطس البنطي، يطلب منه – استلام – جثمان يسوع، فأمر بيلاطس أن يعطى له، فأخذ يوسف الجثمان، وكفّنه بكتّان – مصري – نقي، ودفنه في قبره – قبر يوسف – الجديد، الذي كان قد حفره في الصخر، ودحرج حجرا كبيرا على باب

القبر، ثم ذهب. وكانت هناك مريم المجدلية، ومريم الأخرى – ؟ – جالستين تجاه القبر). أضاف القديس مرقص في انجيله، الاصحاح ١٥ الأعداد من ٤٢ إلى ٤٧، تفصيلة إضافية، وهي أن يوسف من الرامة كان عضوا في المجمع، الذي يعتقد البعض أنه السنهدرين، والبعض الآخر أنه أحد المجالس المحلية لا أكثر.

ثم جاءت فيما بعد مرحلة محاولة تهويد النصوص، بهدف جذب أكبر عدد من اليهود، إلى اعتناق الديانة الجديدة. أضاف لوقا في انجيله، أن الرامة هي من المدن اليهودية، ثم لا يذكر أسماء النساء المريمات اللائي كنّ عند القبر، وهي الأسماء التي يظهر فيها بوضوح التأثير المصري القديم، حيث إن مريم هي في الأصل مري للذكر ومريت للأنثى. ثم يؤكّد لوقا في إنجيله الاصحاح ٢٣، الأعداد من ٥٠ إلى ٥٦، أن لا أحد ذهب إلى القبر يوم السبت، لأنه لا يصح وفقا للطقس اليهودي، مغادرة المنازل في يوم السبت.

أما إنجيل القدّيس يوحنا فيضيف تفاصيل أخرى لم ترد إلا فيه، الاصحاح ١٩ الأعداد من ٣٨ إلى ٤٢، فيقول إن هناك شخصا اسمه نيقوديموس، قد ذهب إلى القبر، بالاتفاق مع يوسف الآرامي، ومعه بعض المراهم طيبة الرائحة بغرض دهن الجسد بها، مؤكِّدًا أن هذا قد تمّ وفقا للطريقة اليهودية، في دهن أجساد الموتى.

وقد ورد في كتابين قديمين هما الإنجيل وفقا لنيقوديموس، وكتاب عظات وارشادات للفيلسوف المصري القبطي أوريجانوس، أن يسوع المسيح الذي دُفِنَ يوم الجمعة، نزل إلى العالم السفلي يوم السبت، حيث أصبح الها للأموات، ثم عاد إلى عالم الأحياء صباح الأحد، وبذلك أصبح كذلك الها لكل من بعثوا من الموت. وهذا هو تماما ما فعله أوزير، الذي تمّ تلقيبه باله الموتى، ثم لُقِّب بعد ذلك كذلك إله الأحياء، أي أنه كان يحمل اللقبين. عند صعود المسيح من القبر، وجد المريمات أنفسهنّ في انتظاره، وهو تماما ما حدث مع أوزير، الذي عند صعوده من القبر وجد الآلهات الحاميات الباكيات الفرحات إيزيس ونفتيس وسيليكيت ونيت في انتظاره.

الفصل الثامن
أعياد شعبية

(١)

شم النسيم

كانت كل فئات الشعب المصري تشارك، في طقوس الاحتفالات القومية بعودة أوزير إلى الحياة، وقد تغيّرت مواعيد هذه الاحتفالات عبر القرون لسبب أو لآخر، ثم حدث كذلك أن تحوّل الشعب المصري كله إلى المسيحية ثم إلى الاسلام، ولكن ظلت التقاليد والمعتقدات المصرية القديمة، راسخة في الوجدان الجمعي للشعب المصري بكل فئاته. فلو قرأنا ما كتبه هيرودوت عن الشعب المصري في القرن الخامس قبل الميلاد، بخصوص الاحتفال بالأعياد الشعبية، ثم ذهبنا في رحلة لزيارة مصر المعاصرة في القرن الواحد والعشرين، وشاهدنا مظاهر الاحتفال بالأعياد الشعبية، لاعتقدنا أننا قد عدنا إلى زمن هيرودوت.

وأكثر الأمثلة الدالة على صدق المقولة الواردة في الفقرة أعلاه، هي مظاهر الاحتفال بالعيد القومي المعروف باسم (شمّ النسيم). فإن الاحتفالات الخاصة بكل آلهة مصر القديمة، كانت بالضرورة تشتمل على، رحلة بالمراكب الشراعية في النيل، سواء أكان هذا يتعلّق بالاحتفال بأعياد الربيع، في زمن الإله آمون في الدولة الحديثة، حين كان ينتقل على مراكبه في موكب بين الكرنك والأقصر، أو في زمن أوزير حتى العصر المتأخر، حين كان الناس يحجّون إلى أبيدوس بمراكب شراعية في النيل. هل يمكن هنا أن نشير إلى صلة المركب بمعتقدات دينية توراتية أخرى، تشير إلى أن فلك نبيّ الله نوح كان قد أنقذ البشرية من الهلاك في الطوفان؟

من الطبيعي أن يكون النيل هو شريان الحياة الرئيسي في بلد مثل مصر، لأنه هو الذي يمدّها بالماء اللازم للحياة ولريّ الأرض، حتى أن المصريين عبدوه كأحد آلهتهم من واهبي الخير والنماء، ويظهر غالبا على جدران المعابد في شكل صفوف من الرجال، يحمل كل منهم اسم احدى مقاطعات مصر، التي كان يتعدّى عددها الأربعين مقاطعة، وهم رجال مختّثون لهم أثداء نساء، وبطون منتفخة لنساء حوامل، هكذا تصوّر المصري القديم شكل إله الخصوبة. كان النيل كذلك هو وسيلة المواصلات الرئيسية، للانتقال بين المدن التي كان يقع أغلبها على ضفاف النيل، أو حتى للانتقال بجثث الموتى، من الضفّة الشرقية حيث المدن، إلى الضفة الغربية حيث المدافن، في بداية الرحلة الأخيرة إلى العالم الآخر.

من بين العناصر الفولكلورية التي لا تزال باقية، خاصة في صعيد مصر، من الممارسات الشعبية المرتبطة باحتفالات موت وبعث أوزير، هناك المصارعات الرمزية التي تتمّ بين الرجال، باستعمال العصيّ أو الهراوات أو أحيانا دبابيس القتال ذوات الرأس المنتفخ، ويسمّونها في مصر حاليا التحطيب. وكانت تلك المعارك الرمزية تدور بين مؤيّدي حورس من ناحية، ومؤيّدي الشرير شطا، من ناحية أخرى. كان الصراع يدور حول محاولة أعوان شطا، منع مركب أوزير من العودة إلى داخل المعبد، بعد أن تكون قد قامت بجولة حول المعبد، أو بجولة في مياه النيل في المنطقة القريبة من المعبد.

وحيث إن مركب أوزير هو مركب رمزي غالبا ما يكون صغير الحجم، فهو غالبا ما كان يتنقّل بين الأمكنة، على أكتاف الكهنة، وعندما يبحر في النيل كان يوضع داخل مركب آخر حقيقي أكبر حجما. عند عودة المركب إلى المعبد، يتراجع الذين يلعبون أدوار مؤيّدي شطا، أمام أولئك الذين يلعبون أدوار مؤيّدي حورس، وبذلك يتمكنون أولئك الأخارى من الاحتفال بالعودة المنتصرة لأوزير. يجعلنا هذا الطقس نعيد التفكير في غلق هيكل الكنيسة ثلاثة أيام، بين الجمعة الحزينة وأحد القيامة، ثم إعادة فتحه بين تهليل الجمهور الكنسي، بعودة يسوع إلى الحياة، بعد أن كان في عالم الأموات. الانتصار الرمزي على أعداء الحياة [كتاب تاريخ الأديان/ الجزء الثالث/ اتيان دريوتون/ باريس ١٩٥٥].

لم تتغيّر الأوضاع كثيرا في مصر القرن الواحد والعشرين، فلا يزال المصريون من مسلمين ومسيحيين، يحتفلون بعيد موت وبعث أوزير، وهو أكثر الأعياد شعبية على الاطلاق، وهو دونا عن كل الأعياد القومية التي تتشارك فيها كل فئات الشعب، من الطبقات والديانات

المختلفة، مثل أعياد النصر أو الجلاء أو رأس السنة الميلادية، يحتفي به المصريون بشكل خاص، وتكون له فرحة خاصة.

هذا العيد هو شمّ النسيم، ويأتي دائما في يوم الاثنين، التالي على احتفال الأقباط بذكرى أسبوع آلام وجمعة صلب يسوع المسيح، وأحد قيامته من بين الأموات. وفيه يخرج المصريون إلى الحدائق وشواطىء البحار، وخاصة إلى ضفاف النيل، منذ الصباح الباكر، لاستنشاق نسيم الهواء العليل، الذي يعلن جغرافيا مقدم الربيع، وبوادر دفء المناخ العام في مصر، بعد انتهاء برودة الشتاء. هذا هو التفسير الرسمي لعبارة (شمّ النسيم).

الا أن الحقيقة هي أن المصريين القدماء كانوا هم كذلك يحتفلون بهذا العيد، الذي كان معروفًا منذ ما لا يقل عن ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد بنفس الاسم. تذكر نصوص الأهرامات من القرن السادس والعشرين قبل الميلاد، أن كلمة (شمّ) تعني مشي، أي حركة القدمين في الذهاب والعودة، أو الخروج من المكان سويّا في موكب من البشر [معجم مفردات اللغة المصرية القديمة/ من تأليف إيرمان وجرابوف/ طبعة ١٩٣٠/ صفحات ٤٦٣ إلى ٤٦٦].

أما كلمة (نشمت neshmet) فهو الاسم الذي كان يطلق على المركب المقدّس، الذي ينتقل فوقه تمثال الاله، داخل وخارج المعابد المصرية، وهو كذلك الاسم الذي كان يطلق على المراكب، التي كانت تحمل الحجّاج من أقاليم مصر المختلفة، إلى مركز عبادة أوزير في أبيدوس، ثم أصبح كذلك الاسم الذي يطلق، على المراكب التي تعبر بالموتى، من الضفّة الشرقية للنهر حيث يعيش الأحياء، إلى الضفّة الغربية للنهر، حيث (يعيش) الأموات [نصوص التوابيت/ نسخة فولكنر] وكذلك [قاموس اللغة المصرية في العصر المتأخر/ من تأليف ليونارد ليسكو/ ١٩٨٤].

الا أن هناك حقائق لغوية أخرى، هي مثلا أنه في اللغة العربية، كلمة (نسمة) تطلق على النسيم الذي يهبّ ناعما فوق مياه النيل، وهي كذلك نفس الكلمة التي تعني (نسمة الحياة)، أي النَفَس الذي يخرج من الإنسان عندما يسلم الروح، وهي بالتالي تعني كذلك (الروح) أو (الأرواح) أو (البشر كلهم)، عندما يذكر مثلا عدد سكان أحد البلاد فيقال مليون (نَسَمة) [لسان العرب/ لابن منظور/ نسخة الدار المصرية للتأليف والترجمة/ الجزء رقم ١٦/ الصفحات من ٥١ إلى ٥٣]. إذن فإن هذه العبارة (شم النسيم) تعني في نفس الوقت، موكب المركب المقدّس لأوزير، ذهابا من المعبد إلى النيل، وعودة من النيل إلى المعبد. وتعني

كذلك نزهة الأرواح.

من الجدير بالذكر أن مراكز الحجّ السنوي، بمناسبة عيد فصح أوزير، أي عيد عبوره من عالم الأموات إلى عالم الأحياء، كانت متنقّلة. فمثلا تذكر نصوص الأهرامات (دولة قديمة) ونصوص التوابيت (دولة وسطى)، أن مراكب الحجّاج، كانت تصعد النهر، في اتجاه الجنوب، وصولا إلى أبيدوس، مركز عبادة أوزير. إلا أن هيرودوت عندما جاء إلى مصر حوالي ٤٥٠ ق م، ذكر ان مراكب الحجّاج، كانت تهبط النهر، في اتجاه بوباسطس، وهي تل بسطة الحالية بالقرب من مدينة الزقازيق، وكانت قد اكتسبت أهمّية خاصة، منذ أن أصبحت القطة باسطت هي احدى الالهات القومية في مصر، منذ الأسرة الثانية والعشرين. ثم ظهرت نسخ من أسطورة إيزيس وأوزريس، لتقول إن إيزيس كانت قد ذهبت في هذا الاتّجاه، أثناء بحثها عن أشلاء زوجها (المتفسّخ) الجسد [المرشد إلى الآثار المصرية/ من تأليف فانديه/ نسخة باريس ١٩٦٩].

(٢)

الفصح اليهودي

كانت كل هذه الممارسات المصرية، قد انتقلت عبر العصور، إلى كل الدول المحيطة بمصر التي كانت تخضع ثقافيا لمصر، وتتبعها سياسيا لفترات طويلة. من المهم الاشارة هنا إلى أن الاغريق القدماء، كانوا قد جاؤوا إلى مصر منذ نهاية عصر الأسرات، في حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد، للعمل في مصر التي كانت أحوالها الاقتصادية أكثر ازدهارا من أحوال بلاد اليونان، ثم بعد ذلك لبناء مدن يونانية استقرت فيها الجالية اليونانية المتزايدة العدد، مثل مدينة نوكراتيس المقامة على فرع رشيد، ليس بعيدا عن مدينة شبراخيت الحالية.

دعونا نتحدّث هنا مثلا عن تأثير الممارسات والمعتقدات المصرية، على قبائل البربر الأمازيج التي أقامت في شمال أفريقيا قرونا طويلة قبل الفتح العربي. عند العديد من هذه القبائل التي أقامت فوق مرتفعات جبال الأطلس، وَجَدت الحفائر الأثرية الكثير من الأدلة، على وجود صور وأشكال ورسوم وكلمات، تدلّ على عبادة أوزير، وعلى ممارستهم تقديم عجل مقدّس (أبيس) كذبيحة، ثم ارتداء الكاهن الأعظم لجلد هذا الحيوان كرداء يعلّق على

الكتفين ، ويغطّي الظهر، مثلما كان يفعل كهنة مصر القديمة، هذا الاحتفال لديهم يسمّى (تا فاسخا)، والتا في اللغة المصرية هي أداة تعريف مثل الألف واللام. [كتاب عن ممارسات قبائل البربر وعلاقتها بعبادة أوزير بعنوان (الصقر المقدّس) إشارة إلى حورس/ من تأليف مارتا روسبولي/ مطبوع في جينيف بسويسرا/ سنة ١٩٦٩].

في فاس بالمغرب، يتمّ الاحتفال بعاشوراء (ذكرى مقتل الحسين)، بواسطة موكب يمرّ عبر المدينة، عبارة عن مركب خشبية محمولة على عجلات، تشبه نوعية المراكب التي استعملها المصريون القدماء، في مواكب خروج أوزير من المعبد وعودته اليه، هذا المركب يدفعه جمهور الموكب أمامه، يحمل على متنه ثعبانا يشبه الكوبرا المشهورة في المعابد المصرية، لكنها ذات رأس بشري. العجيب هو ان اسم هذا الثعبان هو صطا (ست/ سيتوس/ شطا).

أما نساء مدينة فاس فيتبعن الموكب وهنّ نائحات منتحبات باكيات، يمزّقن بشرة وجوههنّ بأظافر أصابع أيديهنّ. في المساء يتمّ دفن تمثال صغير لرجل يسمّونه عاشور في التراب. هنا يجدر بنا أن نلاحظ التشابه بين الاسمين فالأول أو/ زير والثاني عا/ شور. الأعجب من كل هذا هو ما يقوم به شباب المدينة، صباح اليوم التالي لدفن التمثال في التراب، إذ يخرجون التمثال من التراب، كأنه فعل رمزي يدل على القيامة من بين الأموات [كتاب مارتا روسبولي].

ثم إن اليهود العبرانيين (أي أولئك الذين عبروا – عيبيرو/ هيبيرو Hebrew – البحر عند برزخ السويس مع نبيّ الله موسى)، هروبا من أرض مصر حيث العبودية، إلى أرض الميعاد، التي وعدهم بها يهوه منذ زمن سيدنا ابراهيم، هؤلاء اليهود لم يكونوا قادرين على مقاومة تأثير عبادات ومعتقدات مصر القديمة، التي عاشوا فيها ما لا يقل عن أربعة قرون، على عباداتهم ومعتقداتهم. فللاحتفال بعيد عبور البحر، pass acqua/ باسكوا/ بصخة/ فصح، كانوا يذبحون حيوانا كتقدمة أو كقربان إلى الربّ، ويسمّونه بساح Pesah، ويقدّمون معه نوعا من الخبز غير المتخمّر ويسمّونه ماسّوت Massot/ مازّوت.

وقد ساد الاعتقاد لفترة طويلة، أن عيد الفصح اليهودي كان الاحتفال به سابقا على زمن خروج شعب اسرائيل من مصر exodus، مع نبيّ الله موسى، في القرن الثالث عشر ق م، بل حتى أنه كان سابقا على زمن الهجرة إلى مصر في القرن الثامن عشر ق م، على زمن نبيّ الله

يوسف. فلنقل إذن إنه يعتبر واحدا من أقدم أعياد اليهود، منذ الزمن الذي كانوا فيه قبائل رحّل nomads، يرعون الأغنام ويتنقّلون وراء الكلأ، فقط كرعاة أغنام pastoral، في المناطق على تخوم الصحراوات، حيث تنمو الأعشاب البرّيّة. في ذلك الوقت كان اليهود يكتفون بتقديم ذبيحة حيوانية، بساح Pesah.

أما بعد زمن سيّدنا ابراهيم، فقد استقرّت هذه القبائل اليهودية الأولى، في أرض كنعان، وبدأت في الاعتماد على زراعة الأرض كنشاط رئيسي، وزراعة القمح كمحصول رئيسي. هنا تحوّل العيد من الظواهر الرعوية وتقديم الذبائح الحيوانية، إلى الظواهر الفلاحية agricol، وتقديم الخبز الماسوت Massot كمنتج نهائي للقمح المزروع، وأصبح اليهود يحتفلون بالفصح في يومين متتاليين، هما ١٤ و١٥ نيسان/ أبريل، لعيدّ البساح والماسوت، مثلما يفعل الشعب المصري حتى الآن، في يومي عيد القيامة، وعيد شمّ النسيم [كتاب أعياد الربيع عند القبائل السامية الكنعانية/ للمؤلف جوزيف هينينجر/ من مطبوعات جابالدا/ باريس ١٩٧٥].

لهذا السبب التحديد، ألا وهو توقّف اليهود خلال قرون طويلة عن الاحتفال بعيد الفصح، يمكننا أن نقول إن تأثير مصر القديمة على المسيحيين، بخصوص احتفالهم بالفصح المسيحي، كان قد مرّ مباشرة من الديانة المصرية إلى الديانة المسيحية، دون أن يكون قد مرّ بمرحلة وسيطة خلال العصر اليهودي. إن الأفكار المؤسّسة في الديانتين المصرية والمسيحية واحدة، في حين أن هذه الأفكار المؤسّسة تعتبر تجديفا في الديانة اليهودية. من بين هذه الأفكار فكرة (موت الربّ) ثم (بعثه من بين الأموات)، وكذلك فكرة أن يتوحّد الإنسان مع الربّ بأن (يأكل من لحم الربّ ودمه).

حتى عندما يعود اليهود إلى الاحتفال بأعياد الفصح، بعد توقّف عن الاحتفال به دام قرونا طويلة، فإنهم لا يذكرون في تلك المناسبات أي شيء، عن كونه الاحتفال بموت وبعث أوزير، فهم لم يعودوا يذكرون أوزير، وإنما هم يحصرون معناه أو قيمته، في ذكرى خروجهم من أرض العبودية في مصر، الزمن الذي أنقذهم فيه الههم يهوه من العبودية، ومنحهم الحرّية والعهد بينه وبين شعبه المختار، بأن سمح لموسى بمعجزة شق مياه برزخ السويس في البحر الأحمر، ثم أعطى لموسى لوحيّ الوصايا العشر والشريعة الموسوية، المحفوظين منذ الأزل على قمّة جبل التجلّي. وأنهم بالتالي سمّوا العبرانيون لعبورهم هذا البحر، وكذلك لعبورهم

من العبودية إلى الحرية، أي لخلاصهم وخلاص حيواتهم.

أما الفصح المسيحي فيحتفظ بكل الأفكار المؤسّسة للديانة المصرية الأوزيرية القديمة، مع فارق واحد هو استبدال الشخصية الرئيسية في الرواية، فبدلا من أن يكون المقصود هو أوزير، أصبح المقصود هو المسيح. وقد ساعد في وضوح هذا التطوّر في الديانتين، أن هناك وجه شبه آخر بين الفصح المصري والفصح المسيحي، خاصة في الفترة اليونانية الرومانية بين القرنين الثالث ق م والثالث الميلادي، عندما توقّفت المعابد المصرية، عن تقديم ذبائح وأضحية حيوانية إلى الأرباب، حيث أقرّ كهنة المعابد أن الصلوات في معابد أوزير وايست، يمكنها أن تحلّ محل الأضحية. وهذا هو ما حدث بالضبط في الكنيسة عندما توقّف الناس تماما عن تقديم الأضحية، ووقفوا أمام الإله يطلبون منه في خشوع صلواتهم، كل ما يعتقدون أنه قادر على تحقيقه لهم.

فإذا كان أوزير شخصية حقيقية، عاشت في وقت ما في عصر ما قبل الأسرات، الممتد ألف عام تقريبا بين ٤٢٠٠ ق م و٣٢٠٠ ق م، تمّ تحويلها أولا إلى بطل قومي ساهم في انتصار الجنوب على الشمال وبالتالي في توحيد القطرين، ثم تمّ بعد ذلك تحويلها إلى اله، يصبح رمزا لانتصار الإنسان على قوى الشر، ثم رمزا لانتصاره على الموت ومن ثمّ بعثه وعودته إلى الحياة. فإن يسوع المسيح هو الآخر شخصية حقيقية، عاشت في بدايات القرن الأول للميلاد، وكانت معروفة لسكّان فلسطين على زمن الاحتلال الروماني، وذكرت أفعالها التحريضية على التمرّد في بعض المصادر الرومانية، ثم تمّ تحويلها هي الأخرى إلى رمز لانتصار الإنسان على الظلم الاجتماعي، ثم على الموت، بعد معاناة قصيرة مؤلمة بين جلد وصلب.

ثم تمّ تحويلها بعد موتها وقيامتها من الأموات إلى اله، تحوّل خلال فترة مؤقّتة إلى بشر، حتى يعطي للانسان الفاني الأمل في الانتصار على الموت، ثم أُدْخِلت لاحقا تفاصيل أخرى تتعلق بغفران الخطيئة الأولى، خطيئة عصيان الربّ، التي ورثها الإنسان عن أبينا آدم [قاموس اللاهوت الكاثوليكي/ الصادر عن الفاتيكان سنة ١٩٢٣/ الجزء الثامن/ مادة يسوع المسيح، وكذلك كتاب المرشد إلى المعتقدات المسيحية بين الكاثوليكية والبروتستانتية/ للمؤلف كارل بروم/ الصادر في ألمانيا سنة ١٩٥٤/ الصفحات ٣١٠ إلى ٣١٢].

المشكلة هي في عدم قدرة المؤرّخين لفترة طويلة، تحديد التاريخ السنوي للاحتفالات،

التي استقرّت حاليا حول الأسبوع الأخير من شهر أبريل/ نيسان، وذلك بسبب أن تقويم الأعياد في مصر القديمة، اختلف كثيرا عدّة مرات خلال ثلاثة آلاف عام، وفقا للأسرة الحاكمة ومقر العاصمة، وكذلك وفقا لاختلاف الأهميّة النسبية للآلهة المصريين عبر العصور، وقرب مقرّ عباداتهم أو بعده عن العاصمة. مثلا عندما كانت منف هي العاصمة في الدولة القديمة، كان (بتاح/ فتّاح) إله منف هو الإله القومي لمصر كلها، ثم عندما أصبحت طيبة/ الأقصر هي العاصمة في الدولة الحديثة، أصبح (آمون/ آمين) إله الكرنك هو الإله القومي لمصر كلها [كتاب معجم المصريّات Lexikon der Agyptologie/ للمؤلف هارتويج آلتن مولر/ ألمانيا ١٩٧٧/ مادة الأعياد].

إذن فقد اختلفت الآراء كثيرا حول زمن الاحتفال بعيد بعث أوزير. ففي نصوص معبد دندرة الذي يقع بالقرب من مدينة قنا، ويعود بناؤه إلى عصر البطالمة، التي سجّلها شاسينا Chassinat، كان الاحتفال بعودة أوزير إلى الحياة، يقع تقويميّا في نهاية شهر ديسمبر/ كيهك (الموعد الكاثوليكي لميلاد الطفل يسوع). كذلك في نصوص معابد مناطق أخرى مثل منطقة سقّارة، التي تقع في محافظة الجيزة إلى الجنوب من مدينة القاهرة، حيث كان قد حدث توحّد بين أوزير كإله قومي للموت والبعث، مع إله آخر محلّي للموت والبعث هو سقر/ سوكر، كان يُعْبد في صورة التمساح، الذي كان الاحتفال به هو الآخر يحدث تقويميّا في نهاية شهر ديسمبر/ كيهك. كما سجّلت نصوص التوابيت من الدولة الوسطى هي الأخرى، هذا الاحتفال في ديسمبر، حسب النصوص التي جمعها لنا فولكنر.

وكان المؤرّخ والرحّالة اللاتيني بلوطارخوس، قد ذكر في كتاباته احتفالا ببعث أوزير، كان يحدث أثناء زيارته لمصر في شهر نوفمبر، وقد سجّلته ترنيمة إلى ايزيدورا، المدفونة في مقبرة مهمّة في موقع جبّانة مدينة عرفت في الزمن اليوناني الروماني باسم هرموبوليس ماجنا، وهي حاليا مدينة الأشمونين بالقرب من ملّوي في صعيد مصر، وجبّانتها معروفة باسم تونة الجبل.

أمّا حسب عالم المصريات الفرنسي فانديه Vandier، ففي بردية رقم ١٧١١٠ من برديات متحف اللوفر في باريس، نجد وثيقة من العصر البطلمي، تعود تاريخيا إلى النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، تنصّ على أن الاحتفال بموت وبعث أوزير، كان يقع في ١٩ أبريل/ برمهات من ذلك العام الذي كتبت فيه هذه البردية، ويذكر كاتبها أن هذا كان

بسبب أنه اليوم الذي كان قد تمّ فيه العثور على رأس أوزير المفقودة في موقع معبده الحالي في أبيدوس. هذا التاريخ الأخير هو الأقرب إلى التاريخ الذي ستحتفظ به كل كنائس العالم في كل طوائفها، الأسبوع الثالث من شهر أبريل.

(٣)

الاحتفال بليلة الخروج

عند قراءة سفر الخروج بانتباه، وهو السفر الثاني من أسفار التوراة، الذي كتبه نبيّ الله موسى، يمكننا بسهولة أن ندرك، أن شعب اسرائيل قد خرج من مصر، أثناء احتفال المصريين، بأسبوع آلام وموت وبعث أوزير، وهو في عام الخروج ينطبق على توقيت الأسبوع الأخير من شهر أبريل [كتاب الديانة المصرية/ للمؤلف اتيان دريوتون/ ١٩٥٥]. يذكر سفر الخروج الاصحاح الثاني عشر الأعداد من ٢٩ إلى ٣٤، أن خروج شعب اسرائيل من مصر كان أثناء الليل. في ذلك الوقت كانت مصر في حداد قومي، لأن كل أسرة مصرية كانت قد فقدت ابنها البكري. هذا هو ما يقوله العدد ٣٠ من الاصحاح ١٢.

كان كهنة المنفى قد أقنعوا الشعب اليهودي بعد الخروج، أن يهوه إلههم قد انتقم لهم ممن ظلمهم، بقتل الأبكار. وهو ما لا يمكن الدفاع عنه أو التمسّك به أو حتى مجرّد قبوله، على أي مستوى، لا أخلاقيا ولا دينيا ولا حتى تاريخيا. أولا: هل هذه هي أخلاق الآلهة؟ قتل الأبكار البريئة لمجرّد كونهم مصريين؟ هل وصلت العنصرية والتعصّب بيهوه إلى هذا الحدّ؟ ثانيا: ليست هناك حتى الآن، بداية القرن الواحد والعشرين، في أي سجلات مصرية أو غير مصرية، أو في كتابات أي مؤرّخ في أي عصر من العصور، أي ذكر لوقوع هذه الكارثة على أبكار المصريين.

وإنما هي اللعبة نفسها، التي يلعبها كهنة كل ديانات العالم، ويتلاعبون بواسطتها بكل عقول شعوب العالم، عندما يقنعون هذه الشعوب، بأن الربّ هو في صفّهم وحدهم فقط لا غير، فهم وحدهم فقط لا غير ولا أحد غيرهم، شعب الله المختار، وخير أمّة أخرجت للناس، وأن الربّ سيقف معهم وحدهم فقط لا غير، ضدّ كل أعدائهم. نفس القصّة تتكرّر إلى ما لا نهاية في كل الديانات السماويّة وغير السماويّة، وليس على المؤمنين إلا أن يؤمنوا دون تفكير. تقول المسيحية (طوبى لمن آمن ولم يرَ)، أي كم هو سعيد الحظ ذلك الشخص،

الذي لم يرَ أي شيء، ولكنه رغم ذلك يؤمن بكل شيء، إنه المؤمن المثالي، ذلك الذي لا يسأل أسئلة كثيرة، لا داع لها، ولكنه يؤمن فورا بكل ما يقولونه له دون أسئلة. التطويب هنا دلالة على المدح والتقريظ.

الحقيقة التاريخية تقول إن شعب اسرائيل لم يكن مضطهدا في مصر، بل كان الفرعون دائما ما يخصّص لاقامتهم سويّا، مناطق مدنية لا تقل عن المناطق التي يقيم فيها المصريون، ويهبهم اقطاعات من الأراضي الزراعية، لا تقلّ في جودتها عن تلك التي يخصصّها للفلاحين المصريين. يقول الاصحاح ٤٧ من سفر التكوين في الأعداد من ١ إلى ١٢ (قال فرعون ليوسف، لقد جاء اليك أبوك وإخوتك، وأرض مصر أمامك، فأنزل أباك وإخوتك، في أفضل الأرض). وهناك الكثير من الأدلّة على صدق هذا الكلام، منها مثلا أن جزءا كبيرا من الشعب اليهودي، ظلّ يعيش في مصر، بعد خروج جزء آخر من الشعب اليهودي من مصر، مع نبيّ الله موسى.

هكذا تقول لنا بردية من زمن رمسيس الثالث، وهو الفرعون الذي حكم مصر بعد الفرعون مرنبتاح، الذي يعتقد الآن أغلب علماء المصريات، أن الخروج قد حدث في عصره. [من مقتنيات المتحف البريطاني بلندن/ البردية رقم ١٠٠٥٣/ مؤرّخة بالقرن الثاني عشر ق م]. ومن الأدلّة الأخرى أن الكثيرين من أفراد الشعب الذي خرج مع موسى إلى صحراء سيناء، كانوا يتآمرون على موسى ليتركهم يعودون إلى أرض الخير، بعد أن جاعوا كثيرا بسبب قلّة الغذاء، يتركهم يعودون إلى الأرض التي كانوا يأكلون فيها كل يوم حتى الشبع، حتى أنهم فكّروا في قتل موسى وهارون رجما بالحجارة [سفر العدد الاصحاح ١٤].

من المتعارف عليه في الوقت الحالي، أن النبي موسى لم يكتب شيئا من أسفار التوراة الخمسة الأوائل، التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية، لأنه عند موته مختفيا في الجبل ذات يوم، وكان قد بلغ من العمر أرذله، لم تكن هناك أية أسفار في أيدي اليهود، بل مجرّد مجموعة من الذكريات والأحداث التي تروى شفاهية من جيل قديم إلى جيل جديد. من المتعارف عليه حاليا أن تلك الأسفار الخمسة الأوائل، قد كتبها كهنة اليهود في زمن السبي البابلي، أي في أول عهدهم بالشتات اليهودي، الدياسبورا Diaspora، خوفا منهم على تاريخهم وعلى معارفهم وتقاليدهم من الضياع، خاصة عندما واجهوا حضارة عريقة في بلاد بابل وآشور.

كهنة اليهود كتبوا سفر الخروج، مع غيره من أسفار التوراة، في القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد، في بلاد أجنبية غريبة عليهم، أكثر منهم قوّة وحضارة، وهم لم يكونوا حاضرين في زمن الخروج مع موسى وهارون، لذلك فهناك مجال خصب لاضافة كل ما يحلو لهم إلى النصوص التوراتية، خاصة لو كان هدفهم مشروعا، وهو تعضيد هذا الشعب البائس، وجلب العزاء لهذا الشعب البائس، الذي تمّ سبيه بعشرات الآلاف، وعاني مئات السنين من العبودية، فلا أقل من أن تعزّيهم نصوص توراتهم، قائلة لهم إنهم شعب الله المختار، صاحب التاريخ الجبّار [نسخة توراة أورشليم المطبوعة سنة ١٩٨٣].

من المعروف كذلك أن اليهود الذين هربوا من أورشليم، عندما بدأ غزو الملك البابلي نبوخذ نصّر، في بدايات القرن السادس قبل الميلاد، لجؤوا إلى مصر ورفضوا أن يعودوا إلى أرض اليهودية في فلسطين/ اسرائيل، حتى عندما ذهب اليهم النبي أرميا لدعوتهم إلى العودة، قتلوه رجما بالحجارة [كتاب المؤرّخ اليوناني ترتليانوس Tertulianus، وكتاب ايزيدوروس هيسبالينسيس Isidorus Hispalensis]. وبالتالي كان على الكهنة من كتبة أسفار التوراة الخمسة الأوائل، خاصة كتبة سفر الخروج، الاساءة إلى مصر قدر استطاعتهم، بتشويه سمعة ملوكها، وإظهار عداوة أهلها لليهود. قد تكون تلك الطريقة فعّالة في إقناع اليهود المهاجرين إلى مصر بالعودة إلى أورشليم.

الحقيقة الوحيدة الصحيحة فيما يتعلق بشعب مصر، التي وردت في بداية سفر الخروج، هي أن هذا الشعب كان في حالة حداد قومي عام، فالنسوة يُنُحْنَ ويبكين ويمزقن شعر رؤوسهن، والرجال يصرخون وهم يضربون صدورهم بأذرعتهم، لكن ليس للسبب الذي ذكره سفر الخروج، مدّعيا أن المصريين كانوا حزانى لمقتل أبكارهم، بل هم كانوا حزانى بسبب الذكرى السنوية لأسبوع آلام وموت وبعث أوزير، التي كان يُحْتَفَلُ بها في هذا الوقت من نهايات شهر أبريل، (غالبا كان اليوم هو ٢٨ أبريل).

وكان نبيّ الله موسى المتمرّد على السلطات المصرية، قد أحسن اختيار توقيت الخروج، في هدوء تام وتحت ستار الظلام، في الوقت الذي انشغل فيه مئات الآلاف من المصريين عنه وعن شعبه، بحزنهم البالغ بذكرى موت أوزير، وبضرورة بقائهم في المعابد المصرية، لحراسة جثمان أوزير من أعدائه أعوان شطا. [كتاب سبيليرز Speleers عن نصوص الأهرامات].

(٤)

الخمسين

تعرف مصر خلال فصل الربيع، فترة تمتدّ عادة إلى خمسين يوما، بين منتصف مارس وأوائل مايو، تكثر خلالها فرص هبوب، رياح ساخنة جافة محمّلة بالأتربة قادمة من الصحراء، من الاتجاه الجنوبي الغربي، اتجاه الصحراء الأفريقية الكبرى، تحمل معها غالبا حشرات ضارة مؤذية للبشر، تتسبّب لهم في الاصابة بالعديد من الأمراض الجلدية، بالاضافة إلى إصابة البشر بأمراض العيون والجهاز التنفّسي، بسبب ذرات التراب التي تتخلّل كل شيء. الخماسين لا تهبّ طول الوقت، ولكنها تهبّ على دفعات متباعدة الأوقات، قد تهبّ خلال يومين متتاليين أو ثلاثة أيّام متتالية، ثم تنقطع لمدة أسبوع، وهكذا دواليك. وقد تختلف درجات الحراة في تلك الفترة بين ٣٠ درجة مئوية في أحد الأيام، وخمسة وأربعين درجة مئوية في اليوم التالي له.

في نفس ذلك الموسم من العام، ولفترة أطول خلال فصل الصيف، تهبّ رياح أخرى قادمة من الشرق، من الجزيرة العربية مرورا بالبحر الأحمر، تسمّى ريح السموم، تتسبّب هي الأخرى في إصابة السكّان بالعديد من الأمراض. هذه الأيام الخمسون، بين منتصف مارس وأوائل مايو، هي نفسها تقريبا الخمسون يوما، التي تفصل زمنيا بين عيد (قيامة المسيح من الأموات)، وبين (عيد العُنْصُرَة) أي عيد ظهوره لتلاميذه المجتمعين سويّا في مكان مغلق، خوفا من الجنود الرومانيين الذين يجوبون الشوارع بحثا عن التلاميذ، بعد خمسين يوما من قيامته، ثم الحدث الجلل الذي يقع أمام أعين حتى المتشكّكين منهم، أي صعوده أمامهم إلى السماء.

كان الناس في الأزمنة القديمة لا يجدون تفسيرا كافيا لهبوب مثل تلك الرياح، فكانوا غالبا ما يعزونها إلى غضب الأرواح الشريرة، التي تنشر الخوف والمرض بين نفوس البشر [كتاب الثقافات البدائية/ للمؤلف إدوارد تايلور/ طبعة لندن/ سنة ١٩٠٣، وكتاب الأشكال البدائية للممارسات الدينية/ للمؤلف إميل دوركايم/ طبعة باريس/ سنة ١٩٢٥]. في الأساس لا يجب أن ننسى، أن الشرير شطا كان في الأصل، الها للصحراء والرياح الساخنة والعواصف

والنار، وأن كل هذه الظواهر الطبيعية ارتبطت بشكل أو بآخر برياح الخماسين.

لكن كهنة اليهود الذين كتبوا أسفار التوراة، في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، على زمن السبي البابلي أو بعده، أقنعوا الشعب اليهودي، أن تلك الرياح التي لا تجلب إلى المصريين، إلا كل ما هو شرير وضار، هي من فعل الههم (يهوه)، الذي يكره كل البشر من خليقته، ولا يحبّ إلا شعبه المختار، وقد أراد بذلك أن ينتقم لشعبه المختار، من المصريين الذي أذلّوا شعبه المختار [كتاب مصر والتوراة/ للمؤلف بيار مونتيه/ طبعة نيوشاتيل/ سنة ١٩٥٩].

كانت هناك طقوس تمارس في المعابد المصرية، خلال فصل الربيع، يُقصد بها محاولة تجنّب أذى قوى الأرواح الشريرة، أو محاولة طرد الشياطين بالتعزيم عليها، وقد اختلطت هذه الطقوس في مصر القديمة بتلك الخاصة ببعث أوزير. كانت نصوص التوابيت ألفي عام قبل الميلاد، تذكر الشرير المدمّر الذي يقتنص أرواح المتوفّين، عند عبورها إلى العالم الآخر ويدمّرها.

كتاب الموتى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، يذكر أن الشرير الشيطان (شطا/ ست)، يتنكّر في شكل خنزير أسود اللون برّي دموي متوحّش، ليهاجم في الخامس عشر من الشهر القمري، النجوم حاملة الأرواح ويدمّرها. في مصر القديمة على زمن الدولة الحديثة، ألف وخمسمائة عام قبل الميلاد، كانت احدى نظريات ما يحدث في العالم الآخر، تقترح أن الموتى يسافرون إلى العالم الآخر على ظهر نجوم تخترق الفضاء الكوني في سماء الليل. حتى نصل إلى الزمن الذي يتمكّن فيه حورس الصقر ابن أوزير، من القبض على الخنزير وقطع رقبته.

من المفيد هنا أن نذكر أنه قبل أن يكون التقويم المصري شمسيا، كان قمريا مثل غيره من تقاويم الشعوب الصحراوية، التي تتمتّع سماواتها المسائية الصافية الخالية من السحب، بالليالي التي يشعّ فيها القمر ضوءه على كل الكائنات. وحيث إن أغلب المعابد المصرية كانت أفنيتها ذات سماوات مفتوحة، أي أنها كانت بلا أسقف، كان من الأجمل والأنفع الاحتفال بالمناسبات الدينية، مثل عيد موت وبعث أوزير، ولعب الأدوار المختلفة في مسرحية آلام وقيام أوزير، في أفنية المعابد، خلال الليالي التي يكتمل فيها القمر بدرا، في يوم منتصف الشهر القمري [كتاب نشأة الأبجديّات المستعملة في الكتابة/ للمؤلفة كريستيان زيجلر/ طبعة اتحاد المتاحف القومية/ باريس سنة ١٩٨٢].

بين القرنين الثالث عشر ق م والسادس ق م، كانت التجمّعات اليهودية الكبيرة تستطيع أن تقدّم ثيرانا كأضحية. أما بعد ذلك وخلال قرون السبي الثلاثة، ثم الشتات اليهودي في الأرض كلها، أصبحت التجمّعات اليهودية صغيرة العدد، فكانوا في تلك الحالات يكتفون بتقديم نعاج أو عنزات أو خراف صغيرة كأضحية. كل الشعوب البدائية القديمة، قبل زمن ظهور سيدنا ابراهيم وشعب اسرائيل بقرون طويلة، كانت تمارس حرفة رعي الغنم، وكانت معتادة على تقديم قرابين من الأغنام إلى أربابها. كانت تلك التقدمات او القرابين إمّا أن تحرق على محرقة، أو تذبح على مذبح.

كان إله النار مستعدّا دائما لأكل كل ما يقدّم له، فكان كهنة الشعوب البدائية يعتقدون أنهم، لو قدّموا اليه قربانا من الماشية، سيكتفي بها ولن يأكل البشر. أما في حالة ذبح الماشية على مذبح، فإنهم كانوا يتركون الدمّ يُراق سائلا على الأرض فتشربه، وكانت الأرض هي الأخرى احدى الآلهة التي ينبغي ارضاؤها [سفر الخروج الاصحاح ١٢ العددان ٤ و٥، كذلك تلمود بابل Pessahim]. يذكّرنا كل هذا بقصة النبي ابراهيم، الذي أراد أن يقدّم ابنه (اسحق حسب التوراة)، قربانا إلى الربّ يهوه، خاصة أنه كان قد طلبه منه بالاسم، ثم عندما أطاع ابراهيم الربّ، أرسل اليه الربّ شاة ليذبحها بدلا من الابن [سفر التكوين الاصحاح ٢٢].

أمّا الفِصْح اليهودي فهو أولا: بالاسم الذي عرف به منذ زمن الخروج وهو (باسكا)، وهو التحريف الذي وقع في الكلمة المصرية القديمة فسخة أو فسيخة، وتعني الجسم المفكّك الأوصال. وهو ثانيا: بتاريخ الاحتفال به حسب التقويم المصري القديم، الذي استمر هو هو نفس التاريخ لدى الشعب اليهودي، في شهر مقدم فصل الربيع، في ليلة اكتمال البدر من منتصف الشهر القمري. وهو ثالثا: من حيث الممارسات الطقسية التي انتقلت من مصر إلى اسرائيل، والتي تتمحور حول تقديم ذبيحة إلى الأرباب حتى تترك للشعب أوزير (المخلّص). وهو رابعا: من جهة كونه احتفالا يدوم خلال أسبوع، معروف باسم أسبوع آلام وموت وبعث المخلّص. واضعين في اعتبارنا كل هذه النقاط، يمكننا بسهولة القول بأن الفصح اليهودي هو نظام مصري، تعلّمه اليهود عن المصريين، خلال فترة إقامتهم الطويلة في مصر (أربعة قرون ونصف)، ثم انتقل معهم بعد الخروج من مصر، إلى أن اقاموا دولتهم في اسرائيل، على زمن ملوكهم العظام أمثال داوود وسليمان.

الفصل التاسع
الرموز

(١)

الصليب المصري

يمثّل الصليب رمزا من أهم رموز المسيحية، وليس هناك أدنى شكّ على الاطلاق في أنه لم يكن هناك أي وجود لأي صليب في أي معتقد يهودي، ولم يرد ذكر الصليب في أي سفر من أسفار التوراة، ولا في أيّة نبوءة من نبوّات العهد القديم، لأن الأنبياء اليهود لم يستطيعوا أن يتنبّأوا بأن اسرائيل/ فلسطين ستصبح يوما ما مقاطعة رومانية، وأن صلب المجرمين المدانين كانت مسألة شبه يومية في الإمبراطورية الرومانية، وأن روما ستقتل على الأقل ١٠٠ ألف شخص صلبا خلال ستّة قرون. ليس هناك أدنى شك في أن الصليب لم يظهر في فلسطين/ اسرائيل، إلا في زمن الاحتلال الروماني، كأحد أهم أشكال التعذيب والقتل التي مارسها الرومان ضد معارضيهم، وكذلك ضد بعض المجرمين الخطرين على أمن البلاد. في حين أنه ليس هناك أدنى شك كذلك، في ظهور شكل الصليب، في تراث مصر القديمة، منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، في شكل علامة الحياة والأبدية، المعروفة في اللغة المصرية باسم (عنخ).

بشكل عام كانت علامة الصليب في الكتابة المصرية القديمة، هي علامة الدلالة الرمزية ideogram إيديوجرام للشكل الإنساني، أي أن الرأس والجذع والساقين مضمومين هو المحور الرأسي، وأن الذراعين مفرودين هو المحور الأفقي، بحيث يتقاطع المحوران عند موضع القلب، بالقرب من الطرف العلوي للمحور الرأسي، وذلك لأن المسافة بين الرأس

والصدر، أقصر من المسافة بين الصدر ومستوى القدمين. هذه العلامة كانت لها الدلالة الصوتية phonogram فونوجرام لثلاثة حروف سواكن وِنِنْ wnn. أما اذا وضعنا رمز القلب أسفل هذا الشكل الصليبي المتقاطع، أصبحت العلامة للدلالة الرمزية ideogram على الجمال، وكانت لهذه العلامة قيمة صوتية phonogram تنطق بثلاثة حروف ساكنة هي نِفِر **nfr**، وليست هناك حروف متحرّكة بين الحروف السواكن، لكن في هذه الحالة تنطق السواكن بالكسر [كتاب قواعد الكتابة المصرية القديمة/ للمؤلف آلان جاردنر/ لندن/ ١٩٥٠].

بالتالي فإن العبارة التي تقرأ في الكتابة المصرية وِنِن نِفِر wnn nfr، تعني الإنسان الجميل، وقد أصبحت هذه العبارة هي احدى الصفات التي تتكرر غالبا مع اسم أوزير، وتكتب هذه العبارة كاملة هكذا wsr wnn nfr ، ومعناها أوزير الإنسان الجميل، وهي الطريقة التي استعملها كل المتخصّصين، ويسمّونها transliteration، وتعني طريقة تحويل أصوات اللغة المصرية القديمة، إلى حروف لاتينية، قابلة للقراءة في كل اللغات اللاتينية بنفس الطريقة. الغريب أن هذه العبارة ونن نفر، تحوّلت في اللاتينية إلى أونوفريس، وأصبحت اسما شائع الاستعمال، ويحمل نفس المعنى المصري القديم.

أمّا إذا أضفنا فوق رأس الصليب قمّة مقبّبة أو دائرية، لحصلنا على علامة جديدة، تعتبر رمزا ideogram للأبدية، وهي المعروفة صوتيّا phonogram في المصرية القديمة باسم (عنخ)، وتكتب ankh. هذه العلامة هي العلامة الأكثر انتشارا في مصر القديمة، تظهر ملايين المرات في الكتابات المصرية القديمة، [كتاب الموتى/ من الدولة المصرية الحديثة/ من ١٤٢٠ ق م إلى ١١٠٠ ق م/ تعليق إيفلين روسيتر].

يظهر الإله أنوبيس، في صالة قضاة الحساب الأخير، ممسكا بعلامة الأبدية (عنخ)، بيده اليسرى، وهي نفسها التي يسمّيها المصريون قديما وحديثا مفتاح الحياة، أثناء قيادته للمتوفّى نحو الميزان الذي سيوزن فيه قلب المتوفّى في كفّة، مقابل ريشة الالهة ماعت (رمز الحق والخير والجمال)، في الكفّة الأخرى. بعد أن يتحقّق القضاة من أن قلب المتوفّى أخفّ من ريشة العدالة، وهذا يعني في عرفهم أن القلب لم تثقله الخطايا، يقوم حورس بقيادة المتوفّى المبرّأ نحو أوزير إله الأبدية، الجالس على كرسي عرشه السماوي.

تظهر علامة العنخ كذلك على جدران المقابر والمعابد [مقبرة نفرتاري/ رقم ٦٦ في

وادي الملكات/ البر الغربي/ الأقصر]. تظهر كذلك في فنون التصوير والنحت المصري، إمّا كرمز للأبدية التي تمسك بها الآلهة وتقدّمها للمخلّصين، أو أنها تظهر كوحدة زخرفية متكرّرة (تيمة/ موتيفة)، في النقوش المصرية التي تزيّن العتبات العليا لمداخل المعابد.

من أعجب الأشياء أيضا هو أنه يمكننا أن نرى علامة العنخ، معلقة حول رقاب المصريين القدماء، مثل حلية أو تمّيمة تجلب الحظ، في طرف عقد يدور حول الرقبة [عُقْد الأميرة خنوميت/ من القرن التاسع عشر ق م/ عثر عليها في دهشور/ في كتاب كنوز الفراعنة/ تأليف سيريل ألدريد/ طبعة ١٩٧٩]، مثلما هو الحال مع المسيحيين في العالم أجمع، الذين يعلّقون علامة الصليب حول أعناقهم، في ظاهرة عالمية تبدو كأنها عودة إلى عبادة آلهة مصر القديمة، التي يطلب منها كل المؤمنين بها أن تهبهم الأبدية. هي تبدو كعلامة ايمان بمصر القديمة، أكثر من كونها علامة ايمان بالمسيحية. كما أن هذه العلامة استخدمت بكثرة في تزيين وزخرفة كتابات فلاسفة المسيحية من الغنوصيين gnostics، بدءا من القرن الثالث الميلادي.

وقد لفتت هذه العلامة انتباه المؤرّخين المسيحيين منذ عصر ثيودوسيوس، أي منذ ٣٩١ ميلادية، عندما قام السكندريون المتحوّلون إلى المسيحيّة، بأمر من الامبراطور ثيودوسيوس نفسه، بتحطيم بقايا الوثنية، المتمثّلة في مكتبة اسكندرية الصغرى، المحفوظة في سيرابيوم كوم الشقافة، فلاحظ المؤرّخون وجود هذه العلامة بكثرة في النقوش الجدارية، وتساءلوا عن معناها، حيث إن البحث العلمي في تاريخ مصر القديمة لن يبدأ إلا مع شامبوليون، أول من تمكّن من فكّ شفرة الكتابة الهيروغليفية.

لكن نفس المؤرّخين يذكرون، أن هذه العلامة انتقلت بسهولة من الوثنية المصرية القديمة إلى الديانة المسيحية [كتاب بعنوان من حروف الكتابة المصرية القديمة إلى الديانة المسيحية/ تأليف جون دوريس/ طبعة اسطنبول/ سنة ١٩٦٠]. في الحقيقة ان الصليب لا يظهر خارج مصر، إلا بعد أن اعتنق الامبراطور قسطنطين، الديانة المسيحية، في أوائل القرن الرابع الميلادي، ثم انتشر تماما في أوروبا كلها بعد أن أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس في نهاية القرن الرابع الميلادي، قرارا بأن تكون المسيحية هي الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية [مادة الصليب/ في قاموس الآثار المسيحية/ للمؤلف لوكليرك/ الجزء الثالث/ طبعة سنة ١٩١٤].

يشير الاصحاح الخامس العدد ١١ من الرسالة إلى أهل غلاطية، أن موضوع الصليب كان سببا في اضطهاد الأقباط الأوائل، حتى أنهم كانوا مضطرّين، حتى يتجنّبوا الاضطهاد، إلى قبول الختان، كحلّ وسط، أي أن يبقوا مسيحيين يحملون الصلبان حول أعناقهم، لكنهم كذلك يؤمنون بالعهد القديم، الذي قطعه الربّ مع موسى النبي، بأن العلامة الدالة على الايمان بالرسالة الموسوية هي الختان. ثم كذلك الاصحاح السادس من نفس الرسالة، في العدد ١٢ الذي يقول (أولئك يرغمونكم على أن تُخْتَنوا، فقط حتى لا تلقوا الاضطهاد بسبب صليب المسيح). إذن فقد مرّت قصّة الصليب بمراحل صعبة، حتى أصبح رمزا للمسيحية في العالم أجمع [مادة الصليب في قاموس اللاهوت الكاثوليكي/ للمؤلف كي ييه Quilliet/ الجزء الثالث / طبعة ١٩٢٣]

(٢)

الخبز غير المتخمّر (البتاو)

عندما غادر شعب اسرائيل أرض مصر، أخذوا معهم خبزا غير متخمّر، لأنهم غادروا مصر في ليلة الجمعة، التي يدخل فيها تمثال جسم أوزير، إلى مخبئه المؤقت لمدة ليلتين، بين الجمعة وصباح الأحد. في تلك الليلة، وخلال أسبوع الآلام كله لا يأكل المصريون إلا هذا النوع من الخبز. لاحقا قال كهنة شعب اسرائيل لشعبهم، إن السبب في خروج أجدادهم من مصر بخبز غير متخمّر، هو أنهم كانوا يسرعون في مغادرة مصر، دون أن يلاحظهم المصريون، فاكتفوا بأخذ الخبز قبل أن يتخمّر.

مع أن هذا يخالف الحقيقة التي يذكرها سفر الخروج في الاصحاح رقم ١٢، الأعداد من ٣٤ إلى ٣٩، حيث يقول إن اليهود وجدوا الوقت الكافي حتى يطلبوا من المصريين إعارتهم بعض الملبوسات والمصاغ الذهبية أو الفضّية. النصّ يقول (فصرّ الشعب في ثيابهم عجينهم قبل أن يختمر، وحملوها على أكتافهم، وطلبوا من المصريين آنية فضّة وذهبا، وثيابا بحسب قول موسى، وجعل الربّ الشعب يحظى برضى المصريين، فأعطوهم كل ما طلبوه، فغنموا من المصريين). كان المصريون في احتفالهم بالعيد الكبير، عيد قيامة الإله من الأموات، يستعدّون بالملابس الجديدة والمصاغ، لذلك لم يجدوا طلب اليهود استعارة

الملابس والمصاغ منهم غريبا، إذ اعتقدوا أن هذا الطلب له ما يبرّره، ألا وهو احتفال اليهود مع المصريين بعيد المصريين. لكن اليهود أخذوا أشياء المصريين معهم في خروجهم من أرض مصر.

هذا الخبز غير المتخمّر، لا يزال المصريون في مصر، يطلقون عليه نفس الاسم القديم، الذي كان المصريون القدماء، قبل خمسة آلاف عام يستعملونه، وهي كلمة (عيش بتاو)، وهو الخبز الذي كان ولا يزال، الخبز المستعمل لدى الطبقة الشعبية الفقيرة من فلاحّي الريف المصري.

الكلمة العبرية التي استعملت لوصف هذا الخبز، مأخوذة من اللغة الآرامية واسعة الانتشار في منطقة الشرق الأوسط، خلال الألف عام السابقة على مولد المسيح، هي كلمة مصّوت massot، والتي جاءت منها الكلمة العربية (مصّ) التي يمكن أن يشتق منها الكلمات يمصّ ممصوص مُصاصة مصّاصة مصمصة، وكلها لها علاقة بالطعام، وبوضعه في الفم، وبتركه في الفم فترة طويلة أي استحلابه، حتى يستفيد الجسم منه أقصى استفادة، خاصة في حالة الفقر المدقع [لسان العرب/ ابن منظور/ الجزء رقم ٨/ الصفحة رقم ١٦١/ من طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، كذلك كتاب معجم المصطلحات العبرية في التوراة/ من تأليف براون ودرايفر وبريجز/ طبعة سنة ١٩٥١].

إن الأصل في تحريم تصوير الأشكال الآدمية، في الرسوم الورقية أو الجدارية أو في فن النحت، عند الشعب اليهودي منذ السبي البابلي، تعود إلى التحريم الذي ظهر في النسخة البابلية من التوراة، عندما منع كهنة اسرائيل شعب اسرائيل، عند الاحتفال بأعياد الفصح اليهودي، من استعمال وتناول قطع الخبز غير المتخمّر، الذي كان حسب التقليد المصري، مصبوبا في قوالب على شكل أجزاء من الجسم البشري، مثل الذراع أو اليد أو الرأس أو القلب، ذلك لأن الكهنة اليهود كانوا يريدون، قطع صلة احتفالاتهم وطقوسهم الدينية، بكل ما كان له تأثير عليها زمن إقامتهم في مصر قبل الخروج.

خلال فترات انحسار النفوذ المصري في اسرائيل، طوال القرون المعروفة حاليا في التاريخ المصري القديم، باسم العصر المتأخر، وهو عصر الأسرات التي تحمل من رقم ٢٢ إلى رقم ٣٠. فالأسرة التي تحمل رقمي ٢٢ و٢٣ هي الليبية، والتي تحمل رقمي ٢٤ و٢٥ هي النوبية، والأسرات التي تحمل الأرقام ٢٧ و٢٨ و٢٩ هي أحيانا فارسية وأحيانا

آشورية. لوحظ أن كل الكتب المقدّسة لأنبياء بني اسرائيل، لا تذكر أي شيء عن الاحتفال بعيد الفصح. كل الأسفار المقدّسة بعد سفر القضاة، مثل أسفار نبوءات صموئيل وأشعياء وإرميا وعاموس وعوبديا وميخا وناحوم وحبقوق.

مع وجود بعض الاستثناءات القليلة على زمن الأسرة الوحيدة في العصر المتأخر التي كانت مصرية وهي رقم ٢٦، ومعروفة باسم العصر الصاوي، حين قام الملك المصري بسماتيك، حوالي سنة ٦٥٠ ق م، بمطاردة أعداء مصر من الآشوريين، حتى أرض اسرائيل. وقد ذكر بعض مؤرّخي تلك الفترة هذه المعلومات مثل هيرودوت ومانيتون ويوسيفوس وليون الأفريقي. يقول هيرودوت مثلا (إنه بعد حصار دام ٢٢ سنة، تمكّن جيش بسماتيك من دخول أشدود). ثم (وأصبح الجيش المصري، حرّ الحركة تماما في الصعود ذاهبين حتى بيبلوس/ فينيقيا، وفي الهبوط عائدين إلى أشدود/ إسرائيل). إلا أن هناك أسفار في التوراة لا تذكر أي شيء عن ارتباط الاحتفال بعيد الفصح اليهودي، بخروج بني اسرائيل من مصر، مثل أسفار العدد [اصحاح ٢٨ العدد ١٦] واللاويين [اصحاح ٢٣ العدد ٥]. بل إن سفر حزقيال لا يذكر أي شيء عن واقعة الخروج.

(٣)

الفسيخ

الأسطورة تقول إنه تمّ العثور على ذراعي أوزير، في مستنقعات أحراش الدلتا. أمّا للعثور على ساقيه المفقودين، فكان ينبغي الذهاب إلى أقصى جنوب البلاد، حيث كانت الحدود الجنوبية القصوى لمصر، منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، تقف عند الشلال الأول، الذي يقع عنده الآن خزّان أسوان القديم المبني سنة ١٩٠٢. قبل الوصول إلى الخزان، والى الشلال الأول، ببضعة كيلومترات، يمكن أن نجد جزيرة صغيرة في النيل تعرف باسم جزيرة (سُهيل)، كان القدماء يعتقدون أن منابع النيل تقع عندها. هناك نقش بارز على أحد جدران معبد جزيرة فيلة من القرن الثالث الميلادي، يشير إلى هذه الجزيرة بالاسم والرسم، على أنها الموقع الذي يقبع فيه (حع بي) إله النيل، ليسكب من قارورتين يمسكهما بيديه، الماء الذي ينساب مدرارا صانعا هذا النهر العظيم.

هناك اعتقاد ساد لفترة طويلة، أنهم في مصر القديمة لم يتمكنوا، لمدة بضعة قرون، من العثور على الساق اليسرى لأوزير، بسبب اختفائها خلف الصخور في جزيرة سهيل، ومما يعضّد هذا الاعتقاد، أنه توجد رقصة جنائزية مصرية قديمة، قد تكون قد انتقلت إلى ممارسات طقسية جنائزية، لعدد من قبائل وشعوب القارة الأفريقية، حيث لا زال يمكننا أن نرى راقصين وراقصات، في طقوس جنائزية، يحجلون بسيقانهم اليمنى وحدها، يقفزون عليها وحدها، بينما يرفعون سيقانهم اليسرى في الهواء، كعلامة على توحّدهم مع أوزير، وحزنهم عليه لأنه لم يكن قد عثر بعد على ساقه اليسرى. [مناظر جدارية في مقبرة آنتف إقِر/ طيبة الغربية/ من بداية الأسرة الثانية عشرة/ القرن العشرين قبل الميلاد، وكذلك قاموس الحضارة المصرية/ لجورج بوزنر/ من مطبوعات هازان بباريس، وكذلك المرشد إلى الآثار المصرية/ للمؤلف فانديه/ ١٩٦٤].

ان كلمة فسيخ المصرية المستعملة حاليا في مصر، وتطلق على اسم السمكة المتفسّخة المفكّكة الأوصال المملّحة، هي نفس الكلمة المصرية التي كانت تطلق منذ خمسة آلاف عام، على أوزير الميّت المتفسّخ المفكّك الأوصال. إن إضافة الملح إلى المأكولات لحفظ الطعام كانت طريقة معروفة في العالم القديم، قبل اختراع وسائل التجميد التي تسمح حاليا بحفظ الطعام. كان هذا هو السبب في أهميّة الملح في التجارة بين دول العالم القديم. في مصر كانت أهمية الملح أكبر مما كان هو حاله في غيرها من الدول، وذلك لاهتمام المصريين القدماء باستعماله مع غيره من المواد في تحنيط الحيوانات.

الكلمة المصرية القديمة pesekh / fesekh هي نفسها الكلمة العربية الحالية ف س خ أو ب س خ أو ب ص خ التي تعني نفس الشيء، ومن المعروف في كل اللغات أنه يمكن استبدال الباء بالفاء والعكس، ونفس الشيء صحيح بالنسبة للسين والصاد. وهي نفس الكلمة التي دخلت لاحقا، في اللغات الحديثة مثل اليونانية واللاتينية، للدلالة على احتفال العالم المسيحي، بموت وبعث يسوع المسيح، الذي تعبّر عنه كل اللغات بكلمة واحدة، هي بصخة أو باسكة أو باسكوا pasqua. [قاموس ايرمان وجرابو Erman und Grapow/ لكلمات اللغة المصرية القديمة Worterbuch der Aegyptischen Sprache / طبعة ١٩٢٦/ صفحة ٥٥٠، وكذلك لسان العرب/ لابن منظور/ طبعة الدار المصرية للتألبف والترجمة/ الجزء الرابع صفحة ١٤].

كانت ولا زالت الوجبة الرئيسية للشعب المصري، خلال خمسة آلاف عام، في يوم الاحتفال بشمّ النسيم، هي نوع من السمك المملّح المعروف باسم الفسيخ، بالاضافة إلى البيض المسلوق الملوّن، والخبز غير المتخمّر الذي لا زال البعض يطلق عليه كلمة (بتاو)، وأوراق نبات (الملانة) الخضراء. يكون الخبز غير المتخمّر في أشكال مختلفة، أبسطها هو الخبز (البتاو)، الذي تصنع عجينته من الماء، وهو عندما يكون في شكل طبقات رقيقة يسمّى (رُقاق). إذا تمّ تخمير عجينة الخبز بإضافة الزبد أو الزيت، يصبح اسمه (فطيرا).

كلمة فطير (موجودة في اللغات العربية والعبرية والآرامية بنفس النطق) مشتقة من الفعل فَطَر ومعناها خَلَق، وقد تعني كذلك قَطَع أو فَصَل، ومنها الكلمة التي تطلق على الوجبة الصباحية، لأنها تقطع صيام الليل (ومنها نفس الفكرة في اللغة الانجليزية breakfast) [قاموس الانجليزية والعبرية/ من مطبوعات أوكسفورد/ للمؤلفين براون ودرايفر وبريجز/ سنة ١٩٥١] وكذلك [لسان العرب/ لابن منظور]. في الأعياد يمكن أن يضاف إلى هذا الفطير بعض الحشو في شكل جبن أو سكّر.

ان السمكة المملّحة هي رمز لأوزير، وذلك لأن أهم أجزاء جسمه المتفسّخ، وهو الجزء الرابع عشر، أي عضوه الجنسي، سقط في ماء النيل، أثناء عبور الأخ الشرير من ضفّة إلى أخرى، غالبا أمام مدينة اسنا، وقد يكون الشرير قد أسقطه عمدا، إلا أن سمكة بلطي التقطته وابتلعته [قاموس الرموز/ من تأليف شيفالييه وجيربرانت/ ١٩٨٥]. في مصر القديمة كان تناول هذه السمكة المملّحة بالذات، خلال طقوس الاحتفال بعيد موت وبعث (بصخة/ فصح) أوزير، هو رمز للاتحاد أو للتوحّد مع الإله أوزير، اتّحاد معه بالجسد، وتوحّد معه في المصير، أي الموت معه على رجاء القيامة معه. وهي نفس المعاني التي تعيدها المسيحية إلى الأذهان، بطقس التناول من جسد يسوع المسيح.

أما البيضة فهي رمز تجدّد الحياة، مثل البذرة التي تلقى في الأرض الخصبة، فتتمكّن لاحقا من أن تنبت شجرة. هذه الفكرة المتعلّقة ببداية العالم عن طريق بيضة، تتشارك فيها حضارات وديانات عديدة. ففي مصر القديمة مثلا، كان الإله رعّ خالق الكون حسب نظرية تاسوع هليوبوليس، كان قد خرج من بيضة [نجد هذه الفكرة في كتابات عديدة منها كتاب الموتى من عصر الدولة الحديثة، وكذلك نصوص التوابيت من عصر الدولة الوسطى/ نسخة فولكنر، بالاضافة إلى شقافة في المتحف المصري بالقاهرة تحمل رقم ٢٥٢٠٧

وعليها ترنيمة عن خلق العالم، وترنيمة إلى الإله آمون رع منقوشة على جدران معبد هيبيس بواحة الخارجة]. كان المصريون القدماء يضعون بيضا حقيقيا مع المتوفّى في مقبرته، ضمن اثاثه الجنائزي، واحتياجاته التي لا يمكن الاستغناء عنها.

(٤)

رمز السمكة

في العصر اليوناني الروماني، عندما كانت تتمّ احتفالات دينية في معبد دندرة، تتعلق بموت وبعث الإله أوزير، خلال شهر كيهك، كانت النصوص المقدّسة تذكر السمكة المقدّسة لاتوس، تلك التي تعيش في مياه النيل، غالبا أمام موقع معبد مدينة إسنا، وهي المدينة التي كانت تحمل اسم لاتوبوليس في العصر اليوناني الروماني، نسبة إلى نفس السمكة لاتوس، التي يسمّيها المصريون الحاليون باللغة العربية بلطي النيل، التي قالت بعض المصادر المصرية القديمة، إنها ساعدت في إنقاذ جسم أوزير من الغرق في مياه النيل، وقالت بعض المصادر الأخرى، إنها ساعدت فقط في إنقاذ عضوه الجنسي، إمّا بنقله إلى ضفّة النيل، أو بالتهامه والاحتفاظ به سليما داخل جسد السمكة [نصوص معبد دندرة/ من تحقيق إميل شاسيناه Chassinat/ ونشر المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة IFAO / سنة ١٩٦٩].

بعد قيامة أوزير من الأموات أصبح الها للأموات وللعالم السفلي كله، وأصبحت الفتيات المصريّات في العصور اللاحقة يتزيّنّ، بوضع قلائد حول أعناقهنّ، تحمل دلاّيات تتعلق بها أشكال مختلفة من سمك النيل، مصنوعة من المعادن النفيسة من ذهب وفضّة، ومشغولة بالأحجار الكريمة [كتاب كنوز الفراعنة/ لسيريل ألدريد/ طبعة ١٩٧٩]. في موقع حفائر مدينة السامرة في فلسطين، التي كانت قد أصبحت منذ القرن التاسع قبل الميلاد، مركزا من مركز عبادة إيزيس وأوزوريس، ووفقا لما نشرته البعثة الأثرية التابعة لصندوق استكشاف فلسطين، Palestine Exploration Fund، في نشرتها سنة ١٩٣٨، عن القطع المنحوتة في العاج، التي تمّ العثور عليها، وبها الكثير من القطع المنحوتة على شكل أسماك مختلفة الأشكال والأحجام.

في بعض النسخ التي تروي قصّة ما سيحدث في العالم الآخر، يتحوّل المتوفّى إلى سمكة، حتى يتمكّن من عبور كل المساحات المائية التي تعترض طريقه. في هذه الحالة ينبغي على المتوفّى، أن يحصل على الكتيّب الخاص بكل التعاويذ السحرية وكلمات السر، التي ينبغي عليه أن ينطق بها أمام الصيّادين الذين يتربّصون بالأسماك، حتى ينجح في اجتناب شباكهم [قاموس الرموز/ جان شيفالييه Chevalier/ باريس/ ١٩٨٥]. في واحدة من مقابر دير المدينة في جبّانة البر الغربي بالأقصر، من الأسرة العشرين، وهي مقبرة المدعو خَعْ بِخْنِت Khabekhnet، نرى المتوفّى وقد تحوّل إلى سمكة كبيرة بحجم البشر، أثناء قيام أنوبيس، أحد آلهة التحنيط، بلف جثّة السمكة بلفائف الكتّان [قاموس الحضارة المصرية/ جورج بوزنر/ باريس].

في بردية تعود إلى العصر البطلمي، بمتحف اللوفر في باريس، نجد حكاية أوزيريس مرويّة، والنصّ تصاحبه بعض الصور المرسومة باليد، كما لو أنها قصّة مصوّرة للأطفال، نشرها جاك فانديه Vandier، هناك سمكتان يحملهما كل من جحوتي وأنوبيس، كرمز لعملية إنقاذ جثمان أوزيريس من مياه النيل. هناك كذلك لوحة حائطية من الدولة الحديثة، على جدار مقبرة منّا Menna، في وادي جبّانة الأشراف بغرب الأقصر، حيث نرى قربانا في شكل سمكتين، فوق مائدة القرابين التي يقدّمها المتوفّى إلى الآلهة [فن التصوير المصري/ ميخيتاريان Mekhitarian/ جينيف/ ١٩٧٨].

لماذا سمكتان بدلا من سمكة واحدة؟ قد يكون المعنى هو الخير والشر اللذين يحاسب عليهما المتوفّى. قد يكون المعنى هو الحياة والموت، أو الحياة الأرضية والحياة السماوية. ذُكِرت السمكتان لاحقا في الإنجيل عدة مرّات، كما لو أن المسألة عَرَضِيّة جاءت بشكل اعتباطي، في معجزة إطعام الجموع بخمس خبزات وسمكتين. ثم ظهرت بعد ذلك مرّات عديدة في التصوير الجداري في ايطاليا، منذ القرن الأول للميلاد ولبضعة قرون، عندما كوّنت جزءا من مائدة وجبة العشاء الأخير، التي اقتسمها يسوع المسيح مع حواريه، ليلة القبض عليه.

فكما ارتبطت سمكة بعملية إنقاذ جثّة أوزيريس، الذي كان معرّضا للموت غرقا، ارتبطت هذه السمكة نفسها كذلك، ولو بشكل رمزي، بعملية إنقاذ يسوع المسيح من الموت مصلوبا. من الملاحظ أن تعليق سمكة في دلاّية حول الرقبة، كان عادة نسائية خلال القرون

الأول والثاني والثالث للميلاد، في حين أنه لم تبدأ النساء في تعليق صلبان حول الرقبة، إلا في بداية القرن الرابع للميلاد، عندما تحوّل الامبراطور قسطنطين إلى المسيحية. يقول لنا لوكليرك في قاموسه الأثري المسيحي، إن السمكة كرمز ليسوع المسيح، سادت كل وسائل التعبير الفنّي خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد.

في الحقيقة حدث أن ظهرت الأحرف الخمسة من الكلمة اليونانية التي تعني سمكة، وهي كلمة إيكتوس IXTUS، أو إيكتيس IXTYS، مكتوبة على الجدران الخارجية لبيت القدّيس بطرس تلميذ المسيح، في مدينة كفر ناحوم، وهو البيت الذي حوّله بعد صعود المسيح إلى السماء، إلى كنيسة للاجتماعات وللصلاة، وذلك لأنه حدث أن هذه الأحرف الخمسة، بمصادفة قدريّة عجيبة، كانت هي نفسها الأحرف الأولى من خمس كلمات، تكوّن العبارة التي استعملها تلاميذ المسيح للتعبير عنه، يسوع Isous المسيح Xristos الإله Theou الابن Yios المخلّص Soter. وهو ما يسمّى بالعربية (تطريز) وبالفرنسية acrostiche، أي قصيدة من أبيات شعرية، إذا جُمِعّت حروف أوائل كلمات أبياتها، شكّلت اسم المؤلف أو اسم المهدى اليه القصيدة [كتاب عن جرافيتي منزل القدّيس بطرس في كفرناحوم/ إيمانويل تيستا/ المطابع الفرنسيسكانية بالقدس/ ١٩٧٢].

كما تشير كذلك الكثير من الكتابات إلى أن أغلب تلاميذ المسيح كانوا من بين صيّادي السمك في بحيرة طبريّة، وأنه وفقا لما جاء في إنجيل مرقص، الاصحاح الأول العدد ١٧، أن يسوع المسيح عندما اختارهم قال لهم (اتبعوني فأجعلكم صيّادين للناس، فتركوا شباكهم وتبعوه). لكن هذا القول لا يتناسب مع موضوعنا، لأنه في هذه الحالة تصبح السمكة رمزا للانسان، الذي سيعمل يسوع المسيح على اصطياده، ولن تصبح رمزا ليسوع المسيح نفسه. في كتاب ترتيليان المعنون عن المعمودية De baptismo، وفي كتابات القدّيس كليمنضوس السكندري بشكل عام، يتفقان على القول إن السمكة هي رمز ليسوع المسيح، وعلى أن فلك نوح هي الكنيسة، التي ستنقذ البشرية للمرة الثانية من الضياع، وعلى أن الحمامة هي رمز للروح القدّس، الذي ظهر في حياة المسيح القصيرة على الأرض عدّة مرّات، منها عند معموديّته في نهر الأردن.

الفصل العاشر
العالم الآخر

(١)

التطوّر البشري

في أغلب ديانات العالم، تعود الحياة إلى الموتى، وهو ما يعرف بالبعث، ثم يتبع البعث ما يعرف باسم الحساب الأخير، أي إمّا الثواب والذهاب إلى الجنّة، أو العقاب والذهاب إلى النار. ولكن في حين أن فكرة خلق الآلهة للانسان، هي فكرة قديمة جدا في تاريخ البشر، إلا أن فكرة أن تقوم هذه الآلهة بحساب البشر بعد موتهم، أي فكرة الثواب والعقاب، هي فكرة حديثة نسبيا في هذا التاريخ الإنساني، إذ لا تظهر إلا في بعض المجتمعات الأحدث زمنيا، بشرط أن تكون هذه المجتمعات قائمة على الطبقية، أي على فكرة وجود طبقتين على الأقل، هما طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، وقد تكون هناك طبقة ثالثة وسطى. ولا تظهر فكرة الآخرة في هذه المجتمعات الطبقية، إلا اذا بلغت درجة معيّنة من الرقي والتقدّم. فخلق الآلهة للانسان هي أول فكرة تظهر في التجمّعات البشرية، في حين أن قيام الآلهة بتطبيق الثواب والعقاب على الإنسان هي آخر فكرة تظهر في التجمّعات البشرية.

منذ خطوات الإنسان الأولى في تطوّره، أي منذ المرحلة التي كان لا يزال فيها يقتات على صيد الحيوانات، دون أن يرعاها، أو على التقاط ثمار الأشجار والنباتات، دون أن يزرعها، أدرك الإنسان وجود كائن آخر يفوقه قوّة، كائن يتفوّق حتى على قوى الطبيعة ذاتها supernatural، لم يتمكّن بسهولة من تحديد كنهه أو توصيفه. في ذلك الوقت المبكّر وقف الإنسان حائرا أمام ظاهرتين، هما الأحلام والموت. ففي الأحلام يرى الإنسان عوالم أخرى،

وفي الموت يكون الشلل التام والنهاية الحاسمة لوجوده الإنساني. لتفسير هاتين الظاهرتين اعتقد الإنسان أن هناك روحا، تغادر جسده مؤقّتا عند النوم، وتغادر جسده نهائيا عند الموت.

في مرحلة لاحقة، كان من السهل على الإنسان الاعتقاد في أن الأشجار والحيوانات هي الأخرى لها أرواحها، لأنه يراها أمامه تولد وتنمو ثم تموت. إلا أن الشيء الغريب في تاريخ البشرية، هو تلك المرحلة التي اعتقد فيها الإنسان أن للجوامد حيوات وأرواح. والأغرب هو الاعتقاد كذلك أن لبعض قوى الطبيعة وعناصرها هي الأخرى كيانات غير مادية غير ملموسة، كان من السهل عليه أن يطلق عليها هي الأخر لفظ أرواح. فاعتقد أن للعاصفة روح، وللبحر روح، وللحجر الجماد روح، وللجبل هو الآخر روح. ثم اعتقد أن بعض هذه الأرواح خيّر بطبيعته، وبعضها الآخر شرّير. بحيث أن الروح التي تمتلكها العاصفة غالبا هي روح شرّيرة، وأن البركان الذي ينفجر في الجبل هو غالبا بسبب أن روح هذا الجبل غاضبة على البشر.

هذه الظاهرة هي ما يسميه المتخصّصون في دراسة الأنثروبولوجيا، ظاهرة الإحيائية أو الأرواحية (بالانجليزية animism)، أي أن تكون للأشياء حياة وروح، يمكن التحدّث اليها والتفاهم معها. أي أن تكون للجوامد مثل الصخور والجبال والبحار والرياح حيوات وأرواح. ثم فكّر الإنسان أنه قد يمكنه أن يكسب هذه القوى الطبيعية الشرّيرة لصفّه، أو أنه يمكنه أن يتجنّب أذاها، لو أنه أرضاها ببعض الممارسات السحرية. هنا ظهر لأول مرّة في تاريخ البشرية الساحر، الذي عندما تفشل أعماله السحرية لاحقا سيتحوّل – بهدف اكتساب بعض القداسة – إلى كاهن، سيقنع تلك المجتمعات البدائية، بضرورة أن تقام الصلوات، أو أن تقدّم الذبائح، لآلهة البحار أو الجبال أو العواصف أو البراكين، حتى ترضى عنهم.

ثم تظهر الطوطميّة totemism، وهي إتخاذ صخرة أو جبل أو شجرة أو حيوان، طوطما لأفراد قبيلة معيّنة، أو لمجموعة من القبائل، أو حتى لشعب بأكمله. وطوطم يعني الها يتوجّهون اليه بالدعاء والصلوات عند الأزمات، وقد يقيمون له معبدا يتعبّدون له فيه، أو يمارسون طقوسهم السحرية فيه، أمام أحد رموزه، أو أمام تمثال له، أو قد يتّخذونه شعارا لقبيلتهم، ويعلّقون رمزا له على صدورهم، أو حول أعناقهم. [هناك مجموعة كبيرة من المراجع بخصوص هذه الموضوعات سأضع لكم هنا منها ثلاثة فقط: أولا: الثقافة البدائية Primitive culture/ للمؤلف ادوارد تايلور/ لندن/ ١٩٠٣، وكذلك ثانيا: الديانة البشرية

Anthropological Religion/ للمؤلف ماكس مولر/ لندن/ ١٩٠٣، وكذلك ثالثا: الأشكال الأساسية للحياة الدينية les formes elementaires de la vie religieuse// للمؤلف إميل دوركايم/ باريس/ ١٩٢٥]

وقد كان الطريق الذي قطعه الإنسان طويلا، للوصول من الإحيائية إلى الطوطمية، ثم من الطوطمية إلى التعدّدية الإلهية polytheism، التي ظهرت خاصة بعد أن كان الإنسان قد ترك صيد الحيوانات إلى رعيها، وترك الاقتطاف العشوائي للثمار إلى زرعها وحصدها، مما دعاه إلى الاستقرار لزراعة نفس قطعة الأرض كل عام وانتظار محصولها، فظهرت ملكية الأراضي الزراعية، وظهرت التجمّعات البشرية الكبيرة نسبيا، التي يتعاون فيها مع الآخرين، هو كزارع أو كراعي غنم، مع البنّاء والنجّار والحدّاد والمعلّم والطبيب. في هذه المرحلة ظهرت آلهة الزراعة والاخصاب والمطر والرعي، وكان لكل منها معابدها وكهنتها. في هذه المرحلة نجد في مصر القديمة والعراق القديم، نماذج جيّدة ومتعدّدة، تنتقل أفكارها وآلهتها حتى تصل إلى القرون الأولى للميلاد، في الحضارتين اليونانية والرومانية.

(٢)

الأسياد والعبيد

لكن مع وجود أول تجمّعات بشرية كبيرة نسبيا، لنقل بضع مئات الآلاف، ظهر الأغنياء والفقراء، الأغنياء من أصحاب الإقطاعيات الزراعية الكبيرة، والفقراء ممن يفلحون الأرض. ثم عندما تحرّكت القوى العظمى لتلك العصور القديمة، في غزوات حربية عسكرية لجيرانها الأقل قوّة، أدّت إلى استعمارها واستغلال ثرواتها، هنا ظهرت طبقتان رئيسيتان في المجتمعات الشبيهة، هما طبقتا الأحرار والعبيد، ويكون الأحرار غالبا هم من الشعوب الغازية المنتصرة، ويكون العبيد غالبا هم من الشعوب المغلوبة المنهزمة. مصر القديمة لم تعرف نظام العبيد، ولم تظهر في معجمها اللغوي كلمة (عَبْد) كانسان يباع ويشترى، وكان كل ما ظهر فيها هو كلمة (أجنبي)، ومن الغريب أن هذه الكلمة كانت تنطق (نَجِس)، ومنها انتقلت إلى العربية، وظلت حتى وقتنا الحالي، تشير في التراث العربي إلى كل من هو مختلف في العِرْق أو في الديانة.

ثم ظهرت وسادت تجارة العبيد في العالم القديم، باختطاف البشر وبيعهم في أسواق

النخاسة. هؤلاء البشر يظلّون عبيدا يباعون ويشترون، إلى أن يظهر لهم أقرباء يستطيعون دفع الفدية أو الثمن المطلوب فيهم. في هذه المرحلة فقط من الحضارتين اليونانية والرومانية، عندما انتشر الظلم الاجتماعي في العالم الأرضي، ظهرت فكرة الحساب الأخير، وفكرة الثواب والعقاب. وكان الهدف الرئيسي منها هو محاولة إرضاء الفقراء والعبيد، واسكات ثورتهم الكامنة بداخلهم، بحيث يقول لهم كهنة المعابد، بأنهم لا نصيب لهم في هذا العالم الأرضي، وإنما سيكون لهم نصيبهم الأفضل في العالم السماوي، حيث الجنّات والنعيم. فلو أنه ليست هناك عدالة في هذا العالم، فلنحلم بعالم آخر تتحقّق لنا فيه هذه العدالة الغائبة.

هاكم بعض الأمثلة الأخرى. كانت ديانات القبائل الأفريقية السوداء، أو قبائل حوض نهر الأمازون، أو باختصار كل تلك القبائل التي ظلت تعيش، منعزلة عن العالم الحديث بكل تطوّراته الفكرية والتكنولوجية، حتى القرن العشرين، كانت تعرف بوضوح شديد، وتعترف بقصّة خلق الإنسان، على يد قوّة أكبر من الإنسان، لم يكونوا يستطيعون تحديد كنهها، لكن هذه القبائل لم تكن تعرف أي شيء، أو لم تكن تعترف بوجود أي حياة أخرى بعد الموت. لم يكونوا يعترفون بعودة الروح بعد الموت. كانوا يعتقدون أن الموت هو نهاية كل كائن حيّ، النهاية التي ليس وراءها أي شيء آخر [كتاب ديانات أفريقيا السوداء/ لتوماس ولينو/ باريس ١٩٨٩].

قبائل الماساي Masai في كينيا، وهي قبائل تعيش في حياة متنقّلة nomadic، خلف المراعي الخصبة ومناطق الأعشاب البرّيّة، لأنها كانت تعمل أساسا في رعي الأغنام والأبقار، كان أفرادها يعرفون الملكيات الخاصة، فلكل شخص عدد محدّد من رؤوس الماشية، وكانوا كذلك يعرفون التوريث، أي نظام انتقال ملكية هذه الرؤوس إلى أبناء المالك المتوفّى. كانت لهذه القبائل طبقة من الكهنة، الذين يقومون هم أيضا بتوريث وظائفهم الكهنوتية إلى أبنائهم.

كان من الغريب جدا اكتشاف حقيقة أن قبائل الماساي حتى أوائل القرن العشرين، لم يكونوا يعرفون بوجود، أو يعترفون بوجود حياة أخرى بعد الموت. بالنسبة اليهم الموت هو نهاية كل كائن حي، سواء أكان انسانا أو بقرة أو شجرة. الموت هو النهاية التي لا يوجد – دون أدنى شكّ من طرفهم – أي شيء آخر خلفها [كتاب قبائل الماساي/ للمؤلف هوليس Hollis/ طبعة أوكسفورد سنة ١٩٠٥، وكذلك كتاب المسكن والاقتصاد والمجتمع/ للمؤلف داريل فورد Daryll Forde / لندن ١٩٦٣].

إذن تحوّلت المجتمعات البشرية في نهاية المطاف، من مجرد قطعان من السابلة، أو من مجرّد عصابات متنقّلة من قطّاع الطرق، إلى مجتمعات انسانية مستقرّة، ظهرت فيها الفئات السابق الاشارة اليها، من أثرياء وفقراء، من مُلاَك وأُجراء، بل من سادة أحرار وعبيد من أقنان الأرض. ثم جاءت مرحلة التمرّد على الأوضاع الاجتماعية الظالمة، وبدأ ظهور الاحتكاك بين تلك القوى المتصارعة. ذلك لأنه رغم امتلاك الأسياد للقوّة العسكرية، إلا أن العبيد كانوا في المعتاد هم الفئة الأكثر عددا.

ثم كان هناك كذلك عنصر التنافس على الأرزاق، فإذا ضاقت الأرزاق بين الناس، بسبب المجاعات أو الأوبئة أو الحروب، تحوّل التنافس إلى خصومة، ثم تحوّلت الخصومة إلى عداوة واضحة صريحة. هنا ظهرت الحاجة الواضحة إلى الكهنة، الذين يستطيعون إقناع الفقراء المغلوبين على أمرهم، أن هذه هي إرادة الله، وأنهم إذا كانوا فقراء في هذا العالم، فذلك لأن الله قدّ أعدّ لهم جنّات النعيم في السماوات العلى. وكانت طبقة الكهنة غالبا هي من أبناء أو من أقرباء الأثرياء، الذين يستفيدون هم أيضا من الأوضاع القائمة.

إن حقيقة التحالف بين الإقطاع الزراعي والكهنوت، وحقيقة تآمرهما على الفقراء، هما من بين الحقائق التاريخية الواضحة تماما، عند دراسة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا القرون الوسطى [كتاب من ثلاثة أجزاء عن، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر/ للمؤلف فرناند بروديل/ والمترجم دكتور مصطفى ماهر/ صادر عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع/ القاهرة/ ١٩٩٣].

إذن ففي كل المجتمعات المتطوّرة، والتي أصبحت مجتمعات متقدّمة في العصور الحديثة، مرّت قرون من الظلم الاجتماعي، أدّت لدى فقراء تلك المجتمعات الظالمة، في نهاية المطاف إلى ظهور، ثم إلى تبلور، فكرة الحساب الأخير بما فيه من ثواب وعقاب، وهي الفكرة التي تقوم ببساطة على هذا الأساس، وهو أنه حيث إن العدالة الاجتماعية غير متحقّقة في هذا العالم، إذن ينبغي أن يكون هناك عالم آخر، تتحقّق فيه أنواع أخرى من العدالة، أهمّها العدالة الإلهية، التي بها يستردّ المنتقم الجبّار، لكل الفقراء المظلومين في كل المجتمعات، الحقوق التي سلبها الأغنياء الظلمة منهم. فالله القويّ القادر القدير العالم العادل المنتقم لا يقبل الظلم.

(٣)

تواطؤ الكهنة مع الأسياد

ثم استكمالا لصورة ما حدث، وما هو مستمر غالبا في الحدوث في أماكن عديدة من هذا العالم، أن تخرج فئة الكهنة من الطبقات الثرية في المجتمع، كما هو الحال غالبا في طبقة القادة في عدد من الفئات الأخرى، مثل رجال الجيش والشرطة والقضاء. في الزمن القديم لم تكن فئة الكهنة تخرج إلا من طبقة النبلاء، وبالتالي يكون انتماؤهم الأقوى هو إلى طبقتهم هذه، التي كانت تضمّ بين جوانبها إلى جوار النبلاء، فئتين أخريين هما الحكّام العسكريين والإقطاعيين الزراعيين. لذلك لم تكن مهمّة الكهنة الرئيسية إلا إقناع الفقراء أن فقرهم، والمُعْوَزين أن عِوَزَهم، هو إرادة الله، الذي سيعوّضهم عن هذا الظلم الاجتماعي، لأن ما يحدث لهم الآن هو فقط أنه يختبر إيمانهم، الايمان الذي لا يجب عليه أن يتزعزع، الايمان في أن الله قد كتب للأغنياء المتع الدنيوية، في حين أنه كتب للفقراء المتع السماوية.

هذه هي خلاصة كل الأديان. كل الأديان دون أي استثناء. في كل بلاد العالم. في كل الأزمنة. وغالبا ما ينجح الكهنة في إقناع الفقراء بهذه الأفكار بسهولة، وذلك لأن هذه المجتمعات الظالمة، لا تقدّم تعليما جيّدا للفقراء، لأن هذا التعليم الجيّد ليس في صالح طبقة الحكّام ورجال الأعمال الأغنياء، لذلك يقتصر التعليم الجيّد على أبناء الأغنياء، وبالتالي يظل أبناء الفقراء في جهلهم بالتاريخ وبحقوق الإنسان وبالتطوّر البشري، جيلا بعد جيل دون أي تطوّر أو تغيير، يظلّون مغيّبي الوعي، وبالتالي يكونون باستمرار أسهل انقيادا إلى أفكار الكهنة، فيما يتعلّق بالانشغال بتفاصيل (المعتقدات/ والغيبيّات/ والعبادات/ الطقسية/ والشكليّات/ والأصوام/ والصلوات)، طول الوقت حتى يصبح انشغالهم هذا عائقا عن التفكير، بحيث لا يمكنّهم أن يروا حقيقة الأوضاع الظالمة التي يعيشون فيها.

والحقيقة التاريخية تؤكّد لنا أن كهنة الديانة اليهوديّة الموسوية من الصدّوقيين، الذين يعود انتماؤهم إلى أحد أوائل الكهنة على زمن داوود النبي والملك، في القرن العاشر قبل الميلاد، وكان اسمه (صادق)، وهم سمّوا صدّوقيّون على اسمه، ظلّوا لمدة لا تقل عن عشرة قرون، أي حتى القرن الأول للميلاد، أي حتى زمن كتابة الأناجيل المسيحية الأولى،

يرفضون الأفكار المتعلّقة ببعث الموتى والعالم الآخر، والحساب الأخير والثواب والعقاب، لأن المجتمعات التي عاشوا فيها مع شعب اسرائيل، منذ زمن الرعاة المتنقّلين في بريّة سيناء، وهي بالمناسبة المهنة التي مارسها داوود النبي والملك، إلى زمن ظهور يسوع المسيح، كانت مجتمعات بسيطة التكوين، لم تكن فيها طبقية اجتماعية أو اقتصادية. كانوا يعتقدون في أن أرواح الموتى تتجمّع سويّا في مكان يسمّونه شيول Sheol، وتظل صامتة إلى أبد الدهر دون ثواب أو عقاب، ولا تعود إلى أجساد موتاها لتبعث فيهم الحياة [كتاب تاريخ شعب اسرائيل/ للمفكّر إرنست رينان Renan/ طبعة باريس/ ١٩٢٧].

كانت تلك هي نفسها أوضاع الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها روما، وِفْقا لما جاء في كتاب الجمهورية لشيشيرون، عن المواطَنة الرومانية، إذ انتمت فئة الكهنوت إلى طبقة المواطنين النبلاء، وكان الكهنة يتمتّعون بمزايا عديدة، ويحصلون على العُشر من كل الضرائب المحصّلة ومن غنائم الحروب والغزوات، وكانوا يسيطرون تماما على كل ما يتعلّق بتفسير وشرح، أسلوب الدولة الرومانية في تطبيق القوانين الادارية والقضائية، لجمهور الشعب الجاهل قليل الثقافة، وإقناعه بكل ما تنوي حكومة الادارة القيام به. طبعا كان هذا مقابل الحصول على العُشر السابق الاشارة اليه.

لم تكن من بين أفكار أولئك الكهنة حتى العصر الذي ظهرت فيه الديانة المسيحية، أي حتى القرون الأولى للميلاد، رغم التقدّم الحضاري الذي أحرزته روما، أيّة فكرة متعلّقة بيوم الحساب الأخير والثواب والعقاب في العالم الآخر، فبعد الموت لم يكن على الأرواح (وكانوا يطلقون عليها اسم الظلال)، إلا أن تتوجّه إلى العالم السفلي، حيث يقيم الموتى إلى ما لا نهاية، ويصبحون ما يسمّونه أرواح الأسلاف. [مؤلفات بومبونيوس Pomponius عن أصول القوانين المتعلّقة بالعدالة القضائية De origine juris، وكذلك كتاب ديانة وثقافة الرومان/ للمؤلف فيسوفا Wissova/ سنة ١٩١٢] .

وقد جاء في مؤلفات الشاعر أوفيد، المعروفة باسم Fastes، وهو ما يمكن ترجمته ب(تاريخ المآثر وسجل الوقائع)، أن الإله ميركوريوس هو من يقوم بقيادة الموتى عبر مناطق العالم السفلي. والسيطرة على نزواتهم، إذ كان يعنّ لهم أحيانا أن يصعدوا من عالم الأموات السفلي، إلى عالم الأحياء العلوي لمضايقتهم، لذلك كان الأحياء يذهبون إلى مداخل العالم السفلي التي كانت معروفة في روما وضواحيها، ليتركوا للأموات وجبات حقيقية، من

المأكولات المختلفة، حتى يترك الأموات الأحياء يعيشون في سلام.

المفكّر (هيسيود Hesiode) من منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، وهو أحد أهم ثلاثة شعراء في الأزمنة اليونانية القديمة (مع فيرجيل ولوكريشيوس)، في كتابه الأفعال والأيّام، يقارن بين السلطات الحاكمة في علاقتها بالشعب، وبين الصقور في علاقتها بالعصافير، تلك التي يتمتّع ريش أعناقها بالألوان المتعدّدة، إذ يأخذ الصقر القوي العنيف، فريسته العصفور الضعيف، بين فكّي منقاره، قائلا له (أيّها البائس، لماذا تصرخ؟ ألا تعلم أن هناك من هو أقوى منك بكثير، والقادر على أن يفعل بك كل ما يشاء. أنت ستذهب إلى حيث أريد لك أن تذهب. فمهما كان صوتك جميلا، أستطيع أن أتركك حرّا طليقا، أو أقرّر أن أبلعك في قضمة واحدة. إنه مجنون ذلك الذي يقاوم من هو أقوى منه [كتاب هيسيود/ من ترجمة الفرنسي بول مازون/ دار نشر بوديه Bude/ طبعة ١٩٨٢/ صفحة ٩٣].

أمّا مصر القديمة، فيبدو بوضوح أنها كانت قد سبقت كل هذه الأمم حضاريا، وذلك لأنها عرفت منذ البداية بوجود عالم آخر، يذهب اليه المتوفّى بعد الموت، لكن الدخول اليه كان مقصورا على الملوك والأمراء والكهنة، حتى قامت ثورة شعبية في نهاية الأسرة السادسة، في حوالي القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، أدّت إلى سقوط الدولة القديمة، حسبما جاء في بردية إيب أو ور، أدّت إلى حصول الفقراء على الحق في دخول ملكوت السماوات في العالم الآخر. هنا ظهرت في مصر القديمة فكرة الحساب الأخير، حين يقف المتوفّى أمام اثنين وأربعين قاضيا، ليعترف بذنوبه، ثم يتمّ وزن القلب على ميزان العدالة، بحيث يقف الأخوان غير الشقيقين، كملاكين حارسين على جانبي كفّتي الميزان، فإذا طبّت كفّة الأعمال الطيبّة، ذهب المتوفّى إلى الجنّة، وإذا طبّت كفّة الأفعال الرديئة، ذهب المتوفّى إلى النار.

(٤)

تناسخ الأرواح

كان المجتمع الهندي البراهماني، مقسّما إلى أربع طبقات اجتماعية مغلقة على أصحابها، لا يستطيع أحد أن يدخل فيها أو أن يخرج منها، وكانت فئة الكهنة البراهمانية يشغلون الطبقة العليا، ويعود الفضل في ذلك إلى أنهم خرجوا مباشرة، حسب المعتقدات الدينية الخاصة

بهم، من فم براهما الأول مؤسّس البراهمانية. تأتي بعد ذلك طبقة النبلاء، ويسمّون كشاتريا kshatriya، الذين حسب نفس المعتقدات، كانوا قد خرجوا من ذراعيّ براهما. ثم تأتي الطبقة الثالثة في الترتيب، وهي طبقة العامة ممن يسمّون الدهماء، الذين يمكن أن يكون من بينهم الصنّاع والزرّاع، ويسمّون بالهندية فايشيا vaishya، ويعتقد أنهم قد خرجوا من ساقيّ براهما.

ثم تأتي الطبقة الرابعة والأخيرة في الترتيب الاجتماعي، والتي كان يعتقد أنها قد خرجت من قدميّ براهما، ويسمّون صودرا sudra، وتعني العبيد، وهم ليسوا أحرارا ويتمّ توريثهم داخل عائلات النبلاء، وتكليفهم بالمهام الشاقة دون مقابل، بل مجرّد الحدّ الأدنى من الاعاشة، مثل الغذاء والكساء والسقف للمبيت. من يولد صودرا يظل صودرا طوال حياته [الريج فيدا Rig -Vida،أو مبادىء الأوبانيشاد/ للمؤلف ويلسون/ ١٩٢٨، وكذلك للمؤلف رادا كريشنا/ طبعة لندن/ ١٩٥٣].

كانت طبقة الكهنة من البراهما، تتعامل مع بقية طبقات المجتمع الهندي، كما لو كانوا همّ من الآلهة الباقين وغيرهم من البشر الفانين[كتاب فيشنو Vishnu/ في سلسلة كتب الشرق المقدّسة/ طبعة أوكسفورد/ سنة ١٨٨٠]. كانوا يراكمون الثروات المادية، حيث إن كل أفراد الشعب، بمن فيهم الأمراء والنبلاء، كانوا يقدّمون قرابين إلى الآلهة، كان هؤلاء الكهنة يحتفظون بها لأنفسهم، أو يبيعونها ويحصلون على أثمانها.

كما أن هؤلاء الكهنة كانوا يحتفظون سرّا بكل الكتب المقدّسة، وبكل الكتب المتعلّقة بتفسيرات النصوص المقدّسة، التي ليس فقط لا يسمحون بتداولها بين أفراد الشعب، بل أكثر من ذلك أنهم لم يكونوا يسمحون للشعب بمجرّد مناقشتها، ناهيك عن الاعتراض عليها. كانوا يذيعون على الشعب من هذه الكتب المقدّسة، فقط ما يتناسب مع ما يسمح لهم بالاحتفاظ، بكل امتيازاتهم المادية والمعنوية على الشعب.

كانوا أوّل من يمكن أن يطلق عليهم في التاريخ لقب (ملاّك الحقيقة المطلقة)، فهم وحدهم فقط لا غير ولا أحد غيرهم، يعرف كل ما يتعلّق بالإله، وبأسرار الدخول إلى ملكوت الإله، أو النفي خارج هذا الملكوت، إلى البريّة القاحلة، حيث البكاء وصرير الأسنان. بالاضافة إلى ذلك لم يكن يحق لأي شخص من خارج طبقة الكهنة، أن يلمس هذه الكتب المقدّسة التي كانوا يحتفظون بها في خزائن مغلقة داخل قدس أقداس المعابد.

بالطبع لا يمكن في مثل هذا المجتمع، أن يحصل العبيد من الطبقة الرابعة، أو حتى الفقراء من الطبقة الثالثة، على العدالة الاجتماعية، أو على أي حقّ من الحقوق الدنيويّة أو الأخرويّة، بل كانت كل هذه الحقوق مقتصرة على الطبقتين العليين من الكهنة والنبلاء. يذكّرنا هذا الوضع بالدولة القديمة في مصر القديمة، أي من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة، حين لم يكن مسموحا بذهاب الفقراء إلى العالم الآخر، الذي كانت أسرار الدخول اليه لا يكتبها الكهنة من الكتبة النقّاشين، أي من المتخصّصين في نقش هذه الكتابات، إلا إمّا فوق جدران حجرات الدفن في الأهرامات المخصّصة للملوك، أو فوق جدران مصاطب الدفن المخصّصة لطبقة النبلاء.

ومع ذلك فإنّه في مرحلة متأخّرة من تاريخ سيطرة الكهنة البراهمان على المجتمع الهندي، ظهرت فكرة مبدئية جنينيّة، عن الثواب والعقاب في العالم الآخر، عالم ما بعد الموت، في كتاب الياجور فيدا Yajur Veda، وهو أحد الكتب المقدّسة لدى البراهمان، وقد تمّ ذلك عبر فكرة مبدئيّة جنينيّة عمّا سمّي لاحقا تناسخ الأرواح، أو عبور الأرواح بين الأجساد، عندما تنتقل الأرواح من أجساد ماتت، إلى أجساد جديدة للمواليد الذين تدبّ فيهم الحياة للمرّة الأولى. هذه الفكرة كانت على ما يبدو قد أصبحت أمرا واقعا في المجتمع الهندي، كتعبير عن معنى آخر وراءها، ألا وهو مطالبة الفقراء الذين طالما وقع عليهم الظلم الاجتماعي، بالحق في العدالة الاجتماعية التي طال زمن حرمانهم منها.

وبالتالي أصبحت هذه الفكرة الوليدة، هي المعزّي للفقراء، الذين قيل لهم إن أرواحهم الطيّبة في هذه الحياة، التي كانوا فيها فقراء، ستكافأ على طيبتها في هذه الحياة، بأن تصبح في حيوات قادمة، أرواحا لأناس أغنياء. وهذا يعني أنه ينبغي على كل شخص أن يرضى بمصيره الحالي، ذلك لأن الأغنياء في هذه الحياة، كانوا أصحاب أرواح صالحة في حيوات سابقة، والفقراء في هذه الحياة، كانوا أصحاب أرواح طالحة في حيوات سابقة.

أي في عبارة موجزة، كانت هذه هي الخدعة التي تمكن بها البراهمان من إقناع الشعب الهندي الفقير، ولو لبعض الوقت، بأن فقرهم الحالي، أو ما قد نسمّيه اليوم ظلما اجتماعيا، هو إرادة الهية، هذه هي رغبة الآلهة. وهو ما أدّى إلى استقرار وشرعنة نظام الطبقات الاجتماعية، التي لم تكن إلا إرادة الهية. لكن حدث في القرن السابع قبل الميلاد، أن ظهرت في الهند طبقة من الكهنة البراهمان القادمين من الغابات، كان بعضهم من أسرات فقيرة، إلا

أن ما جمع بينهم كان النُسْك والزُهْد في الحياة.

كانوا غاضبين من كهنة النظام القديم ومتمرّدين عليهم. ثم حدث أن تمكنوا من التحرّر من سطوتهم، وبالتالي تحرير الشعب من ربقة كهنة النظام القديم. كان من أهم ما تخلّص منه الكهنة النسّاك الجدد، هي الطقوس المتحذلقة التي تدّعي العلم والمعرفة وتتعالى على الشعب قليل الثقافة. إلا أن مساندة السلطات الزمنية للنظام القديم، جعل الهند تعيش في صراعات قرونا طويلة. ثم أصبح من يتبع الكهّان النسّاك الزاهدين، لا يؤمن إيمانا قاطعا بتناسخ الأرواح كحل لمعضلة الظلم الاجتماعي، كما كانت الأوضاع في السابق، بل بضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية في هذه الدنيا، وعلى هذه الأرض، بدلا من انتظار تحقيقها في عالم ما بعد الموت [الكتب المقدّسة الأوبانيشاد/ ماكس مولر/ الأعمال الكاملة/ لندن/ ١٨٩٨].

كان هذا الحلّ الذي اقترحه النسّاك الزاهدون الجدد، لا يعالج أصل مشكلة الظلم الاجتماعي وتناسخ الأرواح، بل كان يقدّم دواءً يخفف الألم فقط لا غير. عندما فشلوا في تحقيق العدالة في هذا العالم، اقترحوا أن يكون العلاج هو في مجرّد معرفة الحقائق المتعلّقة بالحياة بعد الموت. لم تؤدِّ فلسفتهم إلى معرفة الحقائق التي حاولوا الوصول إليها، وأصبحت قصّتهم كما يشار اليها في التراث الهندي، مثل العميان الذين يقودون العميان.

(٥)

بعث الموتى

كان المصريون القدماء حوالي ألفيّ عام قبل الهندوس، قد توصّلوا إلى صياغة واضحة للحقيقة والعدالة، متمثّلة في الربّة (ماعت)، التي ارتبطت بتحقيق العدالة على الأرض كما في السماء، هي نفس الربّة في المكانين، وبالتالي ارتبطت بإظهار الحقيقة في العالم الأخروي، وكنتيجة مباشرة لهذا فقد ارتبطت كذلك بالحساب الأخير والثواب والعقاب، وقيامة الموتى من الأموات، وبعثهم من جديد إلى حياة، تشبه تماما تلك التي عاشوها على الأرض. لم يذكر المصريون القدماء أي شيء عن تناسخ الأرواح، فهذه الفكرة لم تخطر أبدا على بالهم. عند الهندوس تنتقل الروح من جسد فانٍ إلى جسد جديد، في حين أن الروح عند

قدماء المصريين، تنتقل من جسد صاحبها الفاني الذاوي، لا لجسد انسان آخر، بل إلى جسد جديد لنفس الإنسان الذي سكنته الروح سابقا.

في بداية الحضارة الإنسانية، كانت مصر القديمة هي أول حضارة تعرف وتعتنق فكرة بعث الموتى، وقد استمرّت مصر القديمة هي الحضارة الوحيدة التي تعتنق هذه الفكرة لمدّة قرون طويلة. ففي حضارة العراق القديم، في الملحمة السومرية البابلية المعروفة باسم أسطورة جلجامش، كان بطل الأسطورة يبحث عن سر الخلود، لكن جهوده كلها انتهت بالفشل، ومع الفشل جاء الاستسلام للقدر، والاعتقاد في أن الخلود هو فقط من نصيب الأرباب، وأن البشر محكوم عليهم بالموت والفناء [التصوّر السومري للحياة بعد الموت/ للمؤلف رايموند ريك جاستين/ ١٩٥٦].

رفض المصريون هذا الخضوع للقدر والاستسلام للمصائر، وكانوا أول من دعوا إلى بعث الموتى. في العالم الآخر لا يموت البشر، وإنما يصبحون خالدين مثل الآلهة. ولكن الطريق الذي أدّى إلى هذه النتيجة كان طويلا، فقد بدأت مصر في حوالي القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد، ومثلما حدث مع أغلب الحضارات القديمة، بملك كان ينظر اليه على أنه إله وابن آلهة، له سلطة مطلقة وسطوة، على كل الكائنات الموجودة، فوق قطعة الأرض التي يملكها، وكان الشعب يعبده مثلما هو الحال مع آلهة آخرين.

حول الملك نمت طبقة مميّزة من البشر، من أقربائه الأمراء الذين كوّنوا الأسرة الملكية والبلاط الملكي. ظهرت هنا الملكيات الضخمة للأراضي الزراعية، التي اقتصر امتلاكها على هذه الطبقة المميّزة من الأمراء والنبلاء، كما ظهرت وظائف الادارة العليا، مثل الوزراء وحكّام المقاطعات. كما تكوّنت الكتلة الشعبية في الأساس من مزارعين مستأجِرين لقطع صغيرة من الأرض الواقعة في نطاق الاقطاعيّات الكبيرة، أو مزارعين يُستأجرون للعمل باليوميّة، وكذلك من الصنّاع أصحاب الورش، والعمال لديهم بعقود شهرية [كتاب تاريخ المؤسّسات والحقوق المدنية في مصر القديمة/ للمؤلف جاك بيران/ بروكسل/ ١٩٣٢].

منذ ذلك الوقت المبكّر من الأسرات المصرية الأولى، ظهر الانقسام واضحا في المجتمع المصري إلى فقراء وأغنياء. استمر هذا الوضع حتى نهاية الأسرة السادسة حوالي منتصف القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، عندما ثارت جموع الشعب على السلطة الملكية المطلقة، والنظام الطبقي الذي أدّى إلى الكثير من الظلم الاجتماعي، وقامت الجماهير

المصرية بمهاجمة القصور الملكية وقصور النبلاء. إلا أن هذه الجماهير لم تهاجم معابد الآلهة وذلك لأن وظائف الكهنوت لم تكن مقتصرة على فئة معيّنة، بل كانت متاحة لكل أفراد الشعب، بالاضافة إلى أنّها لم تكن تورّث [برديّة تعاليم الحكيم مري كا رع/ الموجودة في متحف مدينة لينينجراد]، خلافا لنظم الكهنوت في كل حضارات العالم القديم.

هناك بردية هامة أخرى تصف سنوات الاضطراب والفوضى، وتقول إن ابنة الملك اضطرت إلى العمل في الدعارة لتحصل على قوت يومها [برديّة الحكيم إيب أو وِرْ/ الموجودة في متحف مدينة ليدن]. كما أن هناك نصوصًا أخرى من العصور القديمة تشير إلى هذه الفوضى، فهناك مثلا هيرودوت في كتابه (التاريخ) الذي كتبه بعد عودته من رحلته إلى مصر، التي كانت بالتقريب في حدود منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، يقول (إن سبعين أميرا ملكيا أعلنوا أنفسهم ملوكا على مصر، خلال سبعين يوما، في محاولة لإعادة إقامة النظام الملكي بعد انهياره، إلا أن مُلْك كل واحد من هؤلاء السبعين، لم يكن يدوم إلا يوما واحدا، ثم كان يحدث أن يثور عليه الشعب من جديد ويقتله، وبالتالي فقد انقطعت محاولات الأمراء إعادة الملكية إلى مصر، ولكن بعد أن كان الشعب المصري قد قتل منهم سبعين أميرا).

كانت من أهم نتائج هذه الثورة الاجتماعية التي تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ البشرية، أن حصلت الجماهير كذلك على الحق في دخول العالم الآخر، الذي كان مقتصرا فيما مضى على الملوك والأمراء والنبلاء. وبعد أن كانت طقوس العودة إلى الحياة، هي من بين الأسرار الكهنوتية السريّة المقدّسة، حدث أن فقدت سرّيتها، وأصبح في مقدور كل فقراء البلد، الحصول عليها وممارستها، والحصول بالتالي على البعث والأبدية والخلود.

كان هذا أحد أكبر انجازات الحضارة المصرية القديمة. عدالة إتاحة الفرصة أمام الجميع. يقول الحكيم مري كا رع في برديته التي تعود إلى القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد (إن الإنسان يحيى من جديد بعد الموت، وتوضع إلى جواره كومة من أعماله الدنيوية، الصالحة إلى جهة والطالحة إلى جهة أخرى. إن إقامة الإنسان في العالم الآخر تدوم حتى الأبدية، وسيكون صاحب أقل كومة من الخطايا حجما، هو أقرب البشر إلى الأرباب والآلهة).

وحيث إن الكهنة والكتبة المقدّسين لم يكونوا ينتمون إلى طبقة نبيلة مغلقة، أو إلى مهنة يتمّ توريثها عبر أجيال من نفس العائلة، فقد استطاعوا أن يعدلوا. هكذا تمّ الربط من ناحية بين

العمل الصالح في الدنيا والثواب في الآخرة، ومن ناحية أخرى بين العمل الطالح في الدنيا والعقاب في الآخرة. هكذا أيضا تمّ الربط بين قدرة الإنسان على أن يُبْعَث، أي على أن يعود إلى الحياة من ناحية، وعلى ضرورة مروره قبل البعث، من بوّابة الحساب الأخير للوقوف أمام القضاة الاثنين وأربعين من ناحية أخرى. فمن يفرّ من العدالة الأرضية سيقع حتما في قبضة العدالة السماوية. ظهرت هذه الأفكار بوضوح للمرّة الأولى في التاريخ الإنساني، ألفي عام قبل مولد المسيح، فيما عُرِف باسم نصوص التوابيت، في الأسرات المصرية، منذ الأسرة الثانية عشرة، وحتى نهاية العصر الفرعوني في الأسرة الثلاثين.

ثم بعد أن قام الاسكندر الأكبر بزيارة مصر، حوالي ٣٣٢ ق م، وإعلانها جزءا من مشروعه الحضاري الكبير، انتقلت إلى الحضارة الهيلينستية الاغريقية منذ تلك اللحظة، الكثير من الأفكار المصرية المتعلّقة بالعالم الآخر. ففي أسطورة أورفيوس، الذي جاء في رحلة إلى مصر، عاد منها إلى اليونان، ومعه الأفكار الأسطوريّة الخاصة بثواب الأخيار في الحقول المُزْهِرة، وبعقاب الأشرار في جحيم النيران المُسْتَعِرة. ينقل الينا المؤرّخ اليوناني الصقلّي ديودوروس، الذي عاصر ميلاد المسيح، أن فكرة أخرى رئيسية انتقلت من مصر إلى اليونان، وهي فكرة مصرية أصيلة تتعلّق بانتقال البشر عند موتهم، عبر النهر من ضفّة الأحياء إلى ضفّة الأموات. وهو تماما ما سيعرف لاحقا في المسيحية وفي غيرها من الديانات باسم البرزخ.

(٦)

الاله الواحد القهّار

٣٠٠٠ عام قبل الميلاد، توصّل المصريّون إلى فكرة الإله الخالق للبشر وللكون كله، مستمعملين المفردات التي عادت كل الديانات اللاحقة إلى استعمالها. ثم منذ القرن الخامس والعشرين ق م، في بدايات الأسرة المصرية الخامسة، كانت كل النصوص المتعلّقة بالخلق قد استقرّت في أشكالها شبه النهائية، فيما عرف في النقوش على جدران حجرة دفن هرم الملك أوناس، باسم نصوص الأهرامات. ثم جاءت من جديد في تعاليم الحكيم مري كا رع، في القرن ٢٢ ق م. ثم من جديد في نصوص التوابيت في القرن ٢٠ ق م. ثم من جديد في ترانيم أخناتون إلى إله الشمس آتون في القرن ١٤ ق م. ثم تواتر انتقال هذه النصوص

نفسها في كل برديّات تعاليم كهنة وحكماء مصر، إلى اللحظة التي فتح فيها الاسكندر، قدس أقداس معبد الأقصر، ثم قدس أقداس معبد آمون في سيوة، ليعلن نفسه ابنا لآمون، وينقل حكماؤه التعاليم المصرية إلى أثينا واسبرطة.

يشير المؤلف الفرنسي إتيان دريوتون Drioton، في كتابه (الديانة المصرية)، المنشور ضمن سلسلة كتب عن (تاريخ الديانات)، في باريس سنة ١٩٥٩، أن مصر القديمة كانت تعرف في نفس الوقت، الاتّجاه إلى عبادة الإله الواحد monotheisme، مع الاتّجاه إلى عبادة الآلهة المتعدّدة polytheisme، ولكن كان هذا يحدث في المناطق المختلفة المتباعدة. حدث هذا بسبب التمدّد الشاسع للامبراطورية المصرية، في قمّة توسّعها على زمن تحوتمس الثالث، في منتصف القرن الخامس عشر ق م، حين وصلت حدود مصر إلى الشلال الرابع في السودان، والى الجبال على الحدود الحالية بين سوريا وتركيا.

الاله الواحد لم يخلقه الهٌ غيره بل خلق هو نفسه بنفسه. النماذج الدالة على هذه الفكرة، هو نموذج الإله رعّ في نظرية خلق العالم وفق مدرسة عين شمس (هليوبوليس)، ونموذج الإله بتاح وفق نظرية منف (ممفيس)، والاله جحوتي وفق نظرية الأشمونين (هرموبوليس)، وآمون وفق نظرية طيبة (الأقصر) [كتاب فولكنر/ عن نصوص التوابيت/ الصادر في انجلترا/ سنة ١٩٧٣]. في تاسوع هليوبوليس حدث أولا أن خلق رعّ نفسه، وهو الإله الذي يظهر في قرص الشمس، ثم خلق هو بعد ذلك أربعة أزواج من الآلهة، الأرض (جبت) والسماء (نوت)، الماء (تفنوت) والهواء (شو)، ثم الأربعة أخوة أوزوريس وإيزيسة وصِت ونفتيسة.

الإله رعّ له ٧٥ اسما مختلفا. فهو خبري khpr عند شروق الشمس، إذ يأتي بالأخبار السارة بعودة الحياة إلى الأرض، وتجدّد دورتها اليومية، ثم هو رعّ عند منتصف النهار، إذ تترعرع الكائنات بفضل حرارة الشمس، ثم هو آتون itn عند أقصى درجات الحرارة، التي تكون غالبا في مصر الساعة الثالثة بعد الظهر، ومنها جاءت إلى العربية كلمة آتون النار الموقدة، ثم هو آتوم itm، الذي يأتي منها في العربية معنى التمام والاكتمال، عندما ينهي قرص الشمس رحلته النهارية، ويقترب من المغيب، ومن بداية رحلته الليلية، خلال الاثنتي عشرة ساعة أثناء الليل، التي يبحر خلالها إله الشمس، فوق مياه نهر العالم الآخر تحت الأرض، الذي يشبه تماما نهر النيل، في هذه الحياة فوق الأرض، يركب رعّ مركبه عبر مناطق

العالم السفلي الاثنتي عشرة.

قد توحي كلمة يُتِم أي يُكْمِل، كذلك ولكن بتغيير التشكيل في العربية، أو بتغيير الحركات في المقابل المنطوق في اللغات الأخرى، بمعنى اليُتْم، ليس فقط في معناها المباشر، أي أن يكون الشخص بلا أب ولا أم، بل كذلك بمعنى الانفراد والتفرّد، فاليتيم هو الوحيد، أيّ الذي لا مثيل له [كتاب لسان العرب/ للمؤلف ابن منظور/ في جزئه السادس عشر/ من طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة/ صفحة ١٣٣].

تقول نصوص الأهرامات من القرن ٢٥ ق م، ونصوص التوابيت من القرن ٢٠ق م، وكتاب الموتى من القرن ١٦ق م، عندما توجّه الحديث إلى ربّ الأرباب، خالق الكل (تحيّة لك أيها المتفرّد، يا من ليس لك مثيل). ثم يقول أخناتون إلى إلهه الوحيد، على جدران مقابر العمارنة من القرن ١٤ ق م (اليكَ أيّها المتفرّد، الذي باستثنائه ليست هناك آلهة أخرى).

في الكثير من المعابد المصرية خلال ثلاثة آلاف عام، نقابل العديد من الآلهة التي يندمج بعضها في الآخر، فقد نجد رعّ مندمجا مع آتوم، ويعرف في تلك الحالة باسم رعّ آتوم أو آتوم رعّ، وتخصّص له بعض مقاصير العبادة، ومناظر القرابين، في معبد الكرنك، الذي بلغ ذروة أهميّته خلال عصر الدولة الحديثة (بين القرن ١٦ والقرن ١١ ق م)، حيث نقرأ على الجدران (إنّه هو الإله الذي خلق نفسه بنفسه، الإله الأزلي الذي جاء إلى الوجود منذ البداية) [نصّ مسجّل كذلك على شاهد قبر في متحف برلين يحمل رقم ٧٣٧١، ثم في كتاب ترانيم وصلوات من مصر القديمة/ لكل من باروك ودوما/ ١٩٨٠].

أمّا إله الخلق وفق نظرية طيبة فهو آمون، الذي يوحي اسمه بالأمن والأمان، فنجده في معبد هيبيس بالواحات الخارجة، الذي يعود إلى زمن الاحتلال الفارسي لمصر حوالي منتصف القرن الخامس ق م، وقد اندمج في بعض مناظره وصلواته مع آتوم، حيث نقرأ (انّه هو الذي خلق نفسه، فهو لم يكن محتاجا إلى أب حتى يولد، ولم يكن محتاجا حتى إلى أم، تستقبل البذرة الأبوية، لتحمل به ثم تلده).

يقول المؤرّخ اليوناني لاكتانتيوس Lactantius، إن لفظ الثلاثي العظمة الذي أطلقه اليونانيّون على الإله هرميس، وهو المقابل اليوناني للإله المصري جحوتي، جاء بتأثير من مصر القديمة، رغم أن النصوص التي تخصّ نفس هذا الإله، توضّح أنه لم يكن له أب، ولم تكن له أم. أبوليه Apulee في كتابه مسخ الكائنات ميتامورفوزيس، يذكر زيوس بنفس

الألقاب التي سبق أن ذُكِرَ بها أوزير، وهي الذات العليا الواحد القهّار.

والمؤلف جامبليك Jamblique وهو من القرن الرابع الميلادي، في كتابه الأسرار (أو الألغاز) المصرية De mysteriis Aegyptiorum الذي حقّقه تيودور هوبفنر، والمطبوع في لايبزيج سنة ١٩٢٢، ذكر بكل وضوح ما نتردّد نحن اليوم في قبوله، من أن أصل كل العبادات التوحيدية السماوية الحالية، هو معتقدات مصر القديمة. ذكر كذلك أن عبادة آلهة متعدّدة polytheisme، أو عبادة الآلهة التي اعتقدنا أنها متعدّدة، لم تكن إلا أشكالا مختلفة وأسماء مختلفة لنفس الإله الواحد القهّار. فالله الواحد بصفته الها خالقا يسمّى آمون، ثم هو بصفته فنانا قادرا على الابداع يسمّى بتاح، وهو بصفته صانعا للخيرات محفّزا النبات على الاخضرار فهو أوزير.

ثمّ إن كهنة مصر القديمة، لم يكونوا يذكرون إلههم بالاسم، وإنّما يذكرونه قائلين (الواحد الأحد)، ذلك حيث إنه لا شريك له، فهو معروف للكل، وليس هناك ما يدعو إلى إطلاق اسم عليه. وهو نفس التقليد الذي سارت خلفه الأناجيل الأربعة، ففي إنجيل مرقص الاصحاح الثاني عشر العدد ٢٩ يقول (فأجابه يسوع: أولى الوصايا جميعا هي، اسمع يا إسرائيل، الربّ الهنا ربٌّ واحد). وفي الرسالة إلى مؤمني روما الاصحاح الثالث العدد ٣٠ يقول (ما دام الله الواحد هو الذي سيبرّر أهل الختان على أساس الايمان، وأهل عدم الختان على أساس الايمان، .....)

(٧)

كرسي العرش

يقول حجر شاباكا الذي يحمل رقم ٤٩٨ في المتحف البريطاني بلندن، إن الإله بتاح، خالق الكون وفق نظرية منف، بعد أن خلق كل شيء استراح. وهي نفس الكلمة التي تستعملها التوراة في أكثر من موضع. ففي سفر التكوين الاصحاح الثاني الأعداد من ١ إلى ٣ يقول (وهكذا اكتملت السماوات والأرض بكل ما فيها، وفي اليوم السابع أتمّ الله عمله الذي قام به، فاستراح فيه من جميع ما عمله، وبارك الله اليوم السابع وقدّسه، لأنه استراح فيه من جميع أعمال الخلق). وفي سفر الخروج ثاني أسفار التوراة، الاصحاح العشرين العدد ١١ يقول (لأن الربّ صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها في ستة أيام، ثم استراح في

اليوم السابع).

أما نظرية الخلق التي سادت خلال فترة العصر المتأخر، من الأسرة الواحدة والعشرين إلى الأسرة الثلاثين، فإن الإله الخالق أوزيريس، يجلس فوق عرشه بمجدٍ كبير، ليسيّر أحوال البشر. إن الإنسان يتخيّل الربّ كما لو كان من أصول بشرية مثل أوزيريس، بجسم بشري له ما للجسم البشري من رأس وذراعين وساقين وقدمين، يتعب من عملية الخلق، فيحتاج إلى الراحة، فيجلس مثل كل البشر الفانين، على العرش ليستريح، ثم ليدير بصره في أرجاء المعمورة يحاسب كائناته البشرية، كما كان فرعون يفعل من شرفة القصر الملكي. إن الترنيمات البشرية في مصر القديمة، تطلق على أوزير لقب (ربّ العرش) أو لقب (الجالس على عرشه) [البردية رقم ١٠٢٢٩ في المتحف البريطاني بلندن/ من الأسرة الثانية والعشرين/ حوالي القرن العاشر ق م].

في نصوص الأناجيل، التي تتحدّث عن قيامة المسيح من الأموات، فجر يوم الأحد، وصعوده إلى السماء، تظهر كلمة نادرا ما ظهرت في غير هذا الموضع من الأناجيل، وهي كلمة (العرش)، إذ نقرأ (أن الربّ الجالس على كرسي عرشه، كان في استقبال يسوع المسيح عند صعوده إلى السماء فجر الأحد، وأجلسه إلى يمينه على كرسي عرشه) [سفر أعمال الرسل/ الاصحاح الثاني/ الأعداد من ٣٠ إلى ٣٤].

وهي فقرة تعيد إلى الأذهان نصوصا مصرية قديمة، تقول إن أوزير بعد عودته إلى عالم الأحياء، وانتصاره على ملائكة الموت، قد جلس عن يمين ربّ الآلهة (رع آتوم) وهو اسم مركّب من اسمين لالهين مصريين من أهم آلهة مصر القديمة، أحدهما وهو رعّ كان خالق العالم وفق نظرية عين شمس (هليوبوليس)، والثاني وهو آتوم كان الكمال المطلق التام. هنا تنبغي ملاحظة وجود نفس هذه الألفاظ في اللغة العربية الحديثة، إذ أعطى الإله آتوم إلى العربية كلمتي التام والأتمّ. والاسم المركّب من رع وآتوم، يعني المترعرع/ المزدهر/ الكامل/ الأتمّ، وهي من بين الأسماء المختلفة لرب المجد، التي يقدّرها بعضهم بسبعين، والبعض الآخر بثمانين أو بتسعين اسما مختلفا.

من بين تلك الأسماء الأكثر تكرارا في الأناجيل صفة (العليّ) وصفة (القدير). انظروا إلى إنجيل متى الاصحاح ٢٧ العدد ٦٤، الذي يقول (يسوع المسيح الجالس عن يمين القُدْرَة). إن اسم أوزيريس في المصرية القديمة ينطق (وِزِر)، وهي كلمة مستخدمة في اللغة المصرية

القديمة وتعني القدير [كتاب أوزوريس/ للمؤلف الانجليزي واليس بادج Wallis Budge].

وهى نفس الكلمة المستعملة في كتاب الميتا مورفوزيس للمؤلف أبوليه، للدِلالة على إيزيس، بمعنى القديرة. ويأتي هذا اللفظ كذلك لوصف إيزيس في مصادر عديدة منها مثلا على شاهد قبر من القرن الأول ق م، عثر عليه في منطقة البدرشين في محافظة الجيزة بمصر، وهو موقع عاصمة الدولة القديمة، المعروفة باسم منف أو ممفيس، وهي المدينة التي استمرّت على أهميتها، بسبب موقعها الجغرافي، رغم انتقال العاصمة إلى مدن أخرى [كتاب للمؤلف ليزبارسكي/ سنة ١٩٠٢].

كما أنه نفس اللفظ الذي يأتي مرارا وتكرارا على إفريز زخرفي في مامّيزي mammisi معبد الالهة إيزيس في جزيرة فيلة، ومامّيزي تعني بيت الولادة، أي البيت الذي سجّلت على جدرانه، قصة الميلاد المقدّس للطفل الملكي باني المعبد. كما أنه نفس اللفظ الذي يأتي على جدران جانبي الصرح الأمامي الأول عند دخول المعبد [كتاب ترنيمات إلى إيزيس/ للمؤلفين باروك ودوما Barucq and Dumas/ سنة ١٩٨٠].

وقد جاء هذا اللفظ مرارا وتكرارا في أسفار العهد القديم، لوصف الربّ يهوه، في كل مرة وقف فيها إلى جوار شعبه المختار، لينصره في حروبه على أعدائه. وسنذكر هنا فقط بعض الأمثلة، ففي سفر صموئيل الأول، الاصحاح الرابع العدد ٨ يقول (يقول الأعداء ويل لنا! من ينقذنا من يد أولئك الآلهة القادرين، فإنهم هم الآلهة الذين أنزلوا بمصر، كل صنوف الضربات في البرّيّة). وفي المزمور التاسع والثمانين من سفر المزامير، الأعداد من ٨ إلى ١٠، يقول النبيّ داوود (من مثلك أيها الربّ إله الجنود، الربّ القدير، أنت من يتسلّط على هياج البحر، أنت سحقت قوّة مصر فصارت كقتيل، وبدّدت أعداء شعبك المختار، الذين هم أعداؤك، بقدرتك العظيمة).

الفصل الحادي عشر
الحساب الأخير

(١)

بداية الكون

كانت بداية الكون وفق النظرية المصرية لخلق العالم، هو محيط مائي لا نهائي لا تحكمه أي قوانين، محيط أزلي أبدي من سائل عشوائي، من سديم عماء خواء هباء، بلبلة فوضى تشوّش، من ركام مشعّث، هوّة هاوية لجّة لا قاع لها، كانت اللغة المصرية القديمة تطلق على كل هذا لفظا واحدا هو (نون). تقول النصوص المصرية أن الإله رعّ الذي خلق نفسه بنفسه خرج من نون، تكوّن هناك ثم انتزع نفسه من تلك الهوّة العميقة التي بلا قرار [نصّ مكتوب على شاهد قبر/ تم العثور عليه في مقبرة حور إم حب/ من نهاية الأسرة الثامنة عشرة/ وموجود حاليا في المتحف البريطاني بلندن/ القطعة رقم ٥٥١]. ثم هناك نصوص أخرى في تقريظ العمل، الذي قام به رعّ وحده، لخلق هذا العالم، بعد أن كان قد نجح وحده، في الخروج من الهوّة العميقة (تحيّة لك يا من خرجت من العدم) [شاهد قبر/ من الدولة الحديثة/ في متحف برلين/ القطعة رقم ٧٣١٦].

هذه هي نفس صورة العالم قبل خلق الأرض، التي تعتنقها كل من الديانتين اليهودية والمسيحية، فمن نصوص التوراة هناك في (التكوين) سفرها الأول، النص الذي يقول (في البدء كانت الأرض مشوّشة ومقفرة وتكتنف الظلمة وجه المياه، إذ كان روح الله يرفرف على سطح المياه). ثم في الاصحاح السابع من نفس السفر، هناك في العدد رقم ١١ النصّ الذي

يتعلّق ببداية طوفان نوح، الذي يقول (تفجّرت المياه من اللجج العميقة في باطن الأرض). وفي السفر الثالث والثلاثين من مزامير النبي داوود، العدد رقم ٧ الذي يقول (يجمع الربّ البحار في كومة واللجج في أهراء).

وفي الإنجيل هناك رسالة بطرس الرسول الثانية، الاصحاح الثاني العدد ٤ الذي يقول (ان الله لم يشفق على الذين أخطأوا، بل طرحهم في أعماق هاوية الظلام، مقيّدين بالسلاسل). يؤكّد كتاب الموتى في الدولة الحديثة من مصر القديمة، أن كرسي عرش أوزوريس، خالق كل شيء وفق احدى نظريات خلق الكون في الدولة الحديثة، يستقر فوق مياه اللجّة العميقة [نسخة كولباكتشي من كتاب الموتى صفحة ٢٢٢]. ثم يقول سفر أعمال الرسل في الإنجيل، الاصحاح ١٧ العدد ٢٤ (ان الله هو الذي خلق الكون وكلّ ما فيه، ولأنه ربّ السماوات والأرض فهو لا يسكن في معابد بنتها أيدي البشر).

إن الايمان بعقيدة الكلمة logos، أي الايمان بأن الله قادر على خلق كل الموجودات، بمجرّد أن ينطق باسمها، فتتحول من فكرة في الفراغ، إلى كائن ملموس في التوّ واللحظة، هذا الايمان كان سائدا في مصر القديمة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد. ففي شاهد قبر الملك شاباكا، وهو من الأسرة النوبية الخامسة والعشرين، التي حكمت مصر في القرن الثامن قبل الميلاد، يستعاد نصّ من القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، حيث نقرأ أن الإله بتاح القادر على كل شيء، يقوم بخلق الكائنات، بمجرّد أن يقوم بنطق أسمائها بصوت مرتفع، فتوجد هذه الكائنات في الحال، كما لو أنّه كان يقول للشيء كُنْ فيكون.

ثم هناك بردية من عصر الرعامسة، وهو العصر الذي حكمت فيه مصر الأسرتان التاسعة عشرة والعشرون، بين ١٣٠٠ ق م و١١٠٠ ق م، وهو العصر التالي لعصر حكم أخناتون من عاصمته العمارنة، في نهاية الأسرة الثامنة عشرة، لذلك يطلق المتخصّصون على عصر الرعامسة اسم عصر ما بعد العمارنة، هذه البردية تقول إن الإله آمون رعّ، كان ينطق بأسماء الكائنات، فتأتي هذه الكائنات إلى عالم الموجودات في التوّ واللحظة [بردية رقم ١٠٦٨٤ في المتحف البريطاني بلندن]. ثم إن العناصر الأربعة الأولى التي بدأ بها الإله رعّ عملية الخلق، هي عناصر الماء والهواء والتراب والضوء، الماء هي الالهة تفنوت، والهواء هو الإله شو، والتراب هو إله الأرض جبت، بالاضافة إلى الهة السماء والضياء وهي نوت. وهي نفس العناصر الأربعة التي يتكرّر وجودها في كل أساطير العالم ودياناته المتعلّقة بالخلق.

يذكر كذلك (كتاب الموتى) من عصر الدولة الحديثة في مصر القديمة، أن هناك كتابا آخر تُذْكَر فيه مصائر البشر واحدا واحدا، أي يُذْكَر فيه مصير كل انسان على حدة، منذ مولده حتى مماته، أي كل ما هو معروف عن ماضيه، بالاضافة إلى كل ما هو غير معروف عن مستقبله، لكل البشر منذ أن خلقت الآلهة أوّل انسان، إلى أن خلقت الآلهة آخر انسان، وهو كتاب معروف باسم (كتاب ذِكْر المصائر) [نسخة المؤلف المحقّق كولباكتشي Kolpaktchy، من كتاب الموتى صفحة ٩٣].

تذكر تعاليم مري كا رع أن الربّ رعّ قد خلق كل الكائنات، ولكنها لا تذكر الترتيب الخاص بهذا الخلق، باستثناء أن الربّ قد بدأ بخلق العناصر الأربعة. يقول النصّ (أنت قد رفعت قبّة السماوات، أنت قد مددت الأرض تحت السماوات، أنت قد جعلت الشمس والقمر يسيران في السماء، من جهة معلومة إلى جهة معلومة، أنت قد صنعت نور الضياء وعتمة الظلام، في نظام تام يوما بعد يوم) (بردية اينسينجر Insinger/ تحقيق فرنسوا ليكسا Francois Lexa/ طبعة باريس/ ١٩٢٦]. يقول النص (أنت قد صنعت الأيّام والشهور والسنوات بنظام تام) [بردية ليدن Leiden/ رقم ٣٥٠].

ثم في نص من نصوص ترانيم أخناتون من الأسرة الثامنة عشرة، إلى إله الشمس، يقول (أنت قد صنعت الأنهار وأمطار السماء، لمعاونة البشر في البقاء أحياءً يرزقون، أنت قد صنعت النباتات التي بها الإنسان يقتات، كما أن الإنسان قد يقتات على غيره من المخلوقات، من طيور ودواب وأسماك) [ترانيم أخناتون الموجودة على جدران مقابر تل العمارنة خاصة مقبرة آي Ay، وكذلك بردية اينسينجر المشار اليها أعلاه].

نفس هذه النصوص وجدت طريقها بعد خروج بني اسرائيل من مصر، إلى نصوص أسفار التوراة، مع ملاحظة أن خروج بني إسرائيل من مصر كان تاليا على عصر أخناتون بما لا يقل عن مائة عام. يقول نص التوراة في سفر التكوين، الاصحاح الأول العدد من ١ إلى ٢٥ (خلق ايلوهيم السماء والأرض، والضياء والظلمة والليل والنهار، وجعل الليل يأتي بعد النهار، والنهار يأتي بعد الليل، في نظام تام، كما خلق الأعشاب والنباتات والأسماك والطيور والدواب والحيوانات المتوحّشة).

(٢)

خلق الإنسان

تقول الأناجيل وأسفار التوراة إن الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله، لكن الحقيقة هي أن الإنسان هو الذي تخيّل أنه قد تم خلقه على صورة آلهته، ففي أذهان كل البشر أن الله يمكنه أن يظهر على شكل رجل متقدّم في السن، بلحية كبيرة، وتبدو عليه علامات الحكمة [التوراة في الاصحاحات الأولى من سفر التكوين تتخيّل أن الله يتمشّى في الجنة في النهار ويرى آدم وحوّاء، اللذين بسبب إدراكهما لعريهما بعد أن أكلا من الشجرة المحرّمة، يحاولان الاختباء من عينيه، كأنه غير قادر على أن يرى إلا بهذين العينين البشرتين اللتين له].

انظروا كذلك مثلا إلى اللوحات الجدارية في سقف كنيسة سيستن في روما للرسّام الايطالي مايكل أنجلو من القرن الخامس عشر الميلادي، حيث يظهر الله بهذا الشكل البشري وهو يمدّ يده ليلمس يد الإنسان. تخيّل الإنسان كذلك صورة العالم الآخر من جنّة ونار، الجنّة على غرار صورة الجنائن والحدائق الأرضية، والنار على غرار لهيب النيران الأرضية [هذه النماذج لا نهاية لها لكن انظروا إلى لوحات الفنّان الهولندي بروجل من القرن السابع عشر].

وحيث إن بداية هذه الخيالات كانت في مصر القديمة، فإن الإله أوزير كان قد تمّ تصويره على جدران معابد ومقابر مصر القديمة، في صورة رجل يميل إلى السُمرة، لأنه نشأ في جنوب مصر حيث تميل بشرة الرجال إلى السُمْرَة. ومن الغريب ملاحظة أن أخاه الشرير شطا أو سيتوس، الذي نشأ في شمال البلاد في دلتا النيل، كانت بشرته في الرسومات الجدارية والتماثيل [المقابر الملكية في وادي الملوك ووادي الملكات في طيبة الغربية من عصر الدولة الحديثة]، تميل إلى البياض المحمر، على غرار بشرة سكّان الدلتا في ذلك الوقت الذين كانت أصولهم العِرقية ethnic قادمة من منطقة الشام أو من آسيا الصغرى.

من شبه المتّفق عليه حاليا أن شعبين قد عاشا في مصر، أحدهما في الشمال قادما من

أصول آسيوية، والآخر في الجنوب قادما من أصول أفريقية، خلال حوالي ألف عام، من ٤٢٠٠ ق م، إلى ٣٢٠٠ ق م. كانت هناك خلال الأف عام، العديد من الغزوات المتبادلة بين هذين الشعبين المختلفين شكلا وموضوعا، إلى أن نجح الشعب الجنوبي بقيادة مينا نعرمر في غزو الشمال، وفي فرض سيطرته على عموم البلاد، وفي إقامة أول عاصمة موحّدة للبلاد وهي منف، وفي فرض الكتابة الهيروغليفية على أساليب التفاهم بين الجنوبيين والشماليين.

كذلك الآلهات النساء مثل إيزيسة ونفتيسة وسلكت ونيت، وهنّ الآلهات الأربع الحاميات، اللائي يقفن حول مقاصير توابيت توت عنخ آمون [في المتحف المصري بالقاهرة]، يفردن أذرعتهنّ أو أجنحتهنّ، كرمز للحماية الإلهية التي يوفّرنها له، يمكنك أن ترى فيهنّ أيها الزائر لهنّ، نساء من الطبقة المصرية الوسطى، بنفس ملامح وجوههنّ السمراء الحالية، وقد لبسن ثياب الحداد، وحللن شعورهنّ حزنا على المتوفى.

أدرك المصريون أن الرجل لا يولد إلا من رَحِم إمرأة، فاستنتجوا من ذلك ضرورة أن تسبق المرأة الرجلَ في الوجود، أي أن وجود المرأة لا بدّ وأن يسبق وجود الرجل. في البردية رقم ٧ من البرديّات المكتوبة بالخط الهيراطيقي، في متحف المصريّات بمدينة تورينو في ايطاليا، وهي بردية تعود إلى عصر الرعامسة، من القرن الثاني عشر ق م، يقول الربّ في أحد النصوص (أنا هو من صنع الماء حتى تأتي البقرة السماوية إلى الوجود، ثم أنا هو من صنع بعد ذلك الثور، حتى يتمكّنا معا من الاستمتاع بلذّات الحبّ الجسدي).

وفي بردية أخرى (لقد صنعت الماء حتى تستطيع البقرة السماوية المقدّسة أن ترتوي، ثم جئت لها بالثور خصّيصا، حتى يتمكنا معا من إنجاب الذرّيّة). كانت تلك الفكرة عن المساواة بين الذكور والاناث، حتى في الحيوانات، فكرة معتادة في مصر القديمة التي لم تكن تميّز بين الذكر والأنثى في أي حقوق أو واجبات. كانت الأنثى ندّا للذكر في كل المجالات.

ويبدو بوضوح أن نظرية التفوّق الذكوري على الحضور الأنثوي، لم تبدأ إلا مع الديانة اليهودية، حيث ساد الذكور على الاناث في المجتمعات الإبراهيمية الأولى، التي كانت مجتمعات مرتبطة بالسلطة الأبوية، أي مجتمعات باتريباركال patriarchal، وباتري تعني الأب وأركال تعني السلطة، وهي المجتمعات التي أصبح فيها كيان المرأة أقل من كيان الرجل، رغم أن التاريخ في عصر الإنسان البدائي، يثبت لنا أن الطبيعة كانت في صالح

المجتمعات الأمومية ماتريار كال، وماتري matri تعني أمّ.

في الاصحاح الثاني من سفر التكوين أول أسفار التوراة اليهودية، تقول لنا الأعداد من ٢٠ إلى ٢٢ (أوقع الربّ الإله آدم في نوم عميق، ثم تناول ضلعا من أضلاعه، وسدّ مكانها باللحم، وعمل من هذا الضلع امرأة أحضرها إلى آدم). كأن وجود المرأة ثانوي على وجود الرجل، ناتج عن وجود الرجل أو تابع للرجل.

ثم بعد ذلك تكرّرت نفس الأفكار في الإنجيل، إذ جاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الاصحاح الحادي عشر، الأعداد من ٨ إلى ١٠ (إن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أُخِذَت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة، بل المرأة وُجِدَت لأجل الرجل، لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع). هكذا اعتنقت المسيحية فكرة تفوّق الذكور على الاناث. وهو ما يعتبر دون أي شك رجوعا عن مبدأ المساواة بين الذكور والاناث، الذي تبنّته مصر القديمة، ويعتبر تراجعا وارتدادا إلى الخلف، فيما يتعلّق بقيمة المرأة بالنسبة للرجل، لو قورن بأخلاقيّات المصريين القدماء وبأفكارهم عن المرأة.

(٣)

الحساب الأخير

إن دهن الجثمان بالطيب وبغيره من الروائح الطيّبة، هو من أجل إعداد المتوفّى لاستقبال الحياة الثانية. من أجل هذا أيضا مارسوا التحنيط، حتى تظلّ الجثث في أفضل حالة ممكنة، لحين عودة الأرواح التي تخصّها، مبرّأة بعد الحساب الأخير. من أجل هذا أيضا، بنوا المقابر الضخمة التي يصعب اقتحامها، وسدّوا المسالك اليها بأكبر الأحجار حجما، حتى تصعب دحرجتها، كما أن داخل هذه المقابر كان به الكثير من المسالك المضلّلة.

من أجل هذا أيضا وضعوا داخل المقابر، في موضع يكون أقرب ما يمكن إلى يد المتوفّى، الأواني المحتوية على أشكال وألوان مختلفة من الأطعمة والأشربة، حتى يتغذّى عليها حين يعود مبرّأً من العالم الآخر. لكن أهم ما يوضع داخل تابوت المتوفّى هو كتيب (دليل السائح إلى العالم الآخر) الذي عرف لاحقا باسم (كتاب الموتى)، وهو الكتاب الذي

يمكن للمتوفّى استخدامه، ليعرف طريقه عبر دروب، ذلك العالم الذي يظل مجهولا لكل البشر، حتى لحظة الوفاة.

مئات السنوات قبل ظهور كتاب الموتى، كانت هناك نصوص معروفة باسم نصوص التوابيت، وهي النصوص التي كانت تكتب، على أسطح التوابيت الخشبية أو الحجرية، التي توضع بداخلها مومياءات أشراف ونبلاء الدولة الوسطى. هذه النصوص تتضمّن وصفا تفصيليا دقيقا، لكل مراحل الرحلة التي يقوم بها المتوفّى منذ لحظة موته، حتى اللحظة التي يبرّأ فيها من الخطايا، ويسمح له فيها بالعودة إلى الحياة، فيعيد إرتداء نفس الجسد، ويبعث إلى حياة جديدة. في اللحظة التي يلج فيها المتوفّى العالم الآخر، تلقّنه النصوص الكلمات السحرية والتعاويذ التي ينبغي عليه أن ينطق بها، فتنفتح أمامه بوّابات ذلك العالم الآخر [نصوص التوابيت نسخة من تدقيق فولكنر Faulkner/ الجزء الأول/ التعاويذ أرقام ١٠٨ و١٠٩ صفحة ١٠٥].

ثم يُعْطَى المتوفّى مركبة، ليبحر بها في مياه النيل تحت الأرضي، وهو صورة طبق الأصل من النيل، الذي عرفه هذا المصري أثناء حياته في أرض مصر. الغريب في هذه النصوص هو أن الجنّة المصرية، هي صورة طبق الأصل من وادي النيل المصري، بحقوله ونباتاته وأشجاره وحدائقه وطيوره. وفقا لبعض نسخ نصوص التوابيت يصل المتوفّى إلى نهاية رحلة الاثنتي عشرة ساعة الليلية، ليقف أمام قضاة الحساب الأخير، في نهاية الساعة الثانية عشرة.

لكن وفقا لنسخ أخرى من نفس النصوص، يحدث في مرحلة ما من هذه الرحلة النيلية، أن ينزل سلّم من السماء، ليسمح للمتوفّى بأن يرتقيه للصعود إلى السماء. وهو يشبه كثيرا حلم النبي يعقوب، الوارد في أسفار التوراة، الذي يذكر فيه أنه رأى سلّما يتدلّى من السماء، يرتقي عليه المؤمنون للصعود إلى السماء. تذكر المعتقدات المصرية أنه عند الموت ينفصل قرين المتوفّى (أو روحه) عن جسده المادي، وقد أطلق المصريون القدماء اسم (كا) على الروح أو القرين، أو النفس الإلهي الذي يهب الحياة إلى الجسد، واسم (با) على الجسد المادي.

عند الموت تنفصل الكا الروحية عن البا المادية، بعد ذلك تسافر الكا وحدها إلى السماء، أو إلى العالم الأخروي التحت أرضي، ولا يحدث البعث إلا إذا تمكنت البا التي تخصّ شخصا، من الاتحاد من جديد مع الكا التي تخصّ نفس الشخص. قد يحدث أيضا أن نوت

الهة السماء، التي تشكل بجسدها الممتد المستطيل نصف الدائري، الذي يمثّل قبّة السماء، تمدّ ذراعها لتمسك بيد المتوفى، وهو يصعد السلّم إلى السماء، لتحول بينه وبين السقوط.

عند وصول المتوفّى إلى السماء يدقّ على أبوابها. هذه الصورة موجودة في كل الكتب المصرية القديمة التي تصف الرحلة إلى السماء، منذ عصر بداية الأسرات، حتى العصر اليوناني الروماني، وذلك لأن لمملكة السماء أبواب، تغلق ليلا وتفتح نهارا، على غرار أبواب الممالك المدن city states في العصور القديمة، وهو ما يؤكد على فكرة تأثير الخيال البشري على المعتقدات الدينية في كل الحضارات [قصّة سات ني وخع مويس/ على بردية DCIV/ بالمتحف البريطاني، كذلك في كتاب ماسبيرو/ المعنون القصص الشعبية في مصر القديمة/ طبعة باريس سنة ١٩١٢].

بعد أن ينطق المتوفّى ببعض التعاويذ السحرية وكلمات السر، التي كان قد لقّن إيّاها منذ طفولته الغضّة في مدارس مصر القديمة، تنفتح له الأبواب. هنا تبدأ المخاطر الحقيقة والاختبارات الفعلية لمدى قوّة إيمانه، إذ يطلب منه أن يقود مركبة صغيرة فوق مياه بحيرة، تنبعث من جنباتها ومن جزرها شعلات نارية، ستحرقه حتما لو غفل عنها. هنا يسقط الأشرار في النار، وينجو الأخيار. هذا هو الاختبار الأول الذي يفرضه الاله، ليفرز محبّيه من كارهييه. اختبار العبور فوق السراط [كتاب الطريقين طريق السلامة وطريق الندامة/ للمؤلف والمحقّق بارجيه Barguet/ ١٩٨٦]. لا يستطيع أحد من البشر، أن ينجو من هذا الاختبار، لو لم يكن عادلا خيّرا في حياته الأرضية.

غالبا ما تصل المركبة إلى الشط الآخر، وتتمكّن من عبور البحيرة، ولكن بعد أن تكون قد تحطّمت أو تلفت بسبب النيران. منذ أن يطأ قدم المتوفى أرض الوصول إلى الشاطىء الآخر، يواجه طرقا ملتوية ملئية بالمخاطر. يقابل على جانبي الطريق أبوابا تحرسها زواحف [كتاب البوّابات التي يقف أمامها المتوفّى في العالم الآخر/ كتاب الطرق التي يسلكها المتوفّى في العالم الآخر/ للمؤلف بارجيه/ باريس سنة ١٩٨٦]. ثم هناك أحيانا يقابل حرّاسا للبوابات، لا يدعونه يمرّ من أمامهم إلا لو كان يعرف كلمة سر الطريق. قد يعترضه قطّاع طريق يحملون السكاكين. قد يُضْطَر مسافر ليل الآخرة إلى الالتفاف إلى اليمين مرة، والى اليسار مرة أخرى، حتى يتجنّب اندلاع النيران المفاجئة. فيتوجّه إلى النيران بالحديث (أيتها النيران، اتركي لي مكانا، أعبر منه).

بعد عبور الألف خطر المعترضة طريقه، والنجاح في اجتياز الألف امتحان الموضوعة له، خلال المناطق الليليّة المؤدّية إلى سبع بوّابات، التي تقود إلى السبع سماوات [برديّة DCIV بالمتحف البريطاني]، يتقدّم المتوفّى نحو السلّم الضخم الذي يقود إلى صالة قضاة الحساب الأخير [كتاب الموتى نسخة كولباكتشي الفصل رقم ٩٨ الصفحة رقم ١٨١]. هذه القاعة المتخصّصة في العدالة السماوية، تمثّل نفس المنظر الذي كان المصري القديم يقابله، عند الذهاب إلى دور القضاء الأرضية، حيث يجد خلف الأسوار، ساحة واسعة يقف فيها المتظلّمون كل في انتظار دوره، تؤدّي إلى سلّم ضخم يرتقيه طالب الانصاف، يصل به إلى القاعة التي يجلس فيها القضاة، الذين يعرض أمامهم التماسه أو مطلبه، أو يدافع فيها عن نفسه ضدّ اتهام باطل، بنفسه أو مستعينا بأحد المحامين المحترفين.

هنا يصل المتوفّى إلى الحساب الأخير أمام عرش أوزير، حيث يتجمّع كل معارضي المتوفّى وكل أعدائه الأرضيين. يربط المتوفّى حزامه حول وسطه، ويضع قدميه من جديد في الصندل منتعلا إيّاه، بعد أن كان قد خلعه في بداية رحلة الصعاب. ثم يضع فوق رأسه ريشة، رمزا للعدالة الإلهية المتمثّلة في ماعت، دليلا على قوله الصدق ولا شيء غير الصدق. يأتي جحوتي الكاتب المقدّس للآلهة، الذي يحتفظ في متناول يديه، بكل السجلّات والوثائق اللازمة، التي تخصّ كل القضايا والاتهامات المتبادلة، بين المتوفّى وبين كل أعدائه ومعارضيه. يتجّه المتوفّى قلقا ومتوتّرا، نحو الموضع الذي يوجد فيه ميزان العدالة الإلهية، طامحا إلى حكم بالبراءة من خطاياه وذنوبه [نصوص التوابيت نسخة فولكنر]. ينظر بعين قلقة أثناء وضع حسناته في كفّة الميزان اليمنى، وسيّئاته في كفّة الميزان اليسرى.

بعد ذلك يذهب الشخص، الذي أعلن الميزان أن وزن حسناته يفوق وزن سيّئاته، إلى بحيرة الماء البارد الواقعة خلف قاعة القضاة، ليتطهّر جسمه في مياهها من كل أدرانه. يمرّ بعد ذلك بالمبخرة التي يتضمّخ فيها بعطر طيّب. في نسخة أخرى، يذهب المبرّأ إلى حوض الاستحمام المملوء بنباتات اللوتس، فيحصل في نفس الوقت على طهارة الجسد، والرائحة الطيبة للنبات المقدّس. ثم يجتمع الحمّامان معا في النصوص المتأخّرة، ويطلق على الحمّام الثاني في زهرة اللوتس اسم الولادة الثانية. أمّا المدان فتربط يديه بالحبال خلف ظهره، وينقل إلى غرفة السجن، حيث يرمى ووجهه إلى الأرض، ويقف الحرّاس أمام باب غرفة سجنه. ثم بعد أن تقطع رأسه، وينتزع قلبه من جسده، يلقى المذنب المدان في بحيرة النار إلى ما لا نهاية.

(٤)

يوم الدينونة

أبطأت الديانة اليهودية في اعتناق المعتقدات المصرية القديمة المتعلقة بالحساب والعقاب في الآخرة، وكان علينا أن ننتظر حتى القرن الثاني قبل ميلاد المسيح، حتى نتمكّن من رؤية ظهور فكرة البعث في الديانة اليهوديّة. لكن التشابه كان واضحا منذ كتابة سفر أشعياء، فيما يتعلّق بوجود بوّابات على مداخل المنطقة التي يُعزَل فيها الموتى التي تسمّى شيول Sheol، وكان واضحا منذ عصر النبيّين داوود ودانيال فيما يتعلّق بوجود الميزان الذي توضع على احدى كفّتيه حسنات المتوفّى، وتوضع على الأخرى سيّئاته.

ففي مزامير النبي داوود، المزمور الثاني والستّين العدد ٩ يقول النصّ (ليس البشر جميعا سوى باطل ووهم، إن وضعتهم في كفّة ميزان لا يزنون شيئا)، وفي سفر النبي دانيال الاصحاح ٥ العدد ٢٧، يقول النصّ (وُزِنْتَ بالموازين فوُجِدْتَ ناقصا). في سفر اينوخ، وهو من الأسفار التي تسمّى أبوكريفا أي غير المعترف بها من المجامع المقدّسة، يأتي ذكر يوم الحساب الأخير. هذه هي فقط بعض الحالات الاستثنائية النادرة في أسفار التوراة.

لكن هذه المعتقدات المصرية القديمة تجد لها مجالا أوسع بكثير في الديانة المسيحية، عمّا كان عليه الحال في الديانة اليهوديّة. أول شيء أن الإنجيل يعترف بأبواب الجحيم، ففي إنجيل متى الاصحاح ١٦ العدد ١٨ يقول المسيح (على هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها). ثاني شيء أن الإنجيل يعترف بقيامة الأموات. يقول النصّ في سفر أعمال الرسل الاصحاح ١٧ العددين ٣١ (لأن الله حدّد يوما يدين فيه العالم بالعدل، على يد رجل اختاره لذلك، وقد قدّم للجميع برهانا، إذ أقامه من بين الأموات).

في الرسالة الأولى إلى أهل مدينة كورنثوس، الاصحاح ١٥ الأعداد من ١٢ إلى ٢٣، يقول النصّ (كيف يقول بعضكم إنّه لا قيامة للأموات). ثم إن الإنجيل يقرّ كذلك بيوم الحساب الأخير، ويسمّيه يوم الدينونة (يوما يدين فيه العالم) كما يقول النصّ أعلاه، لكن

هناك كذلك الكثير من النصوص الأخرى. مثلا في إنجيل متى الاصحاح العاشر العدد ١٥، يقول النصّ (إن حالة مدينتي سدوم وعمورة، سوف تكون في يوم الدينونة، أخف وطأة من حالة تلك المدينة)، وهو يشير هنا إلى المدينة التي ترفض استقبال تلاميذ المسيح.

يوم الدينونة هو اليوم الذي سيقدّم فيه كل انسان الحساب الختامي لكل أفعال حياته. ففي إنجيل متى الاصحاح ١٢ العدد ٣٦ يقول النصّ (إن كل كلمة باطلة يتكلّم بها الناس، سوف يؤدّون عنها الحساب في يوم الدينونة، فإنّك بكلامك تبرّر، وبكلامك تدان). وسوف يكون هذا الحساب الأخير يوم الدينونة، أمام محكمة القضاء الإلهي التي يترأّسها الله نفسه، ففي الرسالة إلى أهل روما، الاصحاح ١٤ العدد ١٠ يقول النصّ (إننا جميعا سوف نقف أمام عرش الله لنحاسب).

في تلك الجلسة سينطق الله بحكمه النهائي على كلٍ منّا، ففي الرسالة إلى أهل روما، الاصحاح الثاني العدد ٣، يقول النصّ (لن يفلت انسان منّ دينونة الله، وهي بحسب الحقّ). كل انسان سوف يحاسب وفقا لأعماله الدنيوية، ففي الرسالة إلى أهل إفسس الاصحاح السادس العدد ٧ يقول النصّ (ان الله لا يُسْتَهزأ به، فكل ما يزرعه الإنسان، فإيّاه يحصد أيضا. فإن من يزرع للجسد، فمن الجسد يحصد فسادا، وإن من يزرع للروح، فمن الروح يحصد حياة أبدية).

الفرق الرئيسي بين موضوعي قيامة الأموات والحساب الأخير في مصر القديمة، وبين نفس الموضوعين في الديانة المسيحية، هو أنه في مصر القديمة كانت القيامة من الموت تحدث لكل متوفّى بشكل فردي، بعد وفاته بفترة وجيزة، قد تكون في اليوم التالي على موته، في صباح اليوم التالي على دفنه، يستيقظ من الموت مع شروق شمس اليوم التالي على الدفن، وكان الحساب الأخير يحدث لكل متوفّى بشكل فردي، فبعد أن يكون قد قام من الأموات، يذهب وحده إلى القاعة التي يتمّ فيها وزن قلبه مقابل ريشة الهة العدالة، أو في نسخة أخرى يتمّ فيها وزن حسنات قلبه في كفّة، وسيّئات قلبه في كفّة أخرى.

في حين أنّه في المسيحية، ينتظر كل موتى آلاف السنين متجمّعين معا في مكان ما، أن يقوموا كلهم معا في نفس اللحظة في يوم القيامة، ليذهبوا ويقفوا كلهم معا في يوم الحساب الأخير أمام الله، ليحاسبوا واحدا واحدا أمام العدالة الإلهية. يبدو التصوّر المصري القديم للعديد من الباحثين في شؤون الأديان، أكثر جاذبية وأقوى تأثيرا على البشر، عندما يعرف

الناس أن حسابهم الأخير هو فور وفاتهم. أمّا في المسيحية التي تتوقّع مرور وقت طويل غير محدّد المدّة، قد يقدّر بآلاف السنين، بين يوم الوفاة ويوم الحساب، الذي يقع زمنيا في نهاية العالم، قد يؤدّي هذا إلى فتور المشاعر الدينية المتعلّقة بالعالم الآخر، أو ضعف تأثير التعاليم الدينية التي لن يحاسب المرء على عدم اتّباعها أو عدم احترامه لها، إلا بعد آلاف السنين.

إن ارتباط الحساب الأخير في المسيحية بيوم القيامة، هو بسبب ارتباط يوم القيامة في المسيحية بعودة يسوع المسيح إلى الأرض، وبالتالي لن يحاسب أي بشري حسابا أخيرا، على ما اقترفته يداه خلال حياته الأرضية، إلا بعد الزمن الذي سيعود فيه يسوع المسيح إلى الأرض، ليحكم فترة من الزمن قد تصل وفقا للبعض إلى ألف عام أرضي، ثم ليقيم الأموات ويحاسبهم. في إنجيل متى الاصحاح ٢٤ الأعداد من ٦ إلى ١٤، يسأل التلاميذ يسوع المسيح عن ما هي علامات رجوعه ثم انتهاء الزمان؟

فيقول إن كثيرين سيأتون باسمه فيضللون الآخرين، ويظهر كثير من الأنبياء الدجّالين. (وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب، وسوف تنقلب أمّة على أمّة، ومملكة على مملكة، وتحدث مجاعات وزلازل في عدّة أماكن، ..... ويعمّ الاثم وتبرد المحبّة لدى الكثيرين)، ثم بعد ذلك سوف ينادى ببشارة الملكوت في العالم كله، وبعد ذلك تأتي النهاية. في الأعداد بداية من ٢٩ في نفس الاصحاح (تظلم الشمس، ويحجب القمر ضوءه، وتتساقط النجوم من السماء، وتتزعزع قوّات السماوات، ..... ويرون ابن الإنسان آتيا على سحب السماء، بقدرة ومجد عظيم).

كما أن آخر أسفار الانجيل، وهو سفر رؤيا القدّيس يوحنا اللاهوتي، المعروف كذلك باسم سفر نهاية العالم، في الاصحاح الرابع منه العدد الأول يقول (رأيت بابا مفتوحا في السماء، وإذا صوت يقول: اصعد إلى هنا فأريك، ما لا بدّ أن يحدث بعد هذا). وفي الاصحاح ٢١ العدد ١٢ في وصف المدينة السماوية المقدّسة (لها سور ضخم عال، واثنا عشر بابا، يحرسها اثنا عشر ملاكا). ثم في العدد ٢٥ (ولا تقفل أبوابها أبدا طول النهار، لأن الليل لا يأتي عليها). وفي الاصحاح ٢٢ العدد ١٤ يقول (..... هم من لهم الحق في دخول المدينة من الأبواب).

تتمّ اجراءات الحساب الأخير أمام الله الجالس على عرشه الأبيض، وفقا للوصف الذي نجده في سفر نهاية العالم للقدّيس يوحنا، في الاصحاح ٢٠ العددين ١١ و١٢ الذي يقول فيه

(رأيت عرشا عظيما أبيض، هربت السماء والأرض من أمام الجالس عليه، ورأيت الأموات كبارا وصغارا، واقفين قدّام العرش). ثمّ (فُتِحَ كتابٌ هو سجل الحياة، ودين الأموات بحسب ما هو مدوّن، كل واحد حسب أعماله). في مقبرة با تشد من عصر الرعامسة، يجلس أوزيريس على عرش أبيض مرتديا ملابس بيضاء، ممسكا في يديه بكتاب مفتوح، تقول النصوص المفسّرة إنه سجلّ أفعال البشر[نصوص التوابيت/ نسخة فولكنر/ الجزء الثاني/ صفحة ٢٦٠]. في بعض الرسومات الجدارية نرى أن الذي يقوم بتسجيل أفعال الخير والشر للمتوفّى هو جحوتي إله الكتابة.

قد تذكر بعض نصوص التوابيت من الدولة المصرية الوسطى، وجود شخصين إلى جوار المتوفّى، عند وزن حسنات وسيّئات قلبه، على كفّتي ميزان العدالة، هما الأخوان غير الشقيقين حورس وأنوبيس، هما ابنا أوزيريس، لكن حورس هو ابنه من إيزيسة، وأنوبيس هو ابنه من نفتيسة، وغالبا ما يقوم حورس بوزن الحسنات، ويقوم أنوبيس بوزن السيّئات. غالبا ما نراهما واقفين متجاورين خلف كتفيّ المتوفّى، إلى يمينه والى يساره، في مشاهد لا نهاية لها، في كل مقابر الملوك والنبلاء والأشراف، في كل عصور التاريخ المصري القديم. يمكن لبعض النصوص المفسّرة أن تعتبرهما رفيقي طريق للمتوفّى، ويمكن لبعض النصوص الأخرى أن تعتبرهما شاهدين عليه.

وقد استلهمت آلاف الأعمال الفنية في العصور المسيحية المختلفة، هذه الصورة القادمة من مصر القديمة، صورة وزن الأفعال على ميزان العدالة، حتى أن رمز العدالة في كل قاعات القضاء في العالم أجمع هو كفّتا ميزان. يمكن الاشارة هنا إلى صورة جدارية بالألوان المائية على جصّ، من المقابر المسيحية المعروفة باسم مدافن البجوات، الموجودة حاليا على بعد كيلومترات قليلة من مدينة الخارجة، عاصمة الواحات الخارجة بالوادي الجديد، والصورة من القرن الرابع الميلادي، ويظهر فيها رجل العدالة ممسكا بذراعه كفتيّ ميزان [مادة الميزان/ في قاموس الآثار المسيحية/ للمؤلّف لوكليرك/ ١٩٢٤].

ثم يضيف سفر الرؤيا ما يفيد بأن مصير الأخيار هو الجنّة، فيقول عن الجنّة في بداية الاصحاح ٢٢ (.... حيث نهر ماء الحياة صافيا كالبلّور، ينبع من عرش الله، وعلى ضفّتيه تنمو أشجار الحياة، التي تثمر اثنتي عشرة مرة في العام الواحد، كل شهر مرة، وأوراقها دواء يشفي). أما الكلام عن مصير الأشرار فهو النار، ففي اصحاح ٢٠ العدد ١٤ يقول (كل من

لم يوجد اسمه مكتوبا في سجل الحياة، طُرِحَ في بحيرة النار). ثم يقول في الاصحاح ٢١ العدد ٨ (أما غير المؤمنين وعبدة الأصنام فمصيرهم إلى البحيرة المتّقدة بالنار والكبريت). بحيرة النار هي نفس العبارة التي تظهر في نصوص الأهرامات والتوابيت وكتاب الموتى في مصر القديمة.

(٥)

الصورة الماديّة للجنّة

في نصوص التوابيت من الدولة الوسطى، وهي عصر الأسرات ١١ و١٢ و١٣، بين القرنين ٢٠ و١٨ ق م، وهي النصوص التي جاءت بعد مرور قرنين من الزمان، على الثورة الاجتماعية في نهاية الأسرة السادسة، ظهر اتجاهان واضحان في الفكر المصري القديم، الذي يخصّ ما سيحدث للموتى في العالم الآخر. الاتّجاه الأول هو تصوير الجنّة على أنها ستكون متعة مادية، نسخة طبق الأصل من أرض مصر، بنيلها وزرعها وشمسها ناسها وحيواناتها، والدليل على ذلك كل الرسومات الجدارية التي تصوّر الجنّة، وشغلت حوائط مئات المقابر، الخاصة بالنبلاء والأشراف والفنّانين، في طيبة الغربية. أمّا الاتّجاه الآخر فهو تصوير الجنّة على أنها ستكون متعة روحيّة، يُكْتَفَى فيها بالوجود في حضرة الآلهة، وينشغل فيها المتوّفى بالعبادة، ويرضى بالحد الأدنى من الطعام والشراب، في صورة خبز وماء.

الاتجاه الأول يتحدّث عن حقول الجنّة، أو ما تسمّيه النصوص حدائق السلام، أو حدائق السعداء، الذين تتحدّث عنهم النصوص، والذين نراهم في الرسومات الجدارية، وهم يأكلون الطعام واضعين إيّاه في أفواههم، ثمّ وهم يستحمّون ويتطهّرون في مياه الأنهار العلويّة، ويفعلون كل ما يرغبون في فعله كما لو كانوا قد عادوا إلى الحياة في أرض مصر، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم، في بيوت تشبه تلك التي عاشوا فيها سابقا قبل انتقالهم. يعاد تركيب العضو الجنسي إلى الرجال الذي يجوز أنهم قد فقدوه أثناء عمليات التحنيط، التي كانت تقوم بتقطيع الجسد، ووضع الأعضاء في قوارير بها مواد حافظة، تسمح للأعضاء بالبقاء على حالتها أطول فترة ممكنة.

قد يحدث أيضا أن يفقد المتوفّى عضوه لأي سبب كان، ففي هذه الحالة ليس عليه أن

يبتئس، فإن إله الاخصاب (مين) الدائم الانتصاب، يستطيع أن يعيره عضوه، أو أن يصنع له عضوا جديدا دائم الانتصاب هو الآخر، له نفس قوّة وطول العضو الذي يميّز إله الاخصاب، حتى يتمكّن المتوفى العائد إلى الحياة، من ممارسة العشق كلما شاء، لأي فترة زمنية شاء، دون وجود أي منغّصات، نهارا وليلا، وستغمر اللذّة المرأة التي يمارس معها العشق. وسيحصل الرجل من جديد على كل النساء اللائي كنّ في حياته، فإن كان غنيا في الحياة الأرضية ولديه محظيّات، سيحصل عليهنّ من جديد في حياته السماوية. ستكون هناك نفس الحريّة للمرأة المتوفّاة المبرّأة، فستحصل هي الأخرى على نفس الفرص في الاستمتاع الجسدي، الذي كان لها أو لم يكن لها في حياتها الأرضية [نصوص التوابيت/ نسخة فولكنر].

وفي نسخة كولباكتشي Kolpaktchy من كتاب الموتى، هناك أنشودة السعداء إلى الأبد التي تقول كلماتها (في المدينة السماوية المبجّلة/ نحن نعيش في سلام تام أبديّ/ نحن نتحرّك كما نشاء بحريّة كاملة/ فنزرع الأرض ونجمع المحصول ونأكل ملء أفواهنا/ نعرف مياه البحيرات والأنهار/ نحن نمارس الحبّ كل يوم وكل لحظة/ مع زوجاتنا الأرضيّات ومع أخواتنا البنات ومحظيّاتنا/ فنلد البنين والبنات). إذن فليس هناك أي فرق بين الحياة الأرضية في مصر، والحياة السماوية في جنّات النعيم الأبدي. هذا هو كذلك الدليل الأكيد على رضاء المصريين عن حيواتهم الأرضية، لدرجة أنهم تمنّوا أن تكون حيواتهم السماوية على غرارها.

تتغيّر الأوضاع بعض الشيء في نسخ كتاب الموتى، بدءا من الدولة الحديثة، أي حوالي القرن ١٦/ ١٥ ق م، فتظهر فكرة ضرورة أن يعاقب الأشرار بالذهاب إلى النار، وأن يقتصر الذهاب إلى الجنّة على الأخيار. تظهر أهمية الحساب الأخير، وضرورة وزن القلب مقابل ريشة العدالة، فتظهر الصلوات التي تدعو القلب إلى عدم إفشاء أسرار المتوفّى، وتزداد أهمية (ماعت) الهة العدالة والحق، فتظهر الصلوات التي تتوجّه إلى (ماعت)، مثل أن يقول (أنا كنت رفيقا لماعت طوال حياتي/ لم أكذب ولم أسرق ولم أقتل طوال حياتي/ لم أنظر إلى امرأة جاري لأشتهيها طوال حياتي/ لم ألوّث ماء النيل لأني كنت أحتقر كل تلك الأفعال الرذيلة/ إلى آخره).

يظهر هنا كذلك في التاريخ الديني لمصر القديمة ما سيعرف لاحقا باسم الاعتراف الانكاري، وهو أن يقف المتوفّى أمام ٤٢ من القضاة، لينكر أمامهم ٤٢ تهمة. كما يظهر أيضا

كذلك الاعتراف التقريري الايجابي الذي يقول فيه المتوفّى (لقد أعطيت طعاما إلى الفقراء الجائعين/ لقد أعطيت شرابا إلى العطاشى الضائعين/ لقد أعطيت منزلا لكل أولئك الغرباء الذين كانوا بلا مأوى/ لقد أعطيت ثيابا ليغطي بها العراة أجسامهم/ لقد أعطيت مركبا إلى من أرادوا عبور النهر إلى الضفّة الأخرى/ إلى آخره) [نسخة بول بارجيه Barguet من كتاب الموتى].

هذه الكلمات تقريبا بنصّها تأتي في إنجيل متى الاصحاح ٢٥ من العدد ٣٤ إلى العدد ٣٦ حيث يقول يسوع (تعالوا يا من باركهم أبي، رثوا الملكوت الذي أعدّ لكم منذ إنشاء العالم، لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريبا فآويتموني، عريانا فكسوتموني، مريضا فزرتموني، سجينا فأتيتم اليّ، ..... الحقّ أقول لكم بما أنكم فعلتم ذلك بأحد أخوتي هؤلاء الصغار، فكأنكم بي فعلتم).

من بين المناظر المألوفة، المرسومة في التصاوير التوضيحية، التي تشرح ما سيحدث في العالم الآخر، عند وصول المتوفّى اليه، نجده مبحرا فوق ظهر مركب كبير، في صحبة عدد من آلهة العالم الآخر، مثل حورس وأنوبيس وماعت وحتحور، عبر المناطق الاثنتي عشرة. من الغريب ملاحظة أنه عند مرور المركب بمناطق عقبات طبيعية أو حواجز، يظهر على أحد ضفتيّ نهر نيل الآخرة، مجموعة من الرجال الأشدّاء، تصفهم النصوص بأنهم من الأرواح الخيّرة، أو من الجنّ الصالحين، يربطون المركب إلى حبال، ثم يقومون وهم في مكانهم على الضفّة بجرّها ضد العقبة الطبيعية الموجودة في الماء. هذا هو ما أثبت الرحّالة إلى مصر في كتبهم، أنهم كانوا يرونه على ضفاف النيل والترع والقنوات المائية في مصر، إلى وقت قريب من القرن العشرين. تشير بعض نصوص كتاب الموتى إلى صلابة حبل ماعت الهة الخير والعدالة، والى ضرورة اجتماع الرجال المخلصين حول الحبل، وعدم تفرّقهم حتى لا تتشتت جهودهم.

تذكر الأناجيل جنّة الله بالاسم فقط في مواضع عديدة، لكن دون أي مزيد من التفاصيل. في متى اصحاح ٢٣ العدد ٤٥ يقول يسوع المسيح على الصليب للصّ المصلوب إلى جواره الذي ذكر له أنه قد آمن به (الحق أقول لك، اليوم ستكون معي في الفردوس). في الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس في الاصحاح ١٢ الأعداد من ٢ إلى ٤ يقول النصّ (انسان خُطِفَ إلى السماء الثالثة، أكان ذلك بجسده أو بغير جسده؟ لا أعلم. الله يعلم. هذا الإنسان قد

خُطِفَ إلى الفردوس، حيث سمع أمورا مدهشة تفوق الوصف، ولا يحقّ لانسان أن ينطق بها). وفي سفر نهاية العالم الاصحاح الثاني العدد ٧ يقول (من له أذنان للسمع فليسمع كل ما يقوله الروح للكنائس، إذ إن كل من ينتصر سأطعمه من ثمار أشجار الحياة في فردوس الله).

كل ما قيل عن الجنّة في الأناجيل هي أنها مكان للفرح والسعادة، عندما كان يسوع يضرب للتلاميذ والجموع الأمثال، كمثل جاء في إنجيل متى الاصحاح ٢٥ الأعداد من ١٤ إلى ٢٩، وهو مَثَل الوَزَنات التي وزّعها السيّد على عبيده، وهي غالبا مقادير من الفضّة، ثم بعد حين عاد ليحاسبهم عليها، فمن كان منهم قد زادت وزناته قيل له (ادخل إلى فرح سيّدك)، والمقصود ادخل إلى الجنّة فأنت من الصالحين، الذين أثمرت فيهم هبات الله وعطاياه. أما الذين تكاسلوا ولم يعملوا ولم تثمر معهم هبات الله اليهم، بل تركوها دون أن يستفيدوا منها أو يفيدوا الآخرين، فقد قيل لهم (أنتم عبيد لا نفع منكم) ثم طلب من خدمه أن يطرحوهم في الظلمة الخارجية حيث البكاء وصرير الأسنان. وهو مثل ضربه يسوع عن العمل الصالح والإثابة عليه في الآخرة.

الذي حدث لاحقا هو أن صورة الجنّة الماديّة، بأشجارها وأنهارها قد ظهرت في كتابات بعض فلاسفة اليونان، ثم ظهرت كذلك في فنون التصوير الجداري في أوروبا، عدّة قرون بعد المسيح. القدّيس إفريم Ephrem، في القرن الرابع الميلادي، وهو أحد آباء الكنيسة الكاثوليكية، يصف الجنّة بأنها (جنّة الملذّات الحسّيّة). ظهر كذلك في اللغات الأوروبية تعبير حقول الاليزيه والمقصود به جنات الصالحين.

يظهر في الفنون التصويريّة القبطيّة، منذ القرن الخامس الميلادي، مناظر تصوّر الجنّة، تظهر فيها الأشجار والحيوانات، مثل فرس النهر ضخم الجثّة في بحيرة من الماء، وفيها مناظر صيد الغزلان والسباع، بنفس الطريقة التي تمّ بها، تصوير هذه المناظر في مصر القديمة، قبل عشرين قرنا [كتاب قاموس الآثار القبطية، الفصل الخاص بالرسومات الجدارية في كنائس باويط * من القرن الخامس الميلادي/ للمؤلف جان كليدا Cledat/ باريس/ ١٩٢٤].

يظهر كذلك منظر للجنّة، حيث يجلس الأخيار الناجون، تحت شجرة جمّيز ضخمة (وهي رمز لحتحور سيّدة شجرة الجمّيز)، يحتمي مئات منهم في ظلّها من لهيب شمس الظهيرة، مثلما كان الحال في حيواتهم الأرضية في بلدهم مصر، ثمّ إنهم يتناولون سويّا وجبة من الطعام تتكوّن في الأساس من أقراص مستديرة من الخبز.

(٦)

الصورة الروحانية للجنّة

لا تختلف كل صور العالم الآخر فيما يتعلّق بموضوعات البعث، والحساب الأخير، والثواب والعقاب. إلا أن هناك اختلافا واحدا قد يظهر في بعض النسخ، فيما يتعلّق بموضوع صورة النعيم، الذي سيتمتّع به الأخيار في الجنّة. في هذه الحالة يحدث أن تستردّ الروح عافيتها، وتغادر الجسد الفاني بصفة قاطعة، وتحصل على الحياة الأبدية، التي يتميّز بها الآلهة. في هذه الحالة الأخيرة، ليست المتع التي يحصل عليها الأخيار في الجنّة من النوع الحسّي، مثل تناول الأطعمة الشهيّة كالفاكهة المتنوّعة، أو احتساء المشروبات المُسْكِرة، أو ممارسة الجنس، بل ستكون كل متعة الأخيار في الجنّة، هي أن يكونوا في حضرة العليّ القدير.

في هذه الحالة يكون المبعوثون إلى الحياة كالملائكة، يرفرفون بأجنحتهم في السماء، يحومون ويحطّون على عرش العليّ، يسبّحونه ويمجّدونه بترانيم لا نهاية لجمالها، يأكلون من خبز السماء، ويشربون من ماء السماء. إن كل ما يبحث عنه المتوفّى وحيدا في عزلة قبره، هو أن يكون في صحبة أوزير. هذه الصحبة في اللغة المصرية القديمة هي كلمة wanas، وهي نفس الكلمة المستعملة في اللغة العربية (وَنَس). إن العثور على هذه الصحبة الالهية هو ما تقوم الكتب المصرية القديمة، في واحدة من النسخ الأخيرة التي تصف ما هو موجود في العالم الآخر، بتسميته (الخروج إلى ضوء النهار). من العجيب كذلك أن نجد في التراث الديني المصري القديم، كتابا يحمل عنوان (الطريقان)، ويُسْتَعمل في شرح أي الطريقين سيختار المتوفّى، طريق السلامة أم طريق الندامة.

تظهر تنويعات على هذه الألحان في القرون القليلة قبل الميلاد، وفي القرون القليلة بعد الميلاد. ففي مقبرة بت أوزيريس، التي تعود إلى العصر اليوناني، بعد فتح الاسكندر لمصر،

وتقع في جبّانة تونة الجبل على أطراف الصحراء، ليس بعيدا عن الأشمونين القديمة، ولا عن مدينة ملّوي الحديثة. تقول النصوص المحفورة بالنحت الغائر على الجدران (في آمن تت Amentet – أي الجنّة – يتساوى الأغنياء والفقراء فيما يتعلّق بما يأكلون وما يشربون، ليس هناك تمييز بينهما، إذ إنهم كلهم يأكلون الخبز ويشربون الماء) [مقبرة بت أوزيريس/ نشرها لوفابر Lefebvre/ في المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة/ سنة ١٩٢٤].

يبدو في الأناجيل بوضوح، أن النسخة الروحانية من صورة الجنّة هي السائدة. ففي إنجيل متى الاصحاح ٢٢ الأعداد من ٢٣ إلى ٣٣، يقول النصّ (تقدّم إلى يسوع بعض الصدّوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة، وسألوه: يا معلّم، قال موسى: إن مات رجل دون أن يخلّف أولادا، فعلى أخيه أن يتزوّج بأرملته. كان عندنا سبعة إخوة، تزوّج أولهم ثم مات وليس له نسل، وكذلك الثاني ثم الثالث... حتى السابع، ففي القيامة لمن من السبعة تكون المرأة، لأنها كانت زوجة لكل منهم؟ فردّ عليهم يسوع: أنتم في ضلال لأنكم لا تفهمون أن الناس في القيامة لا يتزوّجون ولا يُزَوَّجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء).

وفي رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورينثوس، في الاصحاح ١٥ الأعداد من ٤٢ إلى ٤٤ يقول (هكذا الحال في قيامة الأموات، يُزرع الجسد منحلاّ، ويُقام غير منحل، يُزرع مهانا ويُقام مجيدا، يُزرع ضعيفا ويُقام قويّا، يُزرع جسما ماديا ويُقام جسما روحيّا، فبما أن هناك جسما ماديا فهناك كذلك جسمٌ روحيّ). ثم في الأعداد من ٤٧ إلى ٥٠ يقول (الإنسان الأول من الأرض وقد صُنِعَ من التراب، أما الإنسان الثاني فهو من السماء. فعلى مثال المصنوع من التراب سيكون المصنوعون من التراب، وعلى مثال السماوي سيكون السماويّون. ومثلما حملنا صورة المصنوع من التراب، سنحمل أيضا صورة السماوي. ثم إني أؤكد لكم أيها الإخوة أن الأجسام ذات اللحم والدم، لا يمكنها أن ترث ملكوت الله، كما لا يمكن للمنحلّ أن يرث غير المنحلّ).

الفصل الثاني عشر
يسوع المسيح

(١)
من هو؟

ان اسم يسوع (عيسى/ ايسوس) منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، كان من بين أسماء أو ألقاب أوزير (أو أوزيريس حسب اللفظ اليوناني الشائع). الإله الذي يعلن للبشرية جمعاء أنه على استعداد للتضحية بنفسه من أجل سلامة وخلاص الجنس البشري من عبودية الخطيئة والشيطان. إذن كانت الكلمة في البداية أقرب إلى كونها وصفا للشخصية، لكنها سرعان ما تحوّلت لاحقا إلى اسم يمكن بسهولة إطلاقه على المواليد، كما تثبت نصوص الحضارة النباتية المكتشفة حديثا في سيناء، والتي يبلغ عمرها حوالي ألفي عام، أي منذ زمن مولد المسيح.

عند مولد المسيح كانت تلك المنطقة الجغرافية المعروفة لاحقا ولمدّة قرون طويلة باسم فلسطين، في الشمال من أريحا إلى منطقة السامرة والجليل، ثم في الجنوب من مدينة الخليل (المعروفة لدى اليهود باسم هبرون Hebron) إلى ميناء ايلات على البحر الأحمر، كانت تلك المنطقة تعجّ بخليط كبير من شعوب عديدة، من بينهم كنا نجد المصريين وعرب الجزيرة

العربية والفينقيين (اللبنانيين) والسريان (السوريين) والبابليين (العراقيين) كنا نجد في هذا الخليط عددا كبيرا من المصريين، الذين كانوا قد هربوا من مصر خلال القرون السابقة على مولد المسيح، بسبب الغزوات الأجنبية المتعدّدة (فارسية وآشورية وبطلمية ورومانية) التي عانت منها الدولة المصرية منذ سقوط آخر الأسرات الفرعونية.

ثم إن مصر منذ سقوط الدولة البطلمية بموت كليوباترا آخر ملكاتها، كانت قد أصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية، وكذلك فلسطين هي الأخرى كانت جزءا من نفس الإمبراطورية، وبالتالي كان من السهل التحرّك بقدر من الحرّية بين أجزاء هذه الامبراطورية. في وسط هذا الخليط من الجنسيّات المختلفة كنا نجد جزرا منعزلة من الاغريق (اليونانيين) الذين كانوا مستقرّين نسبيا في المدن الهيلينستية (التي كان قد أنشأها خلفاء الاسكندر الأكبر). أما اليهود فلم يكونوا يخرجون من الإقليم الذي كان يسمّى إقليم اليهودية، وهو حاليا مدينة أورشليم وضواحيها. لكن في وسط مدينة أورشليم لم تكن هناك جنسية تتفوّق في العدد على ما عداها من جنسيات أخرى.

في الفترة الزمنية بين موسى والمسيح، كانت الديانات اليهودية (فهي لم تكن ديانة واحدة) موزّعة في الأساس بين عبادة آلهة متعدّدة، وبين عبادة إله واحد كانوا يسمّونه يهوة Yahve. كما أن معبد مدينة أورشليم، مثله مثل كل المعابد الكبيرة في الديانات الشرقية الأخرى، كان يستخدم في عبادات ذات طبائع متعدّدة، مثل عبادة القياصرة الرومانيين كآلهة، وبشكل خاص عبادة أوغسطس قيصر، التي كانت منتشرة حتى بعد زمن المسيح، وعبادة إله الكنعانيين المسمّى العِلْيون * El Elyon، وعبادة يهوة إله الشعب اليهودي. ومن هذا المنطلق يمكن التأكيد على تلك الحقيقة القائلة، بأن المتردّدين على المعبد الكائن في وسط أورشليم، معبد الملك سليمان، لم يكونوا كلهم من معتنقي الديانات اليهودية.

كان يسوع ينحدر من العنصر العرقي ethnic الغالب على منطقة فلسطين في الوقت الذي وُلِدَ فيه، يسوع ينحدر من تلك الكتلة البشرية المكوّنة من ذلك المزيج الذي يخلط بين شعوب عديدة، تلك الكتلة التي سكنت منطقة الجليل *. ان اسمه الحقيقي منطوقا في شكله الأصلي يثبت ما نقوله. اسمه هو عيسى أو إيسا وهو اسم مصري قديم، وهو اسم فاعل من فعل الإعلان على الملأ وبصوت مرتفع عن أخبار جديدة جيّدة، الاسم معناه الذي يعلن announcer / annonciateur.

هذا الاسم انتقل من المصرية القديمة إلى اللغتين الكنعانية والعربية. وقد انتقلت الينا أخبار شفهية حفظها لنا التقليد الشفهي لشعوب المنطقة أن يسوع كان سامريا من الجليل، وهو ما يعني أنه لم يكن أبدا من أصول عرقية يهودية. إن شجرة العائلة genealogy الموضوعة ليسوع المسيح هي موضوعة وليست حقيقية، هي مؤلّفة كحكاية خيالية لا تقوم على أسس علمية، وهي في مواقع عدّة تبدو متناقضة، إذ إنها أتت من مصادر مختلفة بعضها يهودي وبعضها مسيحي. شجرة الأنساب تلك أرادت أن تجعل من يسوع المسيح حفيدا لكل من النبيّين داود وابرهيم. رغم أن داود نفسه لم يكن من أصول يهودية.

لم تكن أسرة يسوع من أصول يهودية، بل كانت (ماريا) أم يسوع من أصول مصرية، وكانت تقيم في منطقة الجليل حيث تجمّعت في فلسطين العائلات التي كانت تحمل أسماء مصرية. حتى في المصادر المسيحية حملت أم يسوع اسم (ماريا)، وهو اسم حملته النساء في مصر القديمة بنفس صيغته تلك، ويعني (المحبوبة). ظلّ زوج ماريا مجهولا تماما خلال القرن الأول للميلاد. أمّا الأسماء الأخرى في عائلة يسوع التي حملها أخوته غير الأشقاء (من الأب؟) فهي أسماء ذات أصول كنعانية، مثل يوسف ويعقوب وحِنّة. إن كل النصوص التاريخية يجب أن تدرس في سياقها التاريخي، وبالتالي هذا هو ما ينبغي أن يحدث في حالة النصوص المتعلّقة بطفولة يسوع المسيح، مع محاولة إدراك الهدف الذي كان كاتب النصّ التاريخي يسعى إلى تحقيقه.

في حالة يسوع المسيح كانت نصوص طفولته كلها من النوع الذي يطلق عليه لفظ نصوص تنبّؤيّة، المقصود بها أن تكون أدوات في خدمة مستقبل الرجل، وليس أن تكون أدوات في خدمة الحقائق التاريخية. هذه النصوص تكشف عن صراعات لا تتوقّف بين طوائف ومذاهب وفرق وأحزاب، كانت كلها داخل إطار الديانة المسيحية. أمّا اللغة التي كان يسوع المسيح يتحدّث بها مع أقرانه فهي الآرامية، وهي حقيقة تؤكّدها كل الأناجيل القانونية التي اعترفت بها الكنيسة. ربّما كان يسوع المسيح قد تحدّث أيضا باللغة المصرية القديمة، وهو ما أورده الإنجيل الذي كان القديس بطرس * قد وضعه، ولم تعد الكنيسة تعترف به أو تضمّه إلى غيره من الأناجيل في طبعات القرون الأخيرة. باختصار كان يسوع المسيح من نسل الأمم، أي أنه أمميّ *، وهي كلمة كان المقصود بها هو أنه لم يكن يهوديا.

(٢)

تاريخ ميلاد المسيح

ان مؤسسي الديانات الكبرى في العالم، وقادة الثورات الكبرى في تاريخ الجنس البشري، يمارسون نوعا من السيطرة التامة على أجيال متتالية من شعوبهم ومن المؤمنين بهم وبرسالاتهم. إلا أن الحياة الخاصة لهؤلاء البشر من الرسل والقادة، الذين عادة ما يحيط بهم مريدوهم وتلاميذهم، الذين قد يعرفون عن حيواتهم الخاصة تلك بعض التفاصيل، فإن ما يحدث في الغالب هو أن تنمحي ذكريات تفاصيل تلك الحيوات الخاصة بشكل سريع من ذاكرة المريدين والتلاميذ، وتسقط فورا في عالم النسيان، تاركة الأرض خصبة لكل أجيال المؤمنين والأتباع المستقبليين، حتى يترعرع ويزدهر في أدمغتهم كل ما هو ممكن الحدوث من خيالات منفلتة، لتدلّ فقط على مدى التقوى والورع اللذين تميّز بهما أولئك القادة الروحيين. كانت تلك هي حالة بوذا [كتاب حياة بوذا/ للمؤلف فوشير/ باريس/ ١٩٨٧]. وكانت تلك كذلك هي حالة يسوع المسيح، فيما يتعلق بكل ما هو مجهول وغامض من حياته، منذ مولده وحتى بداية دعوته الدينية، عبر كل مراحل مراهقته وشبابه الأول.

إنها مسألة من المسائل التي طالما أثارت جدلا طويلا، لكن الشيء الأكيد هو أن يسوع المسيح لم يولد في بداية العام الأول من القرن الأول في التقويم الميلادي. وحتى نتمكن من عرض وجهة النظر تلك ينبغي علينا أن نبدأ بطرح هذا السؤال: ما هي الأحداث الهامة التي يمكن الاستدلال بها على التوقيت الأقرب إلى الدقة لمولد يسوع المسيح؟

تقول نصوص الأناجيل إن العائلة المقدّسة، أي يوسف النجّار وزوجته مريم التي كانت على وشك أن تضع حملها، كانا قد انتقلا من الجليل إلى اليهودية، للاشتراك في إحصاء عام لسكان هذا الإقليم، كان قد أمر بإجرائه أوغسطس قيصر، على زمن هيرودس حاكما على أورشليم [انجيل متى الاصحاح الثاني الأعداد ٢٢ و٢٣، وانجيل لوقا الاصحاح الثاني العدد الأول]. كان الأباطرة الرومان يهتمّون بإحصاء السكّان لأهميته في تحديد قيمة الضرائب المطلوبة من شعب منطقة ما. بالتالي يمكننا أن نورد هنا بعض الأحداث التاريخية الهامة، التي منها مثلا:

– أن هيرودس كان حاكما محليا على مدينة أورشليم من طرف الامبراطور الروماني لمدة ثلاثة وثلاثين عاما، بين عام ٣٧ قبل الميلاد والعام الرابع قبل الميلاد.

– أن الامبراطور الروماني أوغسطس قيصر كان حاكما على الإمبراطورية الرومانية لمدة أربعة وأربعين عاما، بين عام ٣٠ ق م وعام ١٤ ميلادية.

– أن المؤرّخ ديون كاسيوس Dion Cassius، في كتابه تاريخ روما، يذكر أنه على زمن الامبراطور أوغسطس قيصر تم إجراء أربعة إحصاءات للسكّان في هذا الإقليم، كانت في السنوات ٢٨ ق م – ١٩ ق م – ١٢ ق م – ٤ ميلادية. أي أنه ليس هناك إحصاء يتفق مع العام الأول للميلاد، كما أنه يمكن استبعاد التاريخ ٤ ميلادية لأن هيرودس كان قد غادر بوفاته موقعه كحاكم على أورشليم، كما أنه من المستبعد كذلك أن يكون يسوع قد ولد اثني عشر عاما قبل الموعد المحدّد لميلاده المعترف به.

– هناك إحصاء آخر لكنه لا يذكر اسم هيرودس، وكان قد ورد في كتاب المؤرّخ يوسيبوس في كتابه الأزمنة القديمة Antiquity، على أنه قد تمّ خلال العام السادس للميلاد، وهو الزمن الذي كان فيه كيرينيوس حاكما على إقليم سوريا، وهو الإحصاء الذي كان مقصودا به حصر ثروة أحد حكّام الأقاليم وهو أرخيلاوس بسبب الاشاعات عن ثروته التي كانت قد تضخّمت. هذا الاحتمال يحبّذه عدد من المؤرّخين المعاصرين، رغم تناقضه الواضح مع ما جاء في الأناجيل بخصوص هيرودس الذي كان – عند إجراء هذا الإحصاء – قد مات قبل عشر سنوات.

– ظهرت بعد ذلك نصوص تاريخية تشير إلى احتمال قيام كيرينيوس المشار اليه أعلاه بإجراء إحصاء للسكان في العام ٦ ق م، وهو ما يجعلنا نتساءل هل أخطأ يوسيبوس في التسجيل وذكر أن التاريخ هو ٦ ميلادية، في حين أنه في الحقيقة كان ٦ ق م. كان كيرينيوس حاكما على إقليم سوريا لمدة طويلة بين ١٢ ق م والعام ١٦ ميلادي.

حتى الوقت الحالي لا تزال كل هذه الأسئلة مطروحة، ومم يزيد من صعوبة المسألة أن الاحتمالات التي كانت مطروحة سابقا، والتي كان يمكنها أن تساعد في تحديد تاريخ ميلاد يسوع المسيح بدقة، أصبحت حاليا موضع شك كبير، وهي مثلا الاحتمال بأن يسوع المسيح لم يبدأ التبشير بديانته الجديدة في سن الثلاثين، بل بعد ذلك السن بكثير، قد يصل في بعض التقديرات إلى أن بداية التبشير كانت في سن الخمسين. وهو الاعتقاد الذي انتقل

بواسطة القديس يوحنا الإنجيلي إلى آسيا [كتاب المؤرّخ ايرنيست رينان/ المعنون حياة يسوع/ الصادر سنة ١٨٦٣، وكتاب شارل جيجنبير/ المعنون يسوع/ الصادر في باريس/ سنة ١٩٦٩] .

ثم هناك الكتابات التي تذكر أن اليهود كانوا يردّون على المسيح الذي ذكر أمامهم أنه كان يعرف أبا الأنبياء إبراهيم، قائلين (كيف أنك لم تكمل بعد سن الخمسين وتدّعي أنك تعرف أبانا إبراهيم). فإذا كان يسوع المسيح قد بلغ الخمسين قبل أن تنتهي حياته الأرضية، ومن المعروف لكل المؤرّخين أنه قد مات على زمن القيصر تيبيريوس، الذي حكم حتى سنة ٣٧ ميلادية، ففي هذه الحالة يمكن للمسيح أن يكون قد ولد على زمن إحصاء سنة ١٩ ق م، كما ورد في كتابات المؤرّخ دون كاسيوس. كما أن هناك احتمال أن المدّة التي استغرقتها مهمته كمبشّر بالديانة الجديدة لم تكن فقط ثلاث سنوات وثلاثة أشهر كما ساد الاعتقاد طويلا، بل كانت المدّة أطول من ذلك. لكل هذا لا تزال مسألة تحديد التاريخ الحقيقي لميلاد المسيح مسألة ملغزة.

(٣)

مدّة حياة المسيح

إذا تمّ الاتّفاق مبدئيا على افتراض أن تاريخ مولد يسوع المسيح قد يكون في العام التاسع عشر قبل الميلاد، وأنه بدأ التبشير بديانته الجديدة عند اقترابه من سن الثلاثين، فإن هذه البداية ستكون في حوالي العام العاشر من الميلاد. فإذا كان حادث وفاته قد وقع في العام الثالث والثلاثين من الميلاد، فإن هذا يعني أنه كان عند وفاته يقترب من منتصف عقده السادس، في الرابعة والخمسين من العمر. هذا يعني أيضا أن مدة تبشيره برسالته الجديدة لم تكن فقط لمدّة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر، بل قد تصل مدّة التبشير إلى حوالي ثلاثة وعشرين عاما. هذه هي المدّة التي تمثّل الحدّ الأدنى لما ينبغي أن تكون عليه فترة تأسيس ديانة جديدة، ينتشر الايمان بها إلى أركان العالم الأربعة، ويستمر لمدة تزيد على عشرين قرنا من الزمان. في إنجيل القدّيس يوحنا، كما في كتابات القدّيسة ايرين من مدينة ليون ما يشير إلى أن يسوع عند موته كان في حدود سن الخمسين. كتبت القدّيسة ايرين:

(إن المهرطقين الذين يميلون إلى المبالغة يقولون، إن بشارة يسوع المسيح لم تكن إلا لمدة عام واحد، هو العام الذي بلغ فيه سن الثالثة والثلاثين، وأنه قد مات في الشهر الثاني عشر من ذلك العام. وأنا أقول لهم إن هذا لا يضيف إلى السيّد المسيح بقدر ما ينتقص منه، وذلك لأن الجموع التي كانت تتبعه وتحيط به أينما حلّ لتستمع إلى تعاليمه، ذكرت أنها كانت تتبع رجلا حكيما تعدّى منتصف العمر، وذكر البعض أنه كان في ذلك الحين قد فقد أغلب شعر رأسه.

وأنا أميل إلى تصديق هذا لأنه كيف كان له أن يحصل على كل هذا الجمهور من المستمعين إلى تعاليمه، ومن التلاميذ والحواريين، إذا لم تكن بعثته قد دامت إلا مدة عام واحد؟ من المؤكّد أنه عندما ذهب يسوع إلى يوحنا المعمدان في نهر الأردن، كان في الثلاثين من عمره، فإذا لم تكن بعثته قد دامت إلا مدّة عام واحد، فإنه في هذه الحالة يكون قد مات وهو لم يبلغ بعد الثالثة والثلاثين حسب المعتقد الشائع. إن أقوال القديس يوحنا الإنجيلي، وكل كنائس منطقة آسيا الصغرى التي اعتمدت على انجيله في التبشير تعتمد هذه الأقوال كحقائق كتابية. يسوع المسيح مات وهو قد تعدّى الخمسين من العمر).

(٤)

المسيح معالجا روحيا

في القرن الأول للميلاد، كانت أسرار المعالجة الطبيّة لا تزال بين أيدي الكهنة المصريين، وكانت المستشفيات أو الأماكن المخصّصة للعلاج، لا تزال تُلْحَق بالمعابد الكبيرة، كما كانت المدارس التي يتلقّى فيها الأطبّاء معارفهم، هي الأخرى لا تزال ملحقة بالمعابد الكبيرة. كانت المعابد المصرية القديمة هي خزائن المعرفة، التي تراكمت في البرديّات الموجودة على أرفف مكتباتها، كل المعارف والعلوم التي حصّلها المصريون خلال ثلاثة آلاف عام. هكذا تحدّث المؤرّخ والجغرافي سترابون Strabon، عن مصر عندما جاء لزيارتها في القرن الأول للميلاد، في الفصل الثامن من الجزء الثاني عشر من كتابه المعنون (الجغرافيا Geography) وهي كلمة تعني (وصف الأرض)، لأن جيو Geo هي الأرض، وجرافي graphy هي الوصف.

أما تاسيتوس Tacitus المؤرّخ في كتابه (التاريخ) فقد ذكر، أن في سيرابيوم الاسكندرية *، وهو المكان الذي خصّص لعبادة الإله سيرابيس، كان ملحقا به مكانٌ للاستشفاء. عندما انتقلت العبادات والمعبودات المصرية إلى اليونان، بعد زمن فتح الاسكندر المقدوني لها، حتى في تلك المعابد المصرية خارج مصر، في بيرجام Pergame وإيبيدور في اليونان، كانت ملحقة بها المدارس الطبيّة والمستشفيات [كتاب معجزات يسوع/ للمؤلف تيوفيل بندو/ المطبوع في مونتريال/ سنة ١٩٨٥]. وقد ذكر أبوليه Apulee كذلك أنه في معبد مصري بمدينة كورينث Corinthe، مخصّص لعبادة الالهة إيزيس، كانت هناك أماكن حول المعبد تؤجّر للمرضى الذين يحضرون من مسافات بعيدة، في محاولة للحصول على علاج الأطبّاء المصريين ذائعي الصيت.

لا تزال هذه العادة قائمة إلى الآن، في الكنائس والأديرة المصرية القبطية الحالية، التي تقام على اسم أحد القدّيسين (أو إحدى القدّيسات)، المشهور عنهم قدرتهم المعجزية على علاج الأمراض، مثل مار جرجس، أو القدّيسة دميانة. في مثل تلك الأديرة والكنائس، تبنى حجرات مستقلة حول المبنى الرئيسي، وتؤجّر خلال مواسم الأعياد الدينية والاحتفالات بالموالد، للمرضى القادمين من مسافات بعيدة، على أمل الحصول على شفاء معجزي، على يد هذا القدّيس أو تلك القدّيسة.

في الواقع لم يكن الطب المصري القديم، منفصلا عن الايمان بالمعجزات، وبالأعمال التي تدخل في نطاق السحر. كلمة سحرٍ في اللغات الأوروبية magic مشتقّة من كلمة المجوس *، وهو اللفظ الفارسي الذي أُطْلِق على الكهنة في معابد زرادشت [موسوعة الأديان والأخلاق/ للمؤلف هاستينجز/ المطبوعة في إدينبره/ سنة ١٩١٥، وكذلك القاموس اللاتيني/ المطبوع في أوكسفورد/ سنة ١٩٧٥]. بعض البرديّات الطبيّة المشهورة، تتعامل مع التطبيب بهذه الروح، وانطلاقا من هذا المعنى. الطب هو القدرة على الاتيان بمعجزات، بالاستعانة بالآلهة وبالأرواح الخيّرة، من خلال تلاوة بعض التعاويذ، وممارسة بعض الأفعال الرمزية [البردية السحرية التي تمّ العثور عليها في الأقصر، في موقع منزل عاش فيه خلال القرن الثاني للميلاد، أحد الغنوصيين * المصريين الأقباط، والموجودة حاليا في المكتبة القومية بباريس تحت رقم ٥٧٤].

إن العلم الذي اكتسبه الأطباء المصريون المعالجون للأمراض العضوية، نتج عن تاريخ

طويل من التجريب، ومن ملاحظة أعراض المرضى، وملاحظة مدى فعالية العلاجات المتّبعة. كما أنهم تمكنوا بمعرفة متواضعة جدا، لمبادىء ما سيعرف لاحقا باسم علم الأدوية (أو الفارماكوبيا pharmcopie)، من استخراج الكثير من المواد الفعّالة من النباتات المختلفة المعروفة في البيئة المصرية، ضد الأمراض المختلفة، خاصة في حالة الأجهزة الهضمية والبولية والتنفّسيّة. لكن هذا لم يكن يمنع من استعمال التعاويذ المنطوقة، عند تقديم الدواء للمريض، بحيث تقوم هذه التعاويذ بدور نفسي فعّال في إقناع المرضى بجدوى العلاج، فيما عرف لاحقا باسم التأثير النفسي في المريض (أو البلاسيبو placebo) [بردية في المتحف البريطاني في لندن تحمل رقم ١٠٠٥٩، تصف العلاج المستخدم في حالة النزيف، وكتاب النصوص السحرية المصرية القديمة للمؤلف بورجوتس الصادر في ليدن سنة ١٩٧٨].

في الأزمنة القديمة كانت الأمراض النفسية والعقلية، تعزى إلى الأرواح الشرّيرة التي تسكن جسد المريض، ومن هنا جاءت الممارسات الخاصة باستخراج الأرواح الشريرة، المعروفة في اللغات الأوروبية اختصارا بكلمة استخراج exorcism. ومن الغريب أن عددا كبيرا من كهنة الكنيسة المصرية، لا زالوا حتى الآن يمارسون فن استخراج الأرواح الشريرة بنجاح في الكنائس المصرية. لم تكن تلك الفكرة في ذلك الوقت بعيدة عن العقل والمنطق، إذ اعترفت التوراة مثلا بوجود القوى الشرّيرة، وأقرّت بوجود السحر الأسود، الذي يستخدم في غير صالح البشر. إلا أن مصر القديمة تمكنت من إيجاد نوع من السحر الأبيض، الذي يهدف إلى خير الإنسان، ويلجأ إلى تحقيق أهدافه بقوة الإيحاء. سمح التقدّم العلمي في العصر الحديث بتفوّق العلوم التجريبية، وتراجع بالتالي تأثير المعتقدات السحرية.

يقول الفيلسوف المصري أوريجانوس في كتابه Contra Celsum، إن يسوع المسيح كان قد اكتسب أثناء إقامته الطويلة في مصر، قدرا كبيرا من المعارف والخبرات المصرية، المتعلّقة بعلاج الأمراض العقلية. لهذا السبب حدث في عدد من المرّات أن وُجّهَت إلى يسوع تهمة ممارسة السحر. وقد وصلت الأمور إلى حد تحريم السنهدرين على اليهود قراءة الأناجيل، التي ذكر فيها الحواريّون كل الأعمال السحرية التي تمّت على يد يسوع ويسميها المؤمنون به معجزات. هكذا قال السنهدرين. إلا أن الحقيقة هي أن يسوع المسيح كان يمارس معجزاته علانية في وضح النهار، ولم يمارسها أبدا في الخفاء، وغالبا ما كان هذا يحدث أمام أعداد غفيرة من الجمهور.

يقول مرقص * الرسول في إنجيله، الاصحاح ٩ الأعداد من ٣٨ إلى ٤٠ (قال يوحنا موجّها الحديث إلى يسوع: يا معلّم رأينا واحدا يطرد الشياطين باسمك، وهو لا يتبعنا فمنعناه لأنه لا يتبعنا، فقال يسوع: لا تمنعوه، فإن من ليس ضدّنا فهو معنا). بعد صعود المسيح إلى السماء، قام تلامذته باستخراج الأرواح الشريرة من أجسام المرضى، بالقوّة التي اكتسبوها من المسيح. في إنجيل لوقا الاصحاح ١٠ العدد ١٧ يقول (قال التلاميذ ليسوع: يا ربّ حتى الشياطين تخضع لنا باسمك).

ثم فيما بعد قام القدّيس بولس* ، الذي كان قبل إيمانه يدعى شاول ويضطهد المسيحيين، هو الآخر بممارسة طقس استخراج الأرواح الشرّيرة، من المرضى العقليين، باسم يسوع المسيح، رغم أنه لم يقابله ولا مرة واحدة. يقول سفر أعمال الرسل عنه في الاصحاح ١٦ الأعداد من ١٦ إلى ١٨ (ذات يوم كنّا ذاهبين إلى الصلاة، فالتقت بنا خادمة، يسكنها روح عرّافة، كانت تكسب سادتها ربحا كثيرا من عرافتها، فأخذت تسير وراء بولس ووراءنا صارخة: هؤلاء الناس هم عبيد الله العليّ، يعلنون لكم طريق الخلاص. وظلّت تفعل هذا أيّاما كثيرة، حتى تضايق بولس كثيرا، فالتفت وقال للروح الذي فيها: باسم يسوع المسيح، آمرك أن تخرج منها. فخرج حالا).

وقد انتشرت هذه الممارسات في العالم القديم، خلال القرون الأولى من الميلاد، إذ قام عدد كبير من المعالجين الروحيين، في بلاد مختلفة، باستخراج الأرواح الشريرة، فقط باستعمال اسم يسوع المسيح. تذكر البردية السحرية، الموجودة حاليا في المكتبة القومية بباريس، تحت رقم ٥٧٤، أن نفس هذه الممارسات خلال فترة نهاية العصر الفرعوني في مصر وفي غيرها من البلاد، كان المعالجون الروحيون يستعملون فيها اسم أوزير ثم اسم حورس، لنفس الغرض الذي استعمل فيه اسم يسوع المسيح لاحقا [كاتالوج متحف الآثار المصرية بالقاهرة/ من إعداد جاستون ماسبيرو/ البردية رقم ٦٧١٨٨/ من العصر البيزنطي/ من القرن الأول الميلادي، كاتالوج متحف هايدلبرج/ بردية رقم ١٣٥٩/ من القرن الرابع الميلادي].

أدّى التعليم الكنسي الجديد، منذ فترة الاصلاح اللوثري *، في بداية القرن السادس عشر، إلى إغفال معنى المعالجة الروحية، في ممارسات يسوع المسيح الشفائية، لصالح الجانب الذي يشير، إلى أن هذه الممارسات كانت معجزات إلهية [المعجزات في الأناجيل/ زافييه

ليون ديفور/ باريس/ ١٩٨١]. وقد أغفلت هذه التعاليم الجديدة، الحقيقة التي أشرنا اليها عاليه، من أن تلك الممارسات الروحية، لم تكن مقتصرة على يسوع المسيح، بل قام بها عدد كبير من تلاميذه، ومن المعالجين الروحيين الآخرين، الذي كانوا قد تلقّوا تعليمهم في المعابد المصرية، التي ظلّت مفتوحة لاستقبال الزوّار، حتى أواخر القرن الرابع الميلادي، عندما أمر الامبراطور ثيودوسيوس بإغلاقها.

قام شارحو الكتاب المقدّس المتفاخرين بمعجزات المسيح، بمحاولة العثور على تعريف مناسب لكلمة (معجزة)، فيما يتعلق بيسوع المسيح، فوجدوا هذا التعريف (المعجزة هي ظاهرة غير عادية تتناقض مع المجرى المعتاد للأشياء في الطبيعة). ثم جاء من أضاف (إن المعجزة هي حدث غير مفهوم بالنظرة العقلانية) [كتاب معجزات يسوع المسيح هي إشارة إلى عالم جديد/ للمؤلف تيوفيل بيندو/ مونتريال/ ١٩٨٥]. ثم جاء من أضاف (المعجزة هي ظاهرة دينية هدفها أن يؤمن من شاهدها بالدعوة التي يدعو اليها صاحب المعجزة، وتتكوّن من فِعْل يتدخّل فيه الله نفسه، قد يكون فوق قوانين الطبيعة، وقد يكون ضد قوانين الطبيعة، وهو فِعْل يُظْهِر فيه الله قدراته وقواه، وفي نفس الوقت يظهر حبَّه للكائنات البشرية الضعيفة، كل هذا بهدف وصول تلك الكائنات البشرية الضعيفة بسلام إلى عالم الآخرة) [كتاب معجزات يسوع المسيح ولاهوت المعجزة/ للمؤلف رينيه لاتوريل/ مونتريال/ ١٩٨٦].

تعدّدت المؤلفات في القرن العشرين حول معجزات يسوع المسيح، التي قد تطالب بعضها بتفسير علمي لها، نظرا للتقدّم العلمي الحاصل في هذا القرن، في حين أن بعض المؤلفات الأخرى قد تنظر إلى هذه المعجزات على أنها لم تكن أكثر من أفعال رمزية. هناك مثلا من يدعو إلى النظر إلى معجزات يسوع على أنها أفعال إلهية، بعيدا عن التراث الوثني السابق على عصر يسوع أو المعاصر له [كتاب يسوع الساحر/ للمؤلف مرتون سميث/ ١٩٧٨]، وهناك كذلك من يدعو إلى التفسير الرمزي [كتاب التفسير الرمزي لمعجزات يسوع/ للمؤلف لويس شالونسون/ آكس أون بروفونس/ ١٩١٩].

في الحقيقة فإن الأناجيل الأربعة الموجودة في كتاب العهد الجديد، منذ طبعته الأولى في منتصف القرن الخامس عشر، لم يستعمل أيٌّ منها على الاطلاق كلمة معجزة في سياقات الحديث عن تلك الأفعال الخارقة ليسوع المسيح، مثل إقامة أليعازر بعد مرور ثلاثة أيّام على

دفنه في القبر. حتى في تلك الحالة الأخيرة لم تستعمل الأناجيل كلمة معجزة إقامة أليعازر من الموت، بل قالت إن يسوع كعادته في علاج الأمراض المستعصية، كان صديقه أليعازر قد أصيب بواحدٍ منها، وتمكن يسوع من علاجه، تاركا جمهور المشاهدين في حالة وسط بين الانبهار به والخوف منه [كتاب المعجزات في الأناجيل/ للمؤلف جان بيار شارلييه/ باريس/ ١٩٨٧].

يقول إنجيل متى في الاصحاح التاسع من العدد ٢ إلى العدد ٨ (جاءه بعضهم يحملون مشلولا مطروحا على فراش، فلمّا رأي يسوع إيمانهم قال للمشلول: اطمئن يا بنيّ قد غُفِرَتْ لك خطاياك. فقال بعض الكتبة في أنفسهم: إنه يُجَدّف. عندئذٍ قال للمشلول: قُم احمل فراشك واذهب إلى بيتك. فقام وذهب إلى بيته. فلمّا رأت الجموع ذلك، استولى عليهم الخوف، ومجّدوا الله الذي أعطى الناس مثل هذه السلطة). يقول القدّيس متى في نفس الإنجيل الاصحاح الرابع في العددين ٢٤ و٢٥ (فذاع صيته في سورية كلها، فحمل الناس اليه مرضاهم المعانين من الأمراض والأوجاع على اختلافها، والمسكونين بالشياطين، والمصروعين والمشلولين، فشفاهم جميعا. فتبعته جموع كبيرة من مناطق الجليل، والمدن العشر، وأورشليم واليهودية، وما وراء نهر الأردن)

(٥)

قدرات القرين (كا)

المصطلح الذي استعمله المصريون القدماء للتدليل على القدرات السحرية، هو مصطلح (ح كا) أو (ح قا)، وتكتب (heka). وقد كان لهذا المصطلح بعض التعريفات التي تمّ العثور علَيها في بعَض البرديّات، مثل التعريف التالي (قدرات الهية تتجسّد في بعض البشر من ذوي المواهب الخاصة)، (قدرات على الخلق)، (القدرة على حماية البشر من الأمراض وعلاجهم منها)، (قدرات قادرة على الانتقال من انسان إلى آخر، فتنتقل هذه المواهب بينهما). من المعروف كذلك أنه قد تمّ تصوير الكا، في التراث المصري المكتوب، على أنها قرين الإنسان وملاكه الحارس. تقول نصوص الأهرامات في الألفية الثالثة ق م، إن المتوفّى يكون متسلّحا، حال وصوله سالما إلى العالم الآخر، بكل قوى جسده الفاني وروحه الباقية،

وتظهر هنا في النصوص كلمة (كا)، فيتمكّن المتوفّى من مواجهة أعدائه الذين يقطعون عليه الطريق.

تنتقل هذه الكلمة المصرية القديمة (heka)، إلى اللغة اليونانية، في البرديّات الأولى المكتوبة باليونانية، وفي مجموعة برديّات نجع حمّادي، بعد فتح الاسكندر لمصر في ٣٣٢ ق م، فتترجم باليونانية إلى كلمة dynamis، وهي الأصل في الكلمة العلمية المعروفة (ديناميك dynamics)، والمقصود بها الحركة أو التحريك، أي القدرة على تحريك الروح الشرير، بعيدا عن جسد الشخص الملبوس. هذه هي نفس الكلمة اليونانية التي تستعمل لاحقا، في الترجمات الأولى للأناجيل، من العبرية والآرامية إلى اليونانية، للتعبير عن أفعال يسوع المسيح المذهلة. أمّا كلمة معجزة باليونانية miraculum، ومنها نفس الكلمة في اللغات الأوروبية الحديثة، فهي لم تستعمل أبدا في الأناجيل الأولى التي ظهرت باليونانية [القاموس اللاتيني/ لويس وشورت/ ١٩٧٥، وكذلك القاموس اليوناني الفرنسي/ بيلي/ ١٩٦٩].

هذه القوّة المتحرّكة قادرة على الانتقال بين البشر، وقد ذكر يسوع المسيح نفسه هذا المعنى، في إنجيل مرقص الاصحاح الخامس (كانت هناك امرأة مصابة بنزيف منذ اثنتي عشرة سنة، وقد عانت الكثير من الألم على أيدي أطبّاء كثيرين، فازدادت حالتها سوءا. فإذ كانت قد سمعت عن يسوع، جاءت في زحمة الجمع من خلفه ولمست رداءه، لأنها قالت في نفسها: يكفي أن ألمس ثيابه لأشفى. وفي الحال انقطع نزيف دمها.

حالما شعر يسوع في نفسه بالقوّة التي خرجت منه، أدار نظره في الجمع وسأل: من لمس ثيابي؟ فقال له تلاميذه: أنت ترى الجمع يزحمونك وتسأل من لمسني؟ فجاءت اليه المرأة خائفة وهي ترتجف، وارتمت أمامه وأخبرته بالحقيقة. فقال لها: يا ابنة، ايمانُكِ قد شفاكِ، فاذهبي بسلام وتعافي من علّتك). كان المرضى يقتربون منه بأعداد كبيرة ويلمسون ثيابه فيشفون، ويشعر هو بخروج قوى منه. يقول إنجيل لوقا في الاصحاح ٦ العددين ١٨ و١٩ (جاء الناس من أماكن بعيدة ليسمعوه، ولينالوا الشفاء من أمراضهم. وكان الجميع يسعون إلى لمسه، لأن قدرة كانت تخرج منه، وتشفيهم جميعا).

في الحقيقة إن من أعجب الأشياء في الأناجيل، ليس قدرة يسوع المسيح على استخراج الأرواح الشرية، بل قدرته على أن يهب غيره نفس هذه القدرة، انظروا مثلا إلى هذا النصّ

من إنجيل مرقص الاصحاح ٣ العدد ١٥ (عيّن يسوع اثني عشر ليلازموه ويرسلهم ليبّشروا، وتكون لهم سلطة على طرد الشياطين). هناك كذلك نفس المعنى في نصّ نفس الإنجيل الاصحاح ٦ العددين ٧ و١٣ (استدعى يسوع تلاميذه الاثني عشر، وأخذ يرسلهم اثنين اثنين، وقد أعطاهم سلطة على الأرواح النجسة. فانطلقوا يبشّرون داعين إلى التوبة، وطردوا شياطين كثيرة، ودهنوا كثيرين من المرضى بزيت وشفوهم). ثم يأتي هذا النصّ العجيب في نهاية إنجيل مرقص الاصحاح الأخير رقم ١٦ العددين ١٧ و١٨ (الى أولئك الذين آمنوا، باسمي تطردون الشياطين، وتتكلمون بلغات جديدة عليكم، وتقبضون على الحيّات، وإن شربتم شرابا قاتلا لا تتأذّون البتّة، وتضعون أيديكم على المرضى فيتعافون).

كذلك في نهاية سفر أعمال الرسل الاصحاح الأخير رقم ٢٨ الأعداد من ٣ إلى ٦ وهي تحكي عن رحلة بولس الرسول إلى مالطة، بعد أن تحطّمت مركبه على شواطئها (جمع بولس بعض الحطب وألقاه في النار، فخرجت أفعى وتعلّقت بيده، ورأى أهل مالطة الأفعى عالقة بيده، فقال بعضهم لبعض: لا بدّ أن هذا الرجل قاتل، فإن العدل لم يدعه يحيا بعد أن نجا من البحر. لكن بولس نفض الأفعى في النار دون أن يمسّه أذى، وانتظروا أن يتورّم جسمه أو يقع ميّتا فجأة، وطال انتظارهم، دون أن يصيبه أي ضرر، فغيّروا رأيهم فيه وقالوا: لا بدّ أنّه اله).

(٦)

العلاج المُعْجِز

في كتاب (معجزات المسيح) للمؤلف تيوفيل بيندو، الصادر سنة ١٩٨٥، يذكر لنا المؤلف بضع وثمانين مرضا، تمكّن يسوع المسيح ومن بعد رسله وتلاميذه من علاجها، وفقا لما جاء في الأناجيل، وكذلك في شواهد قبور تعود إلى القرن الأول للميلاد، وسجّلت نصوصها في بعض الوثائق التاريخية لتلك الفترة. من بين هذه المعجزات الاقامة من الأموات، وشفاء المشلول، والمصاب بالبَرَص، والمصاب بالصَرَع، والمولود أعمى، والمصاب بالصمم، وكافة أشكال الاصابة بالأمراض العقلية والنفسية، وكلها أمراض كان يعجز عن شفائها الأطبّاء حتى أوائل القرن العشرين، وبعضها يجوز لم نصل إلى علاج له

حتى الآن، ناهيك عن مسألة الاقامة من الأموات.

في إنجيل متى الاصحاح الرابع الأعداد من ٢٣ إلى ٢٥، يقول النصّ (كان يسوع يتنقّل في مناطق الجليل كلها، ينادي ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وعلّة في الشعب، فذاع صيته في سورية كلها، فحمل اليه الناس مرضاهم المعانين، من الأمراض والأوجاع على اختلافها، والمسكونين بالشياطين، والمصروعين، والمشلولين، فشفاهم جميعا). إذن لم تقتصر المسألة كما قد يبدو لنا، فقط على استخراج الأرواح الشرّيرة من أجسام المرضى، الذين كانت تعزى أمراضهم اليها، بل تعدّت المسألة ذلك إلى قائمة طويلة تشتمل على كل أشكال وأنواع الأمراض المعروفة لنا الآن.

هناك أساليب محدّدة متكرّرة كان يسوع المسيح يلجأ اليها، تشير بوضوح إلى أنه تعلّمها في مدارس العلاج المصرية. وقد ذكرت الأناجيل كيف أن يسوع المسيح، كان قد كرّر أمامهم في مناسبات عديدة، أنه يرفض أن تستعمل كلمة معجزة أو عبارة (آية من السماء) على وصف ما يقوم به، مؤكّدا عليهم أنه لا يأتي آيات من السماء ولا معجزات. وكان كهنة اليهود في ذلك الوقت يطلبون منه الإتيان بمعجزة سماوية حتى يؤمنوا به. نص إنجيل مرقص الاصحاح الثامن الأعداد من ١١ إلى ١٣ (أقبل الفرّيسيّون وأخذوا يجادلونه، طالبين منه آية من السماء ليجرّبوه، فتنهّد متضايقا وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية من السماء، الحق أقول لكم لن يعطَ هذا الجيل آية). وفي إنجيل متى الاصحاح ١٦ العدد ٤، يقول النص (لن يعطَ لهذا الجيل إلا آية بقاء النبي يونان ثلاثة أيام في بطن الحوت).

لم تظهر كلمة معجزة إلا في إنجيل يوحنا، الذي كتب في أواخر القرن الأول للميلاد، بعد أن كان اللغط قد اشتدّ حول أفعال المسيح، وهل هي معجزات سمائية، أم قدرات خاصة لشخص استثنائي؟ فهل حاول يوحنا إصلاح الخطأ الذي كان قد وقع فيه زملاؤه متى ومرقص ولوقا؟ في الاصحاح الرابع العدد الأخير رقم ٥٤، بعد أن قام يسوع بشفاء ابن رجل من حاشية الملك دون أن يراه، أو حتى دون أن يقترب من منزله، يقول النصّ (هذه المعجزة هي الآية الثانية التي أجراها يسوع، بعد خروجه من اليهودية إلى الجليل). وفي معجزة شفاء الأعمى منذ مولده، التي حدثت في يوم سبت، يقول النصّ (قال بعض الفرّيسيين: لا يمكن أن يكون هذا الرجل من الله، لأنه يخالف السُنّة – التي وفقا لها عمل الله ستّة أيام ثم استراح يوم السبت– لكن بعضهم قالوا: كيف يقدر رجل خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات؟)

هناك مجموعة كبيرة من الأمراض، كانت تعزى في ذلك الوقت المبكّر من تاريخ الإنسانية، إلى أن أجساد المرضى تسكنها أرواح شرّيرة، مثل الصَرَع، والتشنّجات العصبية، والهيستيريا العقلية الحركية، والاكتئاب، وفقدان الذاكرة مع الشيخوخة، وهي كلها كما نعرف الآن بفضل التقدّم العلمي، أمراضٌ تتسبب فيها مجموعة من الاصابات الباثولوجية (أي الناتجة عن أسباب تؤدّي إلى تلف عضوي في أنسجة الجسم). كيف تمكّن يسوع بواسطة يديه فقط لا غير من علاج كل هذه الأمراض؟

المعالج ينطق ببعض العبارات الشديدة، التي تطلب من الروح الشرّير مغادرة المريض، ثم يضع يديه على جسم المريض، فيحدث انتقال حركي dynamis، للطاقة الحرارية الايجابية، من جسم يسوع إلى جسم المريض. تذكر المصادر المصرية القديمة، حركة هذه الطاقة مرارا وتكرارا، وتسمّيها (حِكا)، منذ نصوص التوابيت في الدولة الوسطى، إلى نصوص كتاب الموتى في عصر الأسرات المتأخّر في الألف الأخيرة ق م، حتى البرديّات السحرية في العصر اليوناني الروماني بدءا من القرن الرابع ق م. فعلت هذا الالهة حتحور أو الالهة إيزيس، كل منهما في معابدها، أو فعلته من تقوم بدور حتحور أو إيزيس من الكاهنات المتعبّدات [شاهد قبر مترنيخ Metternich/ في كتاب إتيان دريوتون/ عن المسرح المصري القديم/ ١٩٤٢].

في إنجيل لوقا الاصحاح ١٣ الأعداد من ١٠ إلى ١٣، يقول النصّ (كانت هناك امرأة قد سكنها روح، فأمرضها طيلة ثماني عشرة سنة، وكانت حدباء لا تقدر أن تنتصب أبدا. فلمّا رآها يسوع، دعاها وقال لها: يا امرأة أنتِ في حلّ من دائك. ووضع يديه عليها، فعادت في الحال مستقيمة. ومجّدت الله). تمّ عبر كل العصور انتقال المعارف القديمة، جيلا بعد جيل، ولم تُفْقَد هذه المعارف إلى حد كبير، إلا بعد تحوّل كل المصريين إلى المسيحية، بدءا من القرن الرابع للميلاد. كما ساهمت بعض الأحداث الأخرى في ضياع هذه المعارف، منها حرائق مكتبات الاسكندرية، وتحويل المعابد المصرية إلى كنائس.

ورغم تحوّل الشعب المصري كله إلى المسيحية، إلا أن الكثير من الكهنة الأوائل، كانوا من كهنة مصر القديمة المتحوّلين إلى المسيحية، وهم فقط ولا أحد غيرهم، احتفظوا بهذه الأسرار لأنفسهم، ولمن سيحمل عنهم الراية من بعدهم، حتى أن بعض كهنة مصر الحاليين في أوائل القرن الواحد والعشرين، لا يزالون قادرين على ممارسة هذه الأعمال المعجزية، كما لا نزال نشاهده يحدث حتى الآن، على يد بعض الكهنة والقسس، بعد قدّاسات الجمعة

والأحد، في بعض كنائس منطقة مصر القديمة، على سبيل المثال.

المؤرّخ تاسيتوس Tacitus من القرن الأول للميلاد، يقول في أحد مؤلفاته، وهو الجزء الرابع من مؤلّفه المعنون (التاريخ) في الفقرتين رقم ٨١ ورقم ٨٢، أنه كان في مدينة الاسكندرية، بعد صعود المسيح إلى السماء بسنوات قليلة، في توقيت زيارة الامبراطور الروماني فيباسيان Vespasian لها، ثم يروي لنا قصّة قد نصدّقها وقد لا نصدّقها، لكنها تدلّ على مدى رغبة الناس في وقوع معجزات. القصّة هي أن واحدا من جمهور الشعب، تمكّن من الاقتراب من حاشية الامبراطور، عند اقتراب الموكب الامبراطوري مشيا على الأقدام، من واجهة معبد أوزيريس آبيس، المعروف اختصارا باسم أوسيرابيس، الذي كان ينوي الامبراطور زيارته لاستشارة الوحي الالهي في قدس أقداس المعبد، في مسائل تخصّ الامبراطورية.

صرخ الشخص المجهول في وجه الامبراطور طالبا منه، أن يشفي يده المشلولة العاجزة المشوّهة، لو هو فقط وضع باطن قدمه عليها. تردّد الامبراطور، لكن بسبب إلحاح الشخص، استدار الامبراطور وطلب مشورة أطبّائه الموجودين ضمن الحاشية. فحص الأطبّاء حالة المريض باهتمام، فقط بفضل وجود الامبراطور، وبطلب علني منه، وأدركوا أن المفاصل العظمية في يد الشخص، كانت منحرفة عن وضعها الطبيعي، ثم أفتوا بأنه قد يحدث فعلا شفاء من الانحراف في المفاصل، لو تعرّضت اليد لضغط عليها من وزن ثقيل، لكنهم لم يستطيعوا تحديد الاتجاه الذي يجب أن يكون عليه الضغط.

وافق فيسباسيان على محاولة تقديم هذه الخدمة للشخص المجهول، الذي تمدّد على أرض الطريق فاردا ذراعه الذي ينتهي باليد المشلولة، وتقدّم الامبراطور ليضع قدمه عليها، وسط صمت جمهور الشعب الموجود حوله. ثم حدثت المعجزة وشفيت اليد من شللها وتشوّوهها. هل حدث هذا فعلا؟ هل كان الشخص المريض المجهول في حاجة فقط إلى شخصية عظيمة مثل الامبراطور تُظْهِر اهتمامها به؟ هل كان هذا المرض يعزى جزئيا إلى اضطراب نفسي للمريض؟ هل وطأَت قدم الامبراطور فعلا الأماكن المشلولة وأعادت اليها بهذا الوطء اتّصالها بالأعصاب الحركية؟ يظلّ هذا اللغز في كتاب تاسيتوس دون إجابة محدّدة واضحة.

في نصوص الأهرام من الألفية الثالثة قبل الميلاد، نسخة سبيليرز Speleers، سنة ١٩٣٤

الصفحة ١١٣، هناك نصٌ يقول (اللَّعاب الخارج من فم حورس، له القدرة على تطهير كل الجروح وعلى شفائها). ثم في نصوص التوابيت من الألفية الثانية قبل الميلاد، نسخة بول بارجيه Barguet، المطبوعة في باريس سنة ١٩٨٦، هناك نصّ يقول (يُنصح بالبصق فوق الجروح، حتى تقدر على الشفاء). كان الناس في منطقة الشرق الأوسط معتادين على مسألة محاولة علاج الجروح والالتهابات باستعمال اللعاب أو البصاق. إلا أنهم كانوا في أغلب الأحوال يخلطونه بمواد عطرية مستخلصة من نباتات طبيعية.

زار الجغرافي سترابون Strabon فلسطين، في نفس الوقت الذي كان فيه يسوع المسيح لا يزال على قيد الحياة، وحكى لنا في كتابه (الجغرافيا) الجزء ١٤ العدد ٢ والعدد ٤١، أنه في مدينة أريحا، يوجد بستان معروف باسم بستان البلسم، وهو ممتلئ بشجيرات البلسم، وهي شجيرات صغيرة الحجم، لها رائحة عطرية جميلة، ولها ثمار لحمية غير متفتّحة، عنبيّة الشكل والحجم، لا نواة لها بل تحتوي بزرة أو أكثر مثل العنب. فإذا جرحنا هذه الثمار جرحا صغيرا بمشرط مثلا، تسيل منها عصارة لها لون وقوام اللبن، تجمع في كؤوس صغيرة، ثم يتماسك قوام العصارة ويتكثّف، ويصبح مثل معجون. يقول العلم الحديث أن افرازات هذه الشجيرة كان بها مسكّن للآلام من عائلة الأفيون. كانت هذه المادة مخلوطة بالعسل تستعمل في علاج آلام الأمعاء، وتستعمل مخلوطة باللعاب البشري في علاج الجروح.

صحيح أن يسوع المسيح كان قد استخدم اللعاب مرارا، في شفاء عدد من الأمراض المستعصية، إلا أن بعض الحالات يصعب تفسيرها. ففي إنجيل يوحنا الاصحاح التاسع الأعداد من ١ إلى ٧، يقول النصّ (فيما كان يسوع مارا رأي رجلا أعمى منذ ولادته، فسأله تلاميذه: يا معلّم، من أخطأ، هذا أم والداه، حتى وُلِد أعمى؟ فأجابهم يسوع: لا هو أخطأ ولا والداه، ولكن حتى تظهر فيه أعمال الله. قال هذا وتفل في التراب، وجبل من التفل طينا، ثم وضعه على عيني الأعمى، وقال له: اذهب واغتسل في بركة سلوام. فذهب واغتسل وعاد بصيرا).

فهرس لبعض المصطلحات والأعلام

أبو كريفا: الكلمة من أصل يوناني وقد استعملت منذ القرن الخامس الميلادي في الإشارة إلى الأسفار المخفيّة، أي الأسفار التي لم توافق الكنيسة على طبعها، في أول نسخة مطبوعة من الكتاب المقدّس سنة ١٤٥٣، ومنها بعض الأسفار في العهد القديم، وبعضها الآخر في العهد الجديد.

أممي: في المصادر اليهودية هذه الكلمة تعني من هو غير يهودي، أي من هو ليس من أفراد شعب الله المختار، وفي المصادر الرومانية هذه الكلمة تعني غير روماني، أي من هو غير متمتّع بحقوق المواطنة الرومانية.

إنجيل: هي كلمة تعني البشارة، أو أيضا تعني إعلان الأخبار السارة، والمقصود بها الإعلان عن مولد يسوع المسيح. والعجيب أن مصر القديمة قد استعملت نفس المعنى (الأخبار السارة) للإعلان عن المولد اليومي لإله الشمس، الذي يسمّى عند مولده (خِبري) التي يمكن أن نرى فيها كلمة خبر العربية. في كتاب العهد الجديد هناك أربعة بشائر أو أناجيل تحمل أسماء من كتبوها من تلاميذ المسيح، وهم متى ومرقص ولوقا ويوحنا. والكلمة التي تعني (ملاك) هي angel في اليونانية القديمة وفي اللغات الأوروبية، ومن علوم الاشتقاق اللغوي هذه الكلمة تعني رسول messenger، أي مخلوق سماوي قادم من السماء، ليخبر الأرضيين بالأخبار السارة.

باويط: مدينة قديمة في إقليم المنيا، كانت عظيمة على زمن المسيحيين المصريين الأوائل، حيث وجد بها الأثريون الغربيون في أوائل القرن العشرين، الآثار الدالة على وجود عدد كبير من الكنائس، وقد نقلوا منها إلى متاحفهم، عددا من الحنيات الجصّية.

برديّة: هي كلمة تعني الورق المصنوع من نبات البردي، وكان يستعمل كمادة للكتابة، وسجّل عليه المصريون القدماء كل معارفهم، ويقدّر عدد البرديّات الموجودة في متاحف ومعاهد العالم بمئات الآلاف.

بطرس: هو أهم تلاميذ يسوع المسيح، وقد اختاره في الأيام الأولى من بداية التبشير بالديانة الجديدة، ليكون ذراع يسوع المسيح الأيمن، بعد أن كان صائدا للأسماك في بحيرة طبرية، وقبل موت المسيح كان قد أوصى بطرس ببناء أوّل كنيسة. وقد عاش بطرس حتى تعدّى سن السبعين، ومات مقتولا في روما.

بولس: كان في بداية حياته يعرف باسم شاول الطرسوسي، واشتهر باضطهاد المسيحيين بعد صعود المسيح إلى السماء. ثم اعتنق المسيحية واستفاد من معارفه اليونانية واللاتينية، في كتابة الرسائل إلى شعوب الأرض يدعوهم إلى الايمان بالمسيح.

بيزنطي: هو كل ما له صلة بالامبراطورية البيزنطية، التي تسمّى كذلك الامبراطورية الرومانية الشرقيّة، التي أسّسها الامبراطور قسطنطين، في أوائل القرن الرابع الميلادي، منفصلا بذلك عن الامبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما، واتّخذ لها عاصمة في بيزنطة، التي ستصبح لاحقا مسمّاة باسمه، مدينة قسطنطين Constantinopolis، ثم ستسمّى الآستانة منذ الغزو العثماني لها في القرن الخامس عشر الميلادي، لتصبح عاصمة العثمانيين، وهي نفس المدينة التي تسمّى اسطنبول حاليا.

(ال) جليل: هي منطقة جغرافية تنقسم إلى جزئين، هما الجليل الأعلى ويقع حاليا في جنوب لبنان، والجليل الأسفل ويقع حاليا في شمال فلسطين المحتلّة. والجليل الأسفل هي المنطقة التي عاش فيها يسوع المسيح أغلب وقته خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، خاصة حول شواطئ بحيرة طبرية الواقعة بأكملها في الجليل الأسفل.

ديسقالية مسيحية: وهي مجموعة نصوص تعليمية، تمّ تجميعها عبر العصور المسيحية، لتصير في شكلها الحالي عند طباعتها لأول مرة في منتصف القرن الخامس عشر، وتظهر فيها نصوص من القرون الأولى للميلاد، تحرّم قتل الأطفال مهما كانت الأسباب حتى لو كان مقدّرا لهم أن يموتوا جوعا.

سيرابيس: هو الإله المصري الذي كان يجمع في عبادته بين عبدة أوزيريس وعبدة أبيس، والاسم مشتق من اندماج الاسمين (سير+ ابيس). سير هي اختصار أوزيريس، وهو إله الأبدية والعالم الآخر في فترة العصر المتأخر، وهي فترة الأسرات المصرية العشر الأخيرة، أما أبيس فهو إله الخصوبة والقوة البدنية بداية من الأسرة السادسة والعشرين، وهو الإله الذي اتخذّ لنفسه العجل رمزا.

(طا وي) أي الأرضين: ملك الأرضين وموحّد القُطرين، (سما طا وي)، هو اللقب الذي كان يحصل عليه فرعون مصر عندما ينجح في توحيد القطرين، والقُطران هما شمال البلاد حيث دلتا النيل، مع جنوب البلاد حيث وادي النيل، وكانت مصر منقسمة إلى بلدين منفصلين يحكمهما ملكان مختلفان، حتى نجح الملك مينا مؤسّس الأسرة الفرعونية الأولى في توحيد القطرين، حوالي سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد.

عليون: هي كلمة موجودة في العديد من لغات منطقة الشرق الأدنى القديم، مثل العبرية والآرامية والسيريانية والأوجاريتية، خلال ألفي سنة قبل الميلاد، وكانت يقصد بها عند ورودها في التوراة، الله العليّ الأعلى من كل من عداه، وقد تكون هي الأصل في كلمة ايلوهيم الدالة على الله في الكتابات التوراتية.

لوثر: هو مارتن لوثر الذي قاد حركة اصلاح كنسي في ألمانيا، في أوائل القرن السادس عشر، بعد أن كان فساد كنيسة روما وباباواتها قد أزكم أنوف العالم. هو أيضا مؤسّسة الكنيسة البروتستانتية، والكلمة تعني الكنيسة المحتجّة protestant.

مجامع مسكونية: هي المؤتمرات التي جمعت كل رؤساء كنائس المؤمنين بالمسيحية، خلال القرون الأولي من الميلاد، لمناقشة مسائل تتعلّق بالموضوعات الإيمانية، مثل طبيعة السيد المسيح، وهل هو بشر أم اله. وأشهرها مجمع نيقيا في ٣٢٣، ومجمع خلقيدونيا سنة ٤٥١ ميلادية. ونيقيا وخلقيدونيا هما مدينتان يقعان حاليا في تركيا، التي كانت في ذلك الوقت جزءا من الإمبراطورية البيزنطية.

مرقص: هو أحد كتبة الأناجيل الأربعة، وهو لم يكن من بين الاثني عشر، الذين اختارهم يسوع في بداية كرازته، بل كان من بين السبعين، الذين اختارهم يسوع قرب نهاية حياته. كان مرقص من أصول مصرية، ويجيد اللغة المصرية، لذلك بعد صعود المسيح إلى السماء، جاء إلى مصر ليخبر المصريين بالإيمان الجديد.

مجوس: هم كهنة زرادشت في فارس القديمة، واشتهروا باتقان قراءة الفلك وبالأعمال السحرية، لذلك اشتقت كلمة سحر magic في اللغات الأوربية من اسمهم. كان ثلاثة منهم قد ذهبوا من فارس إلى فلسطين للاحتفال بمولد المسيح، الذي كانت النجوم قد أخبرتهم بمولده.

هيلينيستي: هو كل أثر معماري أو فني أو فلسفي، له صلة بالحضارة اليونانية، ولكن

حدث أو وُجِدَ جغرافيا خارج منطقة الحدود الجغرافية لليونان. وقد استعمل هذا المصطلح المشتق من اسم هيلينا البطلة اليونانية الأسطورية، للتدليل على عِظَم تأثير الحضارة اليونانية خارج حدود اليونان، خاصة في الفترة التي تلت غزو الاسكندر الأكبر المقدوني، لجزء كبير جدا من العالم القديم، حتى أنه وصل إلى الهند.

قائمة بمراجع الكتاب بترتيب ورودها في النصّ

- قواعد الأشكال الفنية/ ديلفوي Delvoye/ ١٩٨٢
- المسرح المصري/ إتيان دريوتون / Etienne Drioton ١٩٤٢
- قصص وأساطير من مصر القديمة/ جوستاف لوفافر/ Gustave Lefebvre/ باريس/ ١٩٤٩.
- الاختلاف بين البوذية والمسيحية/ للقدّيس جيروم Jerome
- حياة بوذا/ فوشير
- كتاب ماهافاستو/ مولد جوتاما بوذا/ جونز Jones
- كتاب لاليتا فيسترا Lalita Vistra/ طبعة فوكوه Foucaux
- تلمود بابيلون Talmud of Babylon
- التاريخ الكنسي/ نيسيفور كاليست Nicephore Calliste
- عن الثالوث/ De Trinitate/ للقدّيس أوغسطينوس
- كتاب البرديات الاغريقية السحرية Papyri Graecae Magicae/ متحف مدينة لايبزيج بألمانيا
- كتاب ما قبل الأناجيل Protevangile/ للقدّيس يعقوب Jacob
- قاموس لآثار العائلة المقدّسة/ / لوكليرك Leclercq
- قاموس الفنون والآثار المسيحية/ لوكليرك Leclercq
- صُبْح الأعشى في صناعة الانشا/ القلقشندي
- كتاب أوريجانوس المصري السكندري المعنون باللاتينية Contra Celsum ومعناها في مواجهة التعالي والتفاخر الكاذب
- كتاب التاريخ/ للمؤرخ يوسيفوس
- كتاب أضرحة كفر ناحوم/ للمؤلف فيرجيليو كوربو
- كتاب الاكتشافات الأثرية في قيصرية بفلسطين/ جوزيف رينجل Ringel/ باريس/ ١٩٧٥

- كتاب حفائر جامعة هارفارد في فلسطين/ جورج أندرو رايزنر Reisner/ ١٩١٠
- كتاب الحوليّات/ للمؤرّخ اليوناني تاسيتوس
- كهنة ومعابد الحضارة المصرية القديمة في العالم الهيلينستي/ للمؤلّف والتر أوتو/ روما/ ١٩٧١
- مسخ الكائنات Metamorphoses/ للمؤرّخ اللاتيني أبوليه Apulee
- تاريخ العبادات المصرية خارج مصر/ جورج لافاي/ باريس/ ١٨٨٤
- ترنيمات ايزيدورا/ فردريكا فاندرليب/ تورنتو/ ١٩٧٢
- الموسوعة المصرية/ وزارة الثقافة المصرية/ محموعة مؤلفين/ طبعة ١٩٦٠
- قاموس الكتاب المقدّس/ دار الثقافة المسيحية/ طبعة ١٩٩٩
- آثار وأيقونات سيرابيس/ ليدن/ ١٩٨٣
- دراسة في الكتابات العبرية واليونانية واللاتينية على المقابر/ في دورية الكتاب المقدّس/ عدد سنة ١٩٧١/ للمؤلف أفراهام نيجيف
- كتاب البعثة المشتركة إلى ميناء قيصرية Joint expedition to Caesarea Maritima/ من تأليف جدعون فورستر/ طبعة مونتانا سكولرز
- كتاب مسيحية العهد الجديد/ كولمان/ ١٩٥٧
- آلان جاردنر Alain Gardner/ معمودية الفرعون the Baptism of the Pharaoh
- كتاب قوانين هيبوليت/ the canons of Hippolyte/ طبعة سنة ١٩٦٦
- كتاب ملوك وآلهة مصر/ موريه Moret/ باريس/ ١٩١١
- الفن الباليو كريستيان paleochristian/ أي ماقبل المسيحي/ بيار دو بورجيه/ ١٩٧١
- كتاب من هو يسوع الناصري؟/ للألماني جونتر بورنكام/ باريس/ ١٩٧٣
- ترنيمات وصلوات من مصر القديمة/ للمؤلفين باروك ودوما/ سنة ١٩٨٠
- أشرف اسكندر صادق/ ديانة مصر القديمة أعدّت الطريق للمسيحية/ العدد التاسع من مجلّة العالم القبطي (بالفرنسية)/ ١٩٨٠
- جوزيف تابوري/ مجلة عمّانوئيل Immannuel/ العدد ١٢ سنة ١٩٨١
- Hennecke/fragment copt/ / كتاب أبوكريفا العهد الجديد أي الأسفار غير القانونية للعهد الجديد/ سنة ١٩٥٩

- كتاب أورشليم المقدّس/ طبعة ١٩٨٣
- كتاب الموتى في مصر القديمة/ نسخة كولباكتشي Kolpaktchy
- كتاب التاريخ المسيحي على ضوء ما جاء في النصوص المتتالية للأناجيل/ هاينريش جوليوس هولزمان/ فرايبورج/ ١٨٩٢
- كتاب مصر القديمة والمعتقدات المسيحية/ للمؤلف كيرت زيتيه/ لايبزيج/ ١٩٣٠
- أوزيريس/ جون جريفيث/ ١٩٨٢
- كتاب دراسات في الديانات الشرقية/ للمؤلف جيمس فريزر Frazer/ ماكيملان/ لندن/ ١٩٠٦
- معجم ألفاظ اللغة المصرية القديمة/ أدولف إيرمان Erman/ لايبزيج/ ١٩٢٨
- كتاب التاريخ/ هيرودوت
- نصوص معبد دندرة/ شاسينا Chassinat/ المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة IFAO/ ١٩٦٨
- القصص الشعبية في مصر القديمة/ جاستون ماسبيرو/ باريس/ ١٩١٢
- قاموس آثار وطقوس الكنيسة القبطية / ماريا كرامر
- الكنيسة الأرمينية/ لوكلارك/ ١٩٦٦
- تاريخ الأديان/ الجزء الثالث/ اتيان دريوتون/ باريس ١٩٥٥
- معجم مفردات اللغة المصرية القديمة/ تأليف إيرمان وجرابوف/ طبعة ١٩٣٠
- قاموس اللغة المصرية في العصر المتأخر/ من تأليف ليونارد ليسكو/ ١٩٨٤
- المرشد إلى الآثار المصرية/ من تأليف فانديه/ نسخة باريس ١٩٦٩
- (الصقر المقدّس) إشارة إلى حورس/ من تأليف مارتا روسبولي/ مطبوع في جينيف بسويسرا/ سنة ١٩٦٩
- أعياد الربيع عند القبائل السامية الكنعانية/ للمؤلف جوزيف هينينجر/ من مطبوعات جابالدا/ باريس ١٩٧٥
- قاموس اللاهوت الكاثوليكي/ الصادر عن الفاتيكان سنة ١٩٢٣/ الجزء الثامن/ مادة يسوع المسيح
- كتاب المرشد إلى المعتقدات المسيحية بين الكاثوليكية والبروتستانتية/ للمؤلف كارل بروم/ الصادر في ألمانيا سنة ١٩٥٤

- معجم المصريّات Lexikon der Agyptologie/ للمؤلف هارتويج آلتن مولر/ ألمانيا ١٩٧٧/ مادة الأعياد
- كتاب المؤرّخ اليوناني ترتيليانوس Tertulianus
- كتاب ايزيدوروس هيسبالينسيس Isidorus Hispalensis
- نسخة توراة أورشليم المطبوعة سنة ١٩٨٣
- كتاب سبيليرز Speleers عن نصوص الأهرامات
- كتاب الثقافات البدائية/ للمؤلف إدوارد تايلور/ طبعة لندن/ سنة ١٩٠٣
- كتاب الأشكال البدائية للممارسات الدينية/ للمؤلف إميل دوركايم/ طبعة باريس/ سنة ١٩٢٥
- كتاب مصر والتوراة/ للمؤلف بيار مونتيه/ طبعة نيوشاتيل/ سنة ١٩٥٩
- كتاب نشأة الأبجديّات المستعملة في الكتابة/ للمؤلفة كريستيان زيجلر/ طبعة اتحاد المتاحف القومية/ باريس سنة ١٩٨٢
- كتاب الموتى (من الدولة المصرية الحديثة)/ تعليق ايفلين روسيتر
- كنوز الفراعنة/ تأليف سيريل ألدريد/ طبعة ١٩٧٩
- من حروف الكتابة المصرية القديمة إلى الديانة المسيحية/ تأليف جون دوريس/ طبعة اسطنبول/ سنة ١٩٦٠
- قاموس اللاهوت الكاثوليكي/ للمؤلف كي ييه Quilliet/ الجزء الثالث / طبعة ١٩٢٣
- لسان العرب/ ابن منظور/ الجزء رقم ٨/ طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة
- كتاب معجم المصطلحات العبرية في التوراة/ من تأليف براون ودرايفر وبريجز/ طبعة سنة ١٩٥١
- قاموس الحضارة المصرية/ لجورج بوزنر/ من مطبوعات هازان بباريس
- [قاموس ايرمان وجرابو Erman und Grapow/ لكلمات اللغة المصرية القديمة Worterbuch der Aegyptischen Sprache / طبعة ١٩٢٦
- قاموس الانجليزية والعبرية/ من مطبوعات أوكسفورد/ للمؤلفين براون ودرايفر وبريجز/ سنة ١٩٥١
- جرافيتي منزل القدّيس بطرس في كفرناحوم/ إيمانويل تيستا/ المطابع الفرنسيسكانية بالقدس/ ١٩٧٢

- الثقافة البدائية Primitive culture/ للمؤلف ادوارد تايلور/ لندن/ ١٩٠٣
- الديانة البشرية Anthropological Religion/ للمؤلف ماكس مولر/ لندن/ ١٩٠٣
- الأشكال الأساسية للحياة الدينية les formes elementaires de la vie religieuse/ / للمؤلف إميل دوركايم/ باريس/ ١٩٢٥
- كتاب ديانات أفريقيا السوداء/ لتوماس ولينو/ باريس ١٩٨٩
- كتاب قبائل الماساي/ للمؤلف هوليس Hollis/ طبعة أوكسفورد سنة ١٩٠٥
- كتاب المسكن والاقتصاد والمجتمع/ للمؤلف داريل فورد Daryll Forde / لندن ١٩٦٣
- الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر/ للمؤلف فرناند بوديل/ والمترجم دكتور مصطفى ماهر/ صادر عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع/ القاهرة/ ١٩٩٣
- تاريخ شعب اسرائيل/ للمفكّر إرنست رينان Renan/ طبعة باريس/ ١٩٢٧
- مؤلفات بومبونيوس Pomponius عن أصول القوانين المتعلّقة بالعدالة القضائية De origine juris
- كتاب ديانة وثقافة الرومان/ للمؤلف فيسوفا Wissova/ سنة ١٩١٢
- كتاب هيسيود/ من ترجمة الفرنسي بول مازون/ دار نشر بوديه Bude/ طبعة ١٩٨٢
- كتاب الريج فيدا Rig –Vida، أو مبادىء الأوبانيشاد/ للمؤلف ويلسون/ ١٩٢٨
- رادا كريشنا/ طبعة لندن/ ١٩٥٣
- كتاب فيشنو Vishnu/ في سلسلة كتب الشرق المقدّسة/ طبعة أوكسفورد/ سنة ١٨٨٠
- الكتب المقدّسة الأوبانيشاد/ ماكس مولر/ الأعمال الكاملة/ لندن/ ١٨٩٨
- التصوّر السومري للحياة بعد الموت/ للمؤلف رايموند ريك جاستين/ ١٩٥٦
- كتاب تاريخ المؤسّسات والحقوق المدنية في مصر القديمة/ للمؤلف جاك بيران/ بروكسل/ ١٩٣٢
- كتاب فولكنر/ عن نصوص التوابيت/ الصادر في انجلترا/ سنة ١٩٧٣
- كتاب ترنيمات إلى إيزيس/ للمؤلفين باروك ودوما Barucq and Dumas/ سنة ١٩٨٠
- كتاب أوزوريس/ للمؤلف الانجليزي واليس بادج Wallis Budge/ طبعة دوفر Dover

فهرس موضوعات الكتاب

- مقدّمة
- الفصل الأول: الميلاد
١. الأساطير المرتبطة بميلاد المسيح
٢. أساطير من مصر القديمة
٣. معجزة الميلاد المقدّس
٤. قلق السلطات الدنيوية
٥. عظمة البطل الشعبي
٦. الصفات الشخصية للبطل
- الفصل الثاني: الأسرة
١. أسرة فقيرة
٢. الأم مريم
٣. علاقة الأم بالطفل
٤. الأب يوسف
٥. المكان الذي عاش فيه الطفل
- الفصل الثالث: المجتمع
١. طبقة النبلاء
٢. الكتلة الجماهيرية

٣. بؤس الطبقة العاملة
- الفصل الرابع: الحياة الدينية
١. المعابد والكهنة
٢. الكهنة المصريون
٣. الصدّوقيّون والفرّيسيّون
- الفصل الخامس: العبادات
١. عبادة إيزيس في فلسطين
٢. أوزيريس أم يهوه؟
٣. الألقاب الأوزيرية
٤. يسوع في هيكل أوزيريس
- الفصل السادس: الطقوس
١. معمودية نهر الأردن
٢. معمودية الكنيسة القبطية
٣. العشاء الأخير
- الفصل السابع: أسبوع الآلام
١. يسوع وأحد السعف
٢. أسبوع آلام أوزيريس
٣. أسبوع آلام المسيح
٤. مسرحية آلام أوزير
٥. صلب المسيح
- الفصل الثامن: أعياد شعبية
١. شمّ النسيم

٢. الفصح اليهودي
٣. الاحتفال بليلة الخروج
٤. الخمسين
- الفصل التاسع: الرموز
١. الصليب المصري
٢. الخبز غير المتخمّر (البتاو)
٣. الفسيخ
٤. السمكة
- الفصل العاشر: العالم الآخر
١. التطوّر البشري
٢. الأسياد والعبيد
٣. تواطؤ الكهنة مع الأسياد
٤. تناسخ الأرواح
٥. بعث الموتى
٦. الاله الواحد القهّار
٧. كرسي العرش
- الفصل الحادي عشر: الحساب الأخير
١. بداية الكون
٢. خلق الإنسان
٣. الحساب الأخير
٤. يوم الدينونة
٥. الصورة المادية للجنّة

٦. الصورة الروحانيّة للجنّة
- الفصل الثاني عشر: يسوع المسيح
١. من هو؟
٢. تاريخ ميلاده
٣. مدّة حياته
٤. المسيح معالجا روحيّا
٥. قدرات القرين (كا)
٦. العلاج المُعْجِز
- فهرس المصطلحات والأعلام
- قائمة بمراجع الكتاب بترتيب ورودها في النصّ
- فهرس موضوعات الكتاب

ملحوظتان مهمتان:

بمؤلّف آخر الأناجيل القانوينة (القانونية)
هذه الجملة ص ٣٠ هل هي صحيحة؟؟؟؟

تكون منثورة بترتيب على بطن القبقرة (البقرة)
هذه الجملة في ص ١١٩ هل هي صحيحة؟؟؟؟